كان لبيتنا جدران

اسم الكتاب:	كان لبيتنا جدران
اسم الكاتب:	محمد فوزي الشربيني
تصميم الغلاف:	محمد
الإخراج الفنيّ:	جمال عبدالرحيم
الطبعة:	الأولى
رقم الإيداع:	23369 / 2021
الترقيم الدولي	978-977-6939-00-0

Gmail	almaktaba79@gmail.com
facebook	Facebook.com/arabiclibrary2017
	01030365801 – 01014977934

جميع الحقوق محفوظة

للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

كان لبيتنا جدران

رواية

محمد فوزي الشربيني

الإهداء

إلي والداي اللذان أدين لهما بالفضل في كل نجاح أحققه ..

وإلي أختى نهي وزوجها محمد نبيل وأبنائهما أحمد وياسين .. والتى كم وقفت بجواري وخلفي طويلاً لأضع قدماً على هذا الطريق وليخرج عملي الأول للنور .. وإلي أخي الأصغر د.خالد رفيق القراءة بسنوات الطفولة والشباب والذي غاب عن هذا المجال بعد أن إستطاعت صعوبات ومشاغل الحياة أن تنتزعه عن هذا الطريق وتحول بوصلة اهتمامه لإتجاهات أخري .. وإلي ابنتي الحبيبة سهيلة وزوجتى التى تحملت غيابي وإختفائي عنها بصومعة الكتابة لتوفر لي الجو المناسب والمناخ الملائم ولا تقطع تركيزي لتتركني لما تطلق عليه زيارات إلهام .

إلي الدكتورة منى كما أحرص دوماً على أن أناديها .. صاحبة الآراء الوجيهة والأفكار الجديدة ومرآتي التي تلفت إنتباهي لما لا أراه وأحد أهم عيوني على ما أكتب ... أشكرك كثيراً وإن كنت لم أجد بعد الكلمات الكافية لأوفيك حقك الملائم من الشكر ... وإلي صديقي العبقري محمد الغاياتي الغائب عني منذ سنوات طوال وأول من نصحني وهو يراني أهدر سنوات عمري خلف شاشات الكمبيوتر بأن هذا ليس هو الطريق الأنسب لي بل طريق الكتابة أحب أن أقول لك بأن كلماتك لم تغادر عقلي طوال سنوات بأكملها متحولة لسؤال ملح .. متي سأفعلها ؟

إلي هؤلاء جميعاً وإلي كل من وقف بجواري ودعمني ولم يتسع المجال هنا لذكره وشكره أقدم لكم جميعاً شكري وتحياتي وإليكم أهدي عملي الأول.

(١)

لم يخطر ببال (زياد) أن يجد نفسه وقد صار وطواطاً سواد الليل هو ذروة نشاطه حين يلج في متعة أبواب الشبكة العنكبوتية متناسياً واقعه و همومه وراء ظهره..

كان يرقد والجميع مستيقظين وحين يهبط سواد الليل ويخلدُ الجميع للنوم ، يستيقظ الوطواط الكامن داخله لينطلق محلقًا في رحلة لا تنتهي إلاَّ بتسلل الخيوط الأولى لضوء الفجر والليل يهمَّ بالرحيل تاركًا إياه منهكاً وقد أجهز عليه التعب والإجهاد ليعود الوطواط لوكره ليوقظ الموظف المُنهك على كابوس بغيض أن عليه الذهاب للعمل بعد قليل ، يغالب النوم بجسدٍ أنهكه السهر وجفون أثقلتها الرغبة في الرقاد في معركة كل يوم إلي أن يتحقق له النصر على تعبه أخيرًا فينهض للذهاب للعمل .

وقع اختياره بمقر عمله على رواق مظلم مُكدّسٍ بالملفات القديمة المتربة وجد فيه أنسب مكان لتعويض نقص النوم لديه ، الرواق كان ضيقاً بلا أبواب لكن الداخل إليه سيتردد ويفكر كثيرًا قبل الدخول خشيةً على نظافة ثيابه من الغبار والأتربة المتراكمة والأهم أن ثمة جلبة وضوضاء لا بد من حدوثها مع الدخول قد يصاحبها تعثر أو سقوط أشياء وهو ما سيكون كافيًا لإيقاظه من أعمق نوم ليقوم بذات الدور الذي أتقنه مع الوقت .. دور الباحث عن بعض الملفات القديمة الهامة.

دلف (زياد) لمقر عمله بذلك المبنى ذو الغرف المرتفعة الأسقف شاسعة الاتساع طبقًا لطراز ونمط ذلك النوع من المباني القديمة، سحب لنفسه مقعدًا وضعه خلف أحد دواليب الأوراق ليكون ستارة تخفيه عن عيون الداخل للغرفة ، أسند رأسه على ظهر الدولاب المغلق وغمغم وهو يتثاءب في كسل قائلًا:

- "فرجينيا.. جميلة الجميلات.. أحلى صباح يا قمر".

ابتسامةٌ جميلة حملها وجه (فادية) وهي تقلب السكر داخل الكوب مجيبة:

- "صباح الفل يا (زياد).. دقيقة ويكون النسكافيه بتاعك جاهز".

دخل (علاء) هو الآخر ليضع طعام إفطاره على مكتبه قائلًا:

- "صباح الورد والفل والياسمين على ملكة جمال إدارتنا".

ابتسمت (فادية) لدعابته ووصفه لها بملكة جمال الإدارة وهي الفتاة الوحيدة بينهم.

بدأ (علاء) بفضِّ أكياس الطعام وفرش الإفطار على مكتبه مخرجًا بصلة حمراء صغيرة ضربها بقبضته فكسرها شطرين تناول أحدهما وقضَم جزءًا منه مع تصاعد حرارة الرائحة في الغرفة متمتماً باستمتاع:

- "تفّاااااااااااااااااااااااااااااح"

دخل (عادل) الغرفة وقد تقلّصت ملامح وجهه من رائحة البصل التي فاحت بالمكان فهتف في ضيقٍ صائحًا:

- "افتح الشباك يا عم (علاء).. مش طالبة البصل ده عالصبح".

أجابه (علاء) بفم ممتلئ بالطعام قائلًا:

- "اتفضل.. تعال افطر معايا".

قدَّمت (فادية) النسكافيه لـ(زياد) وهي تتحرك بحيوية لتفتح النوافذ لتغيير هواء الغرفة ثم ملأت الإبريق الكهربي بالماء لتعدّ دورًا جديدًا من الشاي لكلٍ من (علاء) و(عادل) ، سألت وهي تضع السكر في الأكواب قائلة:

- لم تخبرنا يا (زياد) ماذا فعلت مع البرازيلية التي كانت تنوي زيارتك وقضاء عطلتها السنوية هنا معك؟

أجابها وهو يلعق شفتيه بعد رشفة من النسكافيه تركت أثرها على شاربه قائلًا:

- أخبرتها بأنها إن فعلت هذا فستكون قد قدّمت لي بحق أروع هدية لهذا العام.

صفّق (عادل) في مرحٍ قائلًا:

- وبماذا أجابتك بعد كلمات العشق الساحرة هذه؟

- أخبرتني بأنها تكتشف معي ولديَّ كل يومٍ أشياء طال بحثها عنها.

همهم (علاء) ساخرًا:

- وهل هي من أنهت الحديث معك لتفتح حوارًا أكثر إمتاعًا مع آخر ، أم صاح الديك وأدرك شهريار الصباح ؟!!

قاطعه (عادل) وهو يشير لوجه (زياد) قائلًا:

- وهل هذا وجه من ذهب للنوم باكرًا بجفونه التي تتساقط رغمًا عنه وسَيَفْرُغُ من كوب النسكافيه الذي بين يديه ويأوي إلى مخبئه كالمعتاد تاركاً لنا نحن تقديم الإجابات عن غيابه ، وإجابة السائلين عنه بأن "حنفي في المعمل".

قاطعهم (زياد) بزهوٍ قائلًا:

- تعرَّفتُ على مطلَّقةٍ إسبانية حكاية ! ، ظللت أتحدّث معها حتى ارتفع أذان الفجر ، تعلمون بأن أبي يصلي الفجر معي في المسجد ، استأذنتها في دقائق للصلاة لكني لم أجدها بعد عودتي ، ظللت أبحث عنها حتى لحظات قيامي وارتداء ملابسي للذهاب للعمل لكنها اختفت.

تمتم (عادل) ضاحكًا:

- أهي فاتنة هكذا ؟! لتترك لديك كل هذه اللهفة في البحث عنها.

ابتسامة ملأت وجه (زياد) وهو يُجيب قائلًا:

- ملكة جمال يا صديقي ، ممرضة عمرها ٣٢ سنة ، عاشت بالولايات المتحدة لفترة من عمرها قبل أن تعود لإسبانيا ولهذا استطاعت أن تفهمني وتفهم إنجليزيتي الكسيحة.

تمتمت (فادية) بدهشة:

- إسبانية أم برازيلية؟! حيَّرتنا معك يا (زياد).

أجابها (زياد) :

- المهم ألاَّ تكون مصرية.

تمتمت (فادية) في عجبٍ قائلة:

- ستنسى كل هذا عندما تقابل فتاة أحلامك وتسقط في الحب عندها ستعرف بأن ...

قاطعها (زياد) في حسم:

- "انسى يا عمرو".. مستحيل بل رابع المستحيلات أن يحدث! لأني أعتبر الحب غباء بشري وكلام روايات وأفلام للمشاهدة وقضاء الوقت لا أكثر .. أشياء يضحكون بها على عقول المراهقين والمراهقات ، وسلعة شديدة الأهمية تقوم عليها أسواق بالكامل. هل فكرتِ يومًا بكمّ

مبيعات الهدايا في عيد الحب أو سوق الأغاني وكلمات الحب والهيام والغدر والخداع "وياريتني عرفتك من زمان".. سلع وجدت سوقها الرائجة وأفضل مبيعات لها بين أولئك الأغبياء ممن سقطوا في وهم الحب.

ردّت (فادية) في ضيق:

- "مش عشان مجرَّبتش يبقى مش موجود يا (زياد)!".

أجابها (زياد) بثقة قائلًا:

- "ممكن أسألك سؤال ... إنتي بتحبّي خطيبك؟! ".

صمتت (فادية) ورفعت جفنيها لأعلى تفكر وقد أذهلها سؤال (زياد) المفاجئ ، لكن (زياد) لم يمهلها الوقت وأجابها قائلًا:

- "أكيد لأ.. ومن غير ما تكذبي أو تحاولي تتهربي من الإجابة ، الموضوع واضح .. عمرنا ما شفناكي ماسكة التليفون وهيمانة في مكالمة معاه ، أو أستغفر الله العظيم مكسوفة وبتنتظري بلهفة لحظة وصوله عشان يروحك البيت، أو بتفكري في هدية عيد ميلاده أو عيد الحب".

قهقه (علاء) مقاطعًا:

- "عيد حب مين يا عَم؟! دي أخرها هدية عيد الأم لحماتها بالعافية.. ده لو فكرت تجيبها أصلًا".

تابع (زياد) مردفًا:

- "والجوازة بتاعتك غالبًا هتطلع من النوع بتاع بابا وماما عايزين كده ، وممكن تكون مشاعرك تجاهه فاترة مثلًا.. ده لو افترضنا إنها موجودة أصلًا والمشكلة في الغالب هتطلع إنك مش قادرة أو عارفة تقولي لأ ".

التفت (زياد) بعدها بنظره نحو (علاء) مضيفًا:

- "وأخونا (علاء) خاطب (نرمين) بنت خاله وهيتجوزها، تفتكري عشان بيحبها أو هيمان في عشقها مثلًا؟.. أكيد لأ!! هيتجوزها لأن أبوه شايف إنه هوّ أولى واحد بعزّ خاله رجل الأعمال المعروف مش حد غريب ، وعشان ورث خاله بعد عمر طويل ميطلعش برّه.. مش كده ولا أنا غلطان يا عم (علاء)؟!".

تغيَّرت ملامح وجه (علاء) وارتسم علي وجهه ضيق حاول إخفاءه قائلًا:

- "شكل قِّلة النوم قلبت معاك بتخاريف يا (زياد)".

التفت (زياد) بعدها لـ(عادل) قائلًا:

- "و(عادل) عنتر زمانه.. والوحيد من أصدقائي اللي أعرفه اتجوز بعد قصة حب كبيرة ولا جميل وبثينة وعنتر وعبلة.. حد فيكم سمعه في يوم من الأيام بعد الجواز بيتكلم عن الحب أو بيفكّر في هدية ليها في عيد ميلادها أو عيد الحب! لو سألتيه دلوقتي بتفكر في إيه يا عم (عادل) ممكن يكلمك عن البامبرز اللي قّرب يخلص أو فواتير الكهربا والميه والغاز والإيجار وإزاي هيعرف يكمل الشهر.. اسأليه، ولو أنا غلطان أهو موجود معانا يصحح لي".

قهقه (عادل) مجيبًا:

- "والله الراجل ده بيفهم.. وطالما أنت قلت الكلام الحلو ده يبقى شوف لي معاك ٢٠٠ جنيه سلف أكمّل الشهر".

ضرب (زياد) كفًا بكف وهو يخرج النقود ويناولها له ضاحكًا:

- "اتفضل يا عم (عادل)، أنا اللي أستاهل، يعني كان لازم أتسحب من لساني وأجيب سيرتك!.. غرامة عالصبح، لكن ماشي عشان أنت غالي عندي بس".

خرجت (فادية) لغسل الأكواب ، وبدأ (زياد) عملية التهيئة المعتادة لمكتبه قبل أن يأوي إلى ركنه المفضل ليبدأ وصلة النوم الرئيسية في يومه ، وضع بعض الملفات على مكتبه وفتح أحدها أمامه مع فرش بعض الأوراق ووضع قلم منزوع الغطاء فوقها ليبدو وكأنه كان يعمل وقام لتوه ، لوّح لزملائه بكف يده في حركة وداع قبل أن يغادرهم وهو يضحك قائلًا:

- "بينًا تليفونات لو في حاجة".

غادر (زياد) لركنه المفضل ، وعادت (فادية) بالأكواب المغسولة فأعادتها لموضعها وهي تقول لـ(علاء) في رجاء:

- لا تغضب من حديث (زياد) عن خطوبتك من (نرمين) ابنة خالك وتترك الفرصة للشيطان للدخول بيننا و...

هزّ (علاء) كتفيه في لامبالاة قائلًا:

- لو كان مكاني لفعل مثلي ودعك من الحديث عن خالي وثروته فهي ابنة خالي أولًا وأخيرًا وأعلم عنها كل شيء منذ كنا أطفالًا نلعب سويًا حتى صارت شابة يافعة في سن الزواج...

التفت (عادل) لـ(فادية) مقاطعًا:

- إن أردتِ الصراحة فأنتِ هي من خشيت أن تغضب منه ومن حديثه معكِ بتلك الطريقة عن خطبتك.

هزَّت (فادية) رأسها في نفي قائلة:

- (زياد) طيب ومتأكدة من أنه لم يقصد شيئًا والحقيقة أني أشفق عليه من والده الذي لا يفكر في أمر زواجه مطلقًا مختصرًا كل رسالته تجاهه في جملة واحدة "لقد علمتك كما علمني أبي".

أردف (عادل) ضاحكًا:

- لقد أكلت الشبكة العنكبوتية عقله ووقته ، يقضي وقته إمّا في الحوار مع الأجنبيات على أمل أن ينجح في إقناع إحداهن بالزواج منه ليهاجر لموطنها أو في القراءة وجمع الكتب ليبدو مثقفًا في حواره معهن ، دعك من أنه قد يضع ما يجمعه من كتب أو أفلام على أقراص مدمجة ويبيعها لتحسين دخله.

غمغم (علاء) في عجبٍ من حديثهم قائلًا:

- لا أرى الأمر بالسوء الذي ترونه فـ(زياد) قد أصبح لديه ثقافة كبيرة بالفعل من القراءة العاكف عليها ليل نهار في كل المجالات منذ سنوات بصرف النظر عن سبب قراءته أهو لإقناع إحدي الفتيات الأجنبيات به أم لإعداد نفسه للاشتراك في برامج المسابقات التي يتابعها على أمل أن يربح المليون يومًا أو يكسب ما يساوي وزنه ذهبًا.

- جيد أن ذكرتني.

تمتمت بها (فادية) وهي تتحرك لمكتبها فتخرج منه قرصًا مدمجًا ناولته لـ(عادل) قائلة:

- إنها كتب وقواميس اللغة الألمانية التي طلبتها لصديقك الذي يدرس الألمانية ، أحضرها (زياد) باكراً وأخبرني أن أعطيها لك وأخبرك أنها بنفس سعر المرَّة السابقة.

انطلق رنين الهاتف ليقطع حديثهم، رفع (علاء) السمّاعة مجيبًا:

- "ألو.. أنا (علاء) حضرتك".

- .....

- "حاضر يا أفندم.. دقيقة ونكون عند سعادتك".

وضع (علاء) سمّاعة الهاتف والتفت إليهم قائلًا:

- "اجمع زملاءك وكونوا عندي الآن".. المدير يريدنا جميعًا في اجتماع لأمرٍ هام.

ذهبت (فادية) لإحضار (زياد) من مخبئه فحضر وهو يفرك عينيه ويتثاءب في كسل قائلًا:

- لماذا أتيت اليوم؟ ليتني أصغيت لرغبتي في النوم وتابعت نومي ولم أحضر.

دخل الشباب ليقفوا متجاورين بغرفة المدير الذي كان بانتظارهم، أشار لهم بالجلوس ثم تحدّث بوجه ارتسمت عليه الجدِّية قائلًا:

- ستنضم لمجموعة العمل بينكم زميلة جديدة ليست تعيين وإنما تدريب بدوام عمل كامل.

لم يعقب أي من الزملاء بل فضلوا الصمت فليس هناك حتى الآن ما يبدو غريبًا أو هامًا يستدعي عقد اجتماع ، تابع المدير حديثه قائلًا:

- المتدربة الجديدة هي ابنة لرئيس مجلس إدارة شركة أخرى وصديق حميم لرئيس شركتنا ، هل تفهمون ما يعنيه هذا؟

تبادل الزملاء الشباب النظرات دون كلام بانتظار أن يواصل المدير حديثه ليوضح لهم بدقة ما أراد لفت انتباههم إليه فتابع قائلًا:

- أول ما يجب عليكم الحذر منه أنَّ تلك الفتاة ستكون غالبًا عينًا لرئيس مجلس الإدارة علينا وعلى أي سلبيات في العمل لدينا ، الشيء

الثاني والأهم .. لا أريد مشاكل من أي نوع معها ، والحذر الحذر من الحديث بقلب مفتوح أو تلقائية أمامها عن أي سلبيات أو مشاكل في العمل قديمة أو حديثة لدينا ، أنا أتعامل معكم جميعًا كأبنائي لكن وكما تعلمون جيدًا فالأبناء الجيدون لا يكونون أبدًا سببًا في أذيّة والدهم.. هل فهمتم؟

أشار المدير بيده قائلًا:

- انتهى الاجتماع.. يمكنكم العودة لغرفتكم.

تحرك الشباب عائدين لغرفتهم وهم يتحدثون عن ضرورة توخي الحذر في حواراتهم مع تلك الزميلة الجديدة التي سيتم دسها بينهم. أمّا (زياد) فكانت مصيبته أكبر بتلك النازلة التي هوت فوق رأسه إذ كيف سيمكنه النوم بعمق خلال أوقات العمل مع وجود تلك الفتاة الجاسوس بينهم.

* * * *

(٢)

دقَّات ساعة الجدار بدت عالية وسط صمتٍ وسكونٍ يملأ المكان و(ساجد) جالس على الأريكة يرمق الهاتف بانتظار أن يعلو رنينه بين لحظة وأخرى وهو لا يدري لماذا اختار الهاتف الأخرق الذي كان لا يكف عن الرنين طوال الوقت الصمت الآن؟! فتح النافذة وبدأ يرقب حركة الشارع بالأسفل لعلّه يجد في ذلك ما يمضي بالوقت أسرع، مرَّت الدقائق عليه بطيئة كسلحفاة عرجاء والهاتف باقٍ على صمته ولم يأتِ الرنين المنتظر ، اختار أن يترك رقم الهاتف الأرضي لا المحمول ليخرج نفسه من وساوس ضعف الشبكة بقريته ، قفزت لرأسه في تلك اللحظة فكرة كابوسية ، أتكون حرارة الهاتف اللعينة لم تجد لنفسها وقتًا أفضل من هذا للانقطاع؟! وثب للهاتف بسرعة ليرفع السماعة ، زفرة طويلة أطلقها وهو يتنهد بارتياح معيداً سماعة الهاتف لموضعها بعد أن تأكد أن الحرارة ما زالت موجودة ولم تفعلها وتنقطع الآن.

ابتسم متذكرًا مقالة طريفة قرأها بأحد الكتب بأن الهاتف غالبًا ما لا يجد وقتًا للرنين أفضل من وقت الاستحمام ، وأنك إن كنت بانتظار مكالمة هامة فإن أفضل ما عليك فعله هو المسارعة بالدخول للاستحمام وستأتيك المكالمة المنتظرة لتخرجك من تحت قطرات الماء ، ابتسم لغرابة الفكرة لكنه قرَّر بأنه لن يجد وقتًا أفضل من هذا للتجربة ، فتح خزانة ملابسه وتناول منشفة مضى بها نحو الحمَّام للاستحمام، ترك الباب مفتوحًا لسماع الرنين حال قدومه ، جيد أن لا أحد بالمنزل سواه الآن. أنعشته قطرات الماء الباردة المنسابة على

جسده وأزالت عنه العرق لكنها لم تزل التوتر والسؤال العالق برأسه : هل ستأتي المكالمة المنتظرة أم لا؟ مكالمة هامة للغاية ستنعطف بحياته كلها لمسار أفضل.

تعالى رنين الهاتف فجأة ، ركض بسرعة مغادرًا الحمّام دون أن يتناول المنشفة ويجفف جسده ، التقط الهاتف وعلى وجهه ابتسامة واسعة وقطرات الماء تتساقط من جسده على الأرض ، أجاب بلهفة لم تدم طويلًا بل انطفأت ورحلت مع الابتسامة التي كانت على وجهه وهو يزفر في ضيق مجيبًا الطرف الآخر للمكالمة بأن الرقم خاطئ فليس هذا هو بيت الششتاوي.

عاد للحمَّام من جديد، تناول المنشفة وجفف جسده ثم غادر الحمام ليبدأ في إخفاء معالم جريمته بتجفيف القطرات المتناثرة على الأرض هنا وهناك وإخفاء كل أثر لفعلته، أراح جسده بعدها مُتَّكِئًا على الأريكة يراقب عقارب ساعة الجدار في سيرها الوئيد، الساعة تخطت الثانية عشر والنصف وهو بانتظار هذه المكالمة منذ الثامنة، تعلّقه بهذا الحلم كان كبيرًا وخوفه من ضياعه صار عظيمًا، يخشى بأن يفرَّ منه هو الآخر مستقلًا قطار الأحلام الضائعة.

هزَّ رأسه وكأنه ينفض عنها التفكير هكذا .. "الأمر مجرد وقت وإن طال يا (ساجد) ، وسينطلق الرنين بعد قليل حاملًا البشرى بالقبول وموعد الحضور والأوراق المطلوبة.. ما أسخف الانتظار بما يحمله من توتر". هو أحد أوائل دفعته وقد اجتاز المقابلة الشخصية بالإجابات النموذجية لكل ما طُرِح عليه من أسئلة، لكنه لا يدري ماذا يفعل مع هذا الهاجس المخيف الذي يُلِّح عليه باستمرار بأن الأمور لا تسير دومًا كما ينبغي ، وأن هناك الأقارب والأصدقاء والتوصيات والمجاملات

والحيثيات والاستثناءات... وأشياء مماثلة كثيرة تأتي بها دومًا مكالمات اللحظات الأخيرة لتطرح نفسها بقوة ولتبدو معها أشياء مثل كونه أحد أوائل دفعته ليس بالأهمية الكافية.

رنَّ جرس الباب هذه المرَّة ، نهض ليفتح الباب فوجد أمامه (صميدة) أحد الكائنات التي تتنفس سماجة بدل الهواء وهو يناوله دلوًا فارغًا ويطلب منه أن يملأه له بالماء أو أن يسمح له بالدخول ليقوم هو بذلك ليُكمل مسح سلم البناية ، تناول منه الدلو في ضيق وأغلق الباب ومضى ليملأه له بالماء ، لكن رنين الهاتف الذي انطلق يشق الصمت لم يمهله الوقت الكافي لفعل ذلك، ألقى بالدلو الفارغ على الأرض وقفز للهاتف بسرعة ملتقطًا السماعة ومجيبًا:

- .....
- الله يبارك في سعادتك.. وألف شكر يا أفندم.
- .....
- سأحضر في الموعد ومعي كل الأوراق المطلوبة.

تهلل وجه (ساجد) وأضاء بابتسامةٍ نسى معها أمر (صميدة) الواقف بالباب، فَتحَ الباب مع تجدد الطرقات ليعانق (صميدة) الواقف على صمته فاغرًا فاهه في ذهول من لا يفهم شيئًا ، لم يحادثه بل أشار له بالدخول للمطبخ ليملأ الدلو الفارغ بنفسه ، تركه واتجه إلى ملابسه فدسَّ يده في جيب بنطاله وأخرج نقودًا ناولها لـ(صميدة) قبل أن يغلق الباب خلفه فآخر ما كان يخطر بباله أن يكون (صميدة) هو وجه الخير الذي يحمل قدومه تلك البشرى.

عادت أسرة (ساجد) فأخبرهم بالقصّة كاملة مجتمعين أثناء الغداء ، انتاب والده قلق فضل إخفاءه لعدم إفساد فرحة ابنه مع

السؤال الذي كان يدور بعقله ، هل سيستطيع (ساجد) الذي لم يبتعد عنهم يومًا واحدًا أن يبدأ حياة جديدة بمفرده في العاصمة؟

أنهت الأسرة الغداء ورفعت الأم الطعام وعادت بالشاي ليتابعوا حوارهم وسط رشفات شاي ما بعد الغداء، سأل الوالد:

- وهل تتضمن المنحة إقامة يا بُنيّ ... أم أين تنوي الإقامة؟

- سأقيم مع من سبقني من زملائي فقد استأجروا شقة يعيشون معاً فيها هناك.

أردفت الأم سائلة:

- أيستحق الأمر كل هذه المشقَّة والتعب يا (ساجد)؟

أجابها (ساجد) بابتسامة واثقة :

- بل يستحق أكثر من هذا يا أمي فسأتلقى بتلك المنحة تعليمًا وتدريبًا سيرفع من شأني كثيرًا ويجعلني مميزًا وسيمكنني بعدها بما سيصبح لدي من علم أن أضع ساقًا فوق الأخرى وأفاضل بين الوظائف المتاحة أمامي فأختار أفضلها وأعلاها أجرًا وستُفتح أمامي أبوابًا أوسع وفرصًا أفضل للسفر للخارج فلا تقلقي يا حبيبتي ، عليكِ فقط بالدعاء لي كلما ساورك القلق بشأني.

غمغم الأب في حماس قائلًا:

- سآخذ غدًا إجازة لأسافر معك، وسأخبر عمك (مرزوق) بأن يعدَّ سيارته لنسافر معك ونأخذ معنا كل ما ستحتاجه هناك...

قاطعه (ساجد) قائلًا:

- لا داعي لهذا يا أبي فسأذهب لزملائي الذين أعرف مكانهم جيدًا هذه المرَّة ومعي حقيبة صغيرة بها أوراقي وبعض الملابس القليلة، وسأحضر ما ينقصني في المرّات القادمة .

في موقف سيارات الأجرة استقل (ساجد) السيَّارة صاحبة الدور لتحمله للعاصمة، قضى الطريق بأكمله يفكر كيف سيدير ويدبر أموره المالية هناك ، المبلغ الذي أعطاه إياه والده لم يكن كبيرًا ويعلم جيدًا بأن البيت بأمس الحاجة لتلك النقود التي بجيبه الآن ، لم يسأل أصدقائه من قبل عن إيجار الشقة التي يسكنون بها ونصيب الفرد الواحد من هذا الإيجار، لكنه سيعرف كل تلك التفاصيل بعد قليل . بيَّت النية وعقد العزم على الاقتصاد في نفقاته قدر استطاعته، سيكون من الجيد لو استطاع أن يعيد لوالده أي جزء من المبلغ الذي أعطاه إياه، وبدءًا من الشهر القادم سيتقاضى الراتب المخصص للمنحة ليبدأ منه الإنفاق على نفسه دون حاجة لطلب نقود جديدة من والده.

لاحت العاصمة أمامه من نافذة السيارة بزحامها وضوضائها، غادر السيارة بحقيبته الصغيرة فوق ظهره، قفز داخل إحدى حافلات النقل العام لتحمله إلى سكن زملائه، لم يستغرق الكثير من الوقت ليجد نفسه بينهم أخيرًا وهم يتناولون إفطارهم قبل الذهاب، لم ترحه النظرات البادية في عيونهم لكنه تجاهلها ولم يتوقف أمامها أو يشغل نفسه بمحاولة تفسيرها، تناولوا إفطارهم وبدأوا يغادرون واحدًا تلو الآخر.

ناداه (مندور) ليقفا سويًا في الشُرفة وليخبره بهدوء قائلًا:

- معذرةً يا صديقي .. فالشقة كما ترى صغيرة علينا وضيقة للغاية ولن تستوعب أي وافد جديد ، لقد كلفوني قبل انصرافهم بأن أخبرك بأن تحاول أن تجد لنفسك مكانًا آخر قبل مساء اليوم حتى لا تضطر للعودة للقرية للمبيت هناك فلا مكان لك للمبيت هنا الليلة.

* * * *

(٣)

استأذنت المدير في ساعة من الزمن توجهت خلالها لمكتب البريد بعد أن أخبرني مندوب البريد صباحًا وسط زملائي في العمل بأن هناك طرد قادم لي من فرنسا وعليَّ استلامه من هناك ، سعادتي كانت بلا حدود وشعرت بأهمية بالغة وسط حسد وفضول الزملاء ، الفضول كاد يقتلني قبلهم لأعرف ما يحويه الطرد الفرنسي ، فتحت الطرد بمكتب البريد فعرفت أنه هدية من (ليندا) وكان يحوي قرصًا مدمجًا لمجموعة من أشهر الأغاني الفرنسية ، لن أخبر زملائي بالطبع بأن الطرد الفرنسي قد احتوى على مجرد قرص مدمج فقط، أحتاج لبعض الإثارة ، سأقول لهم بأني ذهبت بالطرد للبيت ولم أفتحه لوجود أبي بالبيت وسأفتحه حال عودتي بعد انتهاء العمل فهذا سيمنحني الوقت الكافي لأفكر من الآن وحتى لقائي بهم غدًا لأصل لفكرة مبهرة تثير غيرتهم وحسدهم حول محتوى رائع للطرد.

رنَّ هاتفي.. كان (علاء) يخبرني بأن الزميلة الجديدة التي انتظرنا وصولها طوال الأسبوع الماضي قد وصلت أخيرًا بعد تأخر دام أسبوعًا كاملًا، المكالمة مثلت مفاجأة سيئة لي فهذه الزميلة كانت السبب في حبس الوطواط الكامن داخلي عن التحليق بالشبكة العنكبوتية طوال الأسبوع الماضي بأكمله كي أكون يقظًا صباحًا ولا يفتضح أمري ويغلبني النعاس أمامها ، لقد ظلّ الأمل يراودني طيلة الأسبوع الماضي بعدم حضورها نهائيًا وأنها قد وجدت مكانًا آخر أفضل وسأطلق سراح الوطواط الحبيس قريبًا ليعود للتحليق من جديد ولن أظل هكذا كائن

نهاري من أولئك الذين يحبون النهار وضوء وحرارة الشمس وقطرات العرق المتساقطة بل سأعود إلى جمال الليل وسحره حيث السكون والصمت والنسمات المنعشة الباردة ، لكن ظهور تلك الفتاة اليوم جاء ليقتل أحلامي في المهد ويُظهر لي بأنها لم تكن سوى أوهام.

دخلت مقر الشركة أفكر في أمرين ، الأول هو كيف ستكون أيام عملي القادمة مع الفتاة الجاسوس، والثاني هو ما أكثر ما يمكنني أن أثير به ذهولهم عن محتوى الطرد ، طرد قادم من فرنسا فماذا يمكن أن يحوي؟! لا بد أن أحدثهم عن شيء لا يمكن أن أريهم إياه مستقبلًا...

اصطدمت نظراتي وأنا أخطو خطواتي الأولى داخل مكتبنا بذاك القوام الأنثوي الرشيق الواقف أمام (فادية) ، لم تشعر هي بي ولا بنظراتي المتفحصة لها ، أنثى طويلة ممشوقة القوام ترتدي بنطالًا قماشيًا عاجي اللون وفوقه قميص حريري أبيض ذو أكمام طويلة ، تأملها كان رائعًا حتى أني نسيت نفسي تمامًا وأنا أتأملها حتى التفتت هي لتنظر نحوي بغتة ، أصابتني التفاتتها المفاجأة بالجمود حين تلاقت أعيننا، خفق قلبي على الفور مع نظرتها لي، صمت تام فرض نفسه علينا، هي وقد انتابها خجل وارتباك من الغريب الذي يتفحصها بنظراته خلسة، وأنا بحرج سيطر عليّ بعد أن باغتتني بالتفاتتها المفاجئة.

وجهها ساحر الجمال وشعرها فاحم طويل ناعم يتموج على كتفيها باستثناء خصلة اختارت أن تنساب بمفردها على الجانب الأيسر من وجهها، أدركت بعد أن تقّدمت نحوها خطوات قليلة أن زجاج النافذة المغلقة أمامها هو من فضحني وعكس صورتي ونظراتي المتفحِّصة لها.

كسرت (فادية) الصمت بيننا وهي تشير نحوي قائلةً:

- هذا (زياد) زميلنا هنا بالإدارة.

ثم وجهت حديثها لي قائلة:

- وهذه (إنجي) زميلتنا الجديدة.

شعور غريب انتابني نحوها لم أعرفه من قبل ولم أدرِ له سببًا، شعرت وكأني أعرفها منذ سنوات طوال ، تبادلنا عبارات تعارف قصيرة دارت بيننا وانتهت بسرعة وكم وددت ألاّ ينتهي الحديث معها. جلست بمقعدي وبدأ الزملاء يمطرونني بالأسئلة حول الطرد الفرنسي الذي تسلمته ، غادرني الإرهاق والتعب لأجد نفسي يقظًا حاضر الذهن بشكل أدهشني وأنا أخبرهم بفخر بأن فتاتي الفرنسية (ليندا) كانت غاية في الرقة لترسل لي هديتها الساحرة ، وأني لم أفتحها بعد لكني سأفتحها حال عودتي للمنزل ، نهضت وسط همهمات الانبهار والإعجاب من زملائي حول الفتاة الفرنسية والطرد الأنيق ، أحضرت بعض الملفات وفتحتها أمامي مصطنعًا الانهماك في العمل وأنا أوزع نظراتي بين الأوراق وأحاول استخدام القلم لكتابة بعض الملاحظات الوهمية ، ثم أنهض من جديد لأعيد ملفًا لموضعه وأحضر آخر وأنا أختلس النظرات لها من آن لآخر إلى أن فضحتني إحدى نظراتي حين التقت عيناي بعينيها فجأة ، فابتسمت هي في خجل ثم نهضت لتغير من موضع جلوسها قاطعة عليَّ بذلك أي فرصة أخرى لالتقاء نظراتنا من جديد.

مرَّ اليوم وانتهى بسرعة كأحد أسرع وأجمل أيام العمل في حياتي ، أفقت على صوت (فادية) وهي تُلَوِح لي بيدها قائلة:

- أراك غدًا (زياد)

عدت للبيت وعلى مائدة الغداء انطلق والدي يروي لأمي كعادته أثناء الغداء فصلًا من فصول نضاله واعتزازه بنفسه الذي لا ينتهي وأمي تصغي إليه بفخر وإنصات شديد كأحد الغزاة الفاتحين العائدين لِتوِهم من الجبهة ، روي لها بفخرٍ وحماسٍ تفاصيل ومقاطع من الحوار ولقائه بأحد أولياء الأمور في المدرسة الابتدائية التي يعمل بها وكيف لقّن الرجل درسًا في قواعد وأصول التربية الصحيحة ، قاطعته بسؤال قفز لذهني كلغم انفجر على حين غرة دون سابق إنذار محدثًا دويًّا هائلًا:

- أبي.. متى سأتزوج؟

توقف أبي عن المضغ وابتلاع الطعام وتبادل النظرات مع أمي في صمت وكأنه يتيقن منها بأن ما سمعه كان صحيحًا ، ثم قهقه وهو يلتفت إلى أمي قائلًا:

- "ابنك عايز يتجوز!!".

لم أدرِ سببًا لتلك الضحكة الساخرة ولا لنبرة الاستهجان والسخرية التي حملها صوته ، لكنني أردفت قائلًا:

- أنهيت تعليمي وتخرجت من الجامعة منذ سنوات وأنا الآن موظف أتقاضى راتبًا يمكنني أن أنفق منه فماذا ينقصني لأخطو هذه الخطوة وأتزوج ؟! وما هي خططك في هذا الشأن تجاهي؟

الصمت ولا شيء غيره كان الإجابة التي تلقيتها ، لم ينظر إليَّ أو يعقِّب على كلامي ، بل أكمل طعامه في صمت ودون تعليق ، فهمت إجابته بدقة فقد كانت حقًا إجابة وافية. ربتّت أمي على كتفي وهي ترفع الطعام عن المائدة ، في حين قمت أنا الآخر لأبدأ بإعداد الشاي وأنا ألوم نفسي فما الذي دفعني لطرح هذا السؤال الآن؟!

نوم ما بعد الغداء هو أحد أمتع فقرات يومي، لكنني لم أستطع النوم اليوم ، حاولت تشغيل الموسيقى الفرنسية الواردة بالقرص المدمج والاستماع إليها لكنها بدت مزعجة ولم تعجبني فأغلقتها وأعدت للقرص المدمج تغليفه اللائق فالقرص أصلي يمكن بيعه لاحقًا بسعر جيد ، استلقيت على الفراش أفكر في زميلتنا الجديدة ، أمسكت بالهاتف واتصلت بصديقي العزيز (هاني) ، أشعر بالطمأنينة والسلام النفسي حين يتواجد (هاني) معي وأنسى معه نفسي والوقت حين يجمعنا اللقاء ، وجود أشخاص كهؤلاء في الحياة أحد أهم النعم التي قد تجود بها الأقدار عليك ، هاتفته واتفقنا على موعد للقاء.

نسمات الليل الباردة كانت رفيق لقائنا ، بدأت أروي له عن تلك الوافدة الجديدة التي أطلت على نافذة حياتي اليوم ، والأحاسيس والمشاعر الغريبة التي تملكتني والتي لم أستطع تقديم وصف دقيق لها مع راحة غريبة لوجودها وكأني أعرفها منذ سنوات طوال وليس لحظات وكيف زال كل سخطي عليها بمجرد أن رأيتها لأنها كانت السبب في حبس الوطواط الكامن داخلي طوال الفترة الماضية ، أشعر أني معجب بها يا (هاني)! أيمكن أن تكون هذه هي بدايات للحب؟ وهل هناك حقًا وجود لحب النظرةِ الأولى؟ وبماذا تنصحني يا وزير؟

جاءت الإجابة من صديقي بأن قطَّب حاجبيه ناظرًا لأعلى كمن يفكر بعمق، ثم أجابني بعد قليل من الصمت في كياسة قائلًا:

- "اتغطى كويس يا (زياد)، ومتكلش سمك ولا بيض!".

انهالت قبضاتي عليه لاعنًا تلك السماجة في غير موعدها، فانفجر هو ضاحكًا ليخبرني بأن الأيام القادمة هي من ستجيب أسئلتي وليس هو وستوضِّح لي كذلك خطواتي القادمة ولأعرف أهو إنبهار لحظي

زائل كالانبهار بنجمات السينما ، أم مشاعر حقيقية ستنمو وتتطور يومًا بعد يوم لتلقي بظلالها على أيامي القادمة وحياتي بأسرها؟

انفجرت ضحكاتنا معًا ونحن نتذكر صديقًا لنا كان يهيم عشقًا بإحدى نجمات السينما ويُعدّ الأيام ويحسب الساعات عن قناعة تامة بأنها تنتظره حتى يُنهي تجنيده ليتقدم إليها. ودعت (هاني) وشكرته على تلك السهرة الرائعة ، وملت في طريق عودتي على أحد محال الملابس بعد أن تأكدت أن معي النقود الكافية فاشتريت قميصًا وبنطالًا جديدًا قبل العودة للبيت.

عدّت للمنزل متأخرًا مُنهكًا تمامًا بعد انتهاء سهرتنا الطويلة الجميلة ، وجدت العشاء في غرفتي ، تناولت منه لقيمات قليلة بغير شهية قبل أن أجلس إلى الحاسب وأنا أفكر في ما سأفعله مع الوطواط الحبيس الكامن داخلي بعد أن حبسته الأسبوع الماضي بأكمله ومنعته عن التحليق داخل الشبكة فماذا عن قادم الأيام؟ لن يمكنني أن أحبسه أكثر من ذلك!

حرصت دومًا أن يظل البريد الإلكتروني والتواصل بالكتابة هما وسيلة تواصلي مع الفتيات متجاهلًا تمامًا وسائل الاتصال المرئية والهاتف المحمول بكل ما به من برامج للتواصل ، فأخبرتهم بأن الهاتف الأرضي هو آخر ما وصلت إليه تكنولوجيا الاتصالات من تقدم في منزلنا ، وألصقت التهمة بأبي لخشيته علينا من ضرر الإشعاع والموجات الضَّارة المنبعثة من أجهزة الهاتف المحمول لذا لم يسمح لنفسه أو أي منا باقتنائه أبدًا ، الرواية فجرت موجات من التعاطف معي والسخط على ذلك الأب الرجعي المتعسف.

فتحت الحاسب وأنا أقضم شطيرة من العشاء أمامي ، لن أترك الوطواط حبيسًا أكثر من ذلك، لابأس بقليل من الإبحار.. تفقدت بريدي في تكاسل فوجدت غالبية الرسائل تتحدث عن ذات الموضوع ونفس السؤال بأفضل هدية للعام الجديد، أجبت بعض الرسائل ولم أقو على المتابعة بعد أن نال الإرهاق والتعب مني فتكاسلت تمامًا عن إكمال الرد على باقي الرسائل وأغلقت الحاسب والضوء واستسلمت للنوم.

رحت في سبات عميق كما لم أفعل منذ سنوات، أيقظني أبي لصلاة الفجر وهو يلعن ساخطًا لامبالاتي وإهمالي وتقصيري والكثير من الأشياء التي قالها عن نومي حتى الآن بعد سهرة الأمس كان معتادًا أن يستيقظ ليجدني أتوضأ وأستعد لننزل سويًا لصلاة الفجر دون أن يعلم بالطبع بأني قضيت الليل بأكمله ساهرًا أمام الحاسب بلا نوم كأي وطواط يحترم ذاته ، وأني ما أن أسمع تواشيح الفجر في المساجد القريبة حتى أقوم للوضوء والنزول معه فيكون هو في غمرة السعادة بذلك الابن الصالح الذي يؤدي صلاة الفجر بالمسجد.

أنهيت الصلاة معه وعدنا للمنزل ، بدلت ثياب الصلاة بثياب التدريب ونزلت لأبدأ في الركض حول المنزل مع نسمات الصباح الرائعة لم أركض كثيرًا اليوم خشية تعب البدايات وعزمي على الذهاب للعمل ، لكني عقدت النية على تكرارها في الأيام القادمة ، صعدت المنزل فاغتسلت وبدأت أتأهب لارتداء ملابسي والذهاب للعمل ، كان والدي بالمطبخ يعد لنا الإفطار ولم يشأ كعادته أن يوقظ والدتي مفضلًا أن يتركها ترتاح وألاَّ يوقظها.

تحسست ذقني قبل أن أبدأ في ارتداء ملابسي فوجدتها خشنة ، نظرت لساعتي.. ما زال أمامي بعض الوقت ، عدت للحمام وبدأت في حلاقة ذقني لتتناسق مع مظهري والثياب الجديدة التي اشتريتها بالأمس .. أريد أن أبدو أنيقًا اليوم. رنّ جرس الباب ، تعالى صوت أبي بالنداء عليّ ، لا بد أنه العم (هلال) بائع اللبن.. لماذا لم يفتح هو الباب؟! يناديني أنا من آخر البيت لأقطع حلاقة ذقني وأفتح الباب ولايريد أن يفتح وهو من يقف على بعد ثلاث خطوات من الباب!! نضحت وجهي بالماء بسرعة وتناولت منشفة مسحت بها ذقني وذهبت لأفتح الباب ، لكنني ما أن اقتربت من الباب حتى وجدت أمامي مشهدًا لم يكن ليراود أسوأ كوابيسي.

كان أبي يقف بمنامته حاملًا إبريق اللبن الفارغ أمام باب المنزل المفتوح وعلى وجهه علامات الذهول والدهشة ، اقتربت أكثر بالمنشفة التي نسيتها حول عنقي لأجد أن من بالطرف الآخر للباب ليس العم (هلال) بائع اللبن ، بل (دانييلا) السيدة البرازيلية التي أخبرتها منذ أيام بأن حضورها لمصر وزيارتها لي ستكون أجمل هدية لهذا العام! توقف عقلي عن التفكير في ذهول وهي تلوح بيدها لي قائلة بابتسامة واسعة:

- جود مورننج (زياد).

وأبي يبادل النظر بينها وبيني قائلًا:

- من هذه؟

انعقد لساني ذاهلًا لا أدري ماذا أفعل؟ وبماذا أجيبه؟

* * * *

(٤)

كلمات (مندور) هوت كصفعة لم تكن بالحسبان على وجهي ، كتمت ضيقي وهو يخبرني بلطف بأن لا مكان لي بينهم وحاولت السيطرة على أعصابي لأبتعد عن الانفعال والغضب وإطلاق كلمات جوفاء خرقاء لن تقدم أو تؤخر. أعطاني (مندور) رقم (عنتر) السمسار الذي أحضر لهم هذه الشقة فسجلته على هاتفي وغادرت والغضب يغلي داخلي.

اتصلت بـ(عنتر) السمسار هذا مرّات ومرّات دون ردّ ، أقنعت نفسي بأن الوقت ما زال مبكرًا فقد سافرت بعد الفجر مباشرةً ووصلت باكرًا ولا أظن (عنتر) هذا يبدأ عمله قبل صلاة الظهر . بدأت أجوب البنايات في المنطقة بحثًا عن غرفة فارغة بأحد الأسطح أو شقة صغيرة إيجارها قليل ، تَعِبتُ من كثرة التجوال والسؤال بلا فائدة دون أن أصل لشيء. شعرت بالجوع فابتعت بعض الطعام ودخلت أول مقهى وجدته أمامي لأشرب كوبًا من الشاي مع الطعام.

انطلق رنين هاتفي فأخرجته بلهفةٍ وأنا أظنه (عنتر) السمسار لكنها كانت والدتي فبدأت معها أولى حلقات مسلسل الكذب ، أخبرتها بأن كل شيء على ما يرام وأنني بصحة جيدة وأفطرت من الطعام الشهي الذي أحضرته والدة أحد زملائي وأن كل شيء على ما يرام وينقصني فقط دعاؤها ، أغلقت معها المكالمة وأنا حزين لكذبي عليها ، لكنني التمست لنفسي العذر فإخبارها بالحقيقة وأني في الشارع بلا مأوى منذ الصباح لن يقدم أو يؤخر، بل سيزيد الطين بلة وستخبر أبي

حتمًا ليصطحب عمي (مرزوق) بالسيارة التي يعمل عليها ومزيد من التكاليف ليكونا عندي هنا ربما ليعودا بي فقط ، لا.. لقد فعلت الصواب وسأخبرهم بالحقيقة لاحقًا بعد الانتهاء من حل المشكلة. ناديت فتى المقهى وسألته إن كان يعرف غرفة صغيرة قريبة للسكن أو يعرف من يستطيع أن يعاونني في إيجادها، ابتسم الفتى بثقة وهو ينادي أحد الصبية الصغار قائلًا : "طلبك عندي يا هندسة"، ثم التفت بعدها ليخبر الصبي بأن يذهب حالًا لإحضار (حمدون).

عاد الصبي بعد قليل وإلى جواره رجل قصير خمسيني العمر لا بد أنه (حمدون) ، رمقني الرجل بنظراته المتفحصة وهو يجلس قبالتي، بدأ تعارفنا فتوهجت عيناه ببريق لم أعرف أهو الاحترام أم الطمع وأنا أخبره بأنني مهندس؟ سألني عن طلبي فأخبرته بأني ما زلت أكمل دراستي بعد التخرج، وأن ظروف الدراسة اقتضت تواجدي هنا وأني بحاجة لغرفة أو شقة صغيرة زهيدة السعر ، أخرج من جيبه مفكرة صغيرة بدأ يقلب صفحاتها، يقرأ ويعرض عليّ صفحات منها.

جهلي بجغرافية العاصمة سواء أسماء الأحياء أو طرق الانتقال والمسافات والمواصلات بينها ومدى قربها أو بعدها عن المعهد الذي سأتلقى فيه المنحة كان كفيلًا بجعل أغلب ما يقوله غير ذي قيمة لي، المعلومة الوحيدة المفيدة فيما يقول كانت السعر، أخبرته بحاجتي لمعاينة هذه الأماكن قبل أن أقرر أيها سأختار، بسط كفيه قائلًا لا مشكلة، لكن هناك ما يسمى برسم المعاينة ينبغي دفعه له قبل التحرك لأيٍّ من هذه الأماكن، أعادتني كلمته لصوابي وأنا أفكر في المبلغ الذي معي وكم سيضيع منه في لا شيء سوى المعاينة، لكن ماذا أفعل فما باليد حيلة.

انطلقت برفقة (حمدون) لنبدأ رحلتنا وأتعرف معه على المصيبة الأخرى التي لم يوضحها لي باعتبارها من المسلمات أو البديهيات التي لا بد أنني أعرفها، وهي أنني من سيدفع مصاريف الانتقال. تنقلنا بين ثلاث شقق وغرفة، شكرت (حمدون) بعدها مخبرًا إياه بأنني سأفكر وأستخير الله وإن استقر رأيي على أي منها فسأتصل به.

بدأت من جديد بعد انصراف (حمدون) معاودة السير بين البنايات والسؤال عن الغرف والشقق الصغيرة الفارغة، ذابت قدماي من التعب ولم أصل لشيء مواصلًا الكذب في الرد على المكالمات التي لم تنقطع من أسرتي. حاولت الاتصال بالسمسار الآخر (عنتر) لكنه ما زال لا يجيب. أرخى الليل أستاره ليهبط ليل العاصمة المختلف عن ليل قريتنا تمامًا، ألقيت بنفسي على مقعد في أول مقهى وجدته أمامي، تناولت الشاي وأنا أفكر أين سأبيت ليلتي الأولى بالعاصمة.

سألت بعض الجالسين حولي وأنا أرشف الشاي عن فندق أو بنسيون مجاور زهيد السعر ، انطلق المحيطون بي يقدمون لي نصائحهم ، أخرجت ورقة وقلمًا وبدأت أدون ما قالوه ، أنهيت الرشفات الباقية من الشاي وتحركت ، ارتفع صوت أذان العشاء فدخلت أحد المساجد فتوضأت وصليت وأرحت ظهري على أحد أعمدة المسجد فغفوت دون أن أشعر ، فتحت عيني على يد عامل المسجد يهزني برفق ليخبرني برغبته في إغلاق المسجد بعد أن انصرف المصلون ، نظرت فوجدت المسجد قد صار خاويًا إلاَّ مني ، كم وددت سؤاله أن يسمح لي بالمبيت في المسجد لكن الحياء منعني فحملت حقيبتي وغادرت.

لم أصدق نفسي وأنا أرخي جسدي على الفراش أخيرًا بعد أن استقر الحال بي في غرفة مشتركة برفقة ثلاثة آخرين في أحد الفنادق الوضيعة رخيصة السعر بعد أن استعنت بورقة الأماكن التي ذكرها لي رواد المقهى. الحمّام كان بشعًا لدرجة لم تخطر لي ببال اختزلت معها كل احتياجاتي من هذا الفندق في النوم لفترة سواد الليل فقط حتى يحين الصباح ، وجوه المرافقين لي في الغرفة لم تبعث على الراحة إطلاقًا خاصةً بعد أن بدأت وصلات الدعابات والسباب البذيء المتبادل بينهم ، تأكدت من إخفاء هاتفي والنقود التي معي جيدًا حتى لا تزداد مصائبي بسرقتهم ولأجد نفسي صباحًا أفترش أحد الأرصفة أو أجوب شوارع العاصمة أتسول أجرة عودتي للقرية.

حواراتهم التي اقتحمت أذني رغمًا عني جعلتني أكتشف أن هناك أنواع أخرى غريبة من البشر حجبت عني سنوات عمري التي قضيتها بالقرية الالتقاء بمثلهم ، قررت أن أعزل نفسي عما يدور بينهم تمامًا، لم أبدل ملابسي ، ألقيت بنفسي على الفراش بكامل ثيابي بعد أن خلعت فقط حذائي وضغطت أركان حقيبتي بعد أن أخرجت منها بعض الثياب ووضعتها خلف رأسي كوسادة ، أخرجت قميصًا خفيفًا وضعته فوق وجهي كعازل لضوء الغرفة ولإخفاء وجهي عنهم فلا أدري كيف ستُفهم أي ملامح قد تظهر على وجهي مع بذائة حواراتهم ، جلست أعيد التفكير في الأماكن التي زرتها اليوم فأرخصها سعرًا ما زال باهظًا بالنسبة لي ، الأمر كان سيبدو مقبولًا لو تمَّ تقسيم السعر على عدد من الأفراد أنا أحدهم ، أمَّا وأنا من سيدفع كامل المبلغ فالأمر أثقل من أن تحتمله ميزانيتي المحدودة ، تذكرت بيتنا وسريري الذي أشعر لأول مرة في حياتي بالشوق إليه بعد أن نمت عليه لسنوات دون أن أشعر

يومًا بنعمة النوم الآمن عليه بلا خوف أو قلق من أن تفتح عينيك في أي وقت لتجد مصيبة بانتظارك بالنوم وسط أشخاص كهؤلاء ، بدأ صوت الدعابات الفاحشة يعلو أكثر فأكثر ، لن أستطيع بالطبع أن أقف لأطلب منهم خفض الصوت لرغبتي في النوم ، أحدهم يحمل وجه مجرم عتيد الإجرام والآخر يحمل تلك العلامة التي تبدو كأثر جُرح غائر قديم ولا يخلو يوم في حياتنا من قتلى المشاجرات وحتى لو لم تسُوء الأمور لتصل للقتل فقد تصل لإصابة بالغة أو عاهة أعاني أثرها ما تبقى لي من عمر أو علامة كتلك التي يحملها وجهه ، أغمضت عيوني أسفل القميص الذي يغطي وجهي وكأني رحت في النوم وبدأت أفكر هل أكمل غدًا المعاينات مع (حمدون) من جديد بدلًا من الساعات التي قضيتها في التجوال على قدمي بلا طائل، أم أحاول الاتصال بالسمسار الآخر (عنتر) حتى لو اقتضى الأمر معرفة عنوانه وزيارته بدلًا من الاتصال به ، أم أجرب زيارة زملائي لعلهم يتراجعون عن قرارهم ويسمحوا لي بمشاركتهم.

شعرت بالضيق لتلك البداية المتعثرة التي لا تتفق مع طموحاتي وأحلامي لتغيير واقعي وأنا من ظننت ذهابي للعاصمة هو قفزة الانطلاق لبدء تحقيق الأحلام فإذا بتلك البداية المحبطة بانتظاري ، كيف سأحقق قائمتي الطويلة من الطموحات والأحلام والتي أريدها لوالديَّ وأسرتي قبل أن تكون لنفسي. قفزت لرأسي فكرة قد تكون هي الحل وتعجبت كيف لم تخطر ببالي مسبقًا ، ماذا لو لم أسكن بالقرب من المعهد وسكنت بأحد الأحياء الشعبية أو العشوائيات ، سأجد الأسعار هناك مقبولة لتتغير المشكلة من غلاء الإيجار وعدم تناسبه مع أوضاعي المالية إلى مشقة وطول المشوار وإهدار الوقت في المواصلات

وهي مشاكل قد أجد الحلول لها مع الوقت بيقظتي المبكرة لصلاة الفجر كل يوم مما سيكفل وصولي للمعهد مبكرًا بلا تأخير ، والسهر وتأخير النوم بما سيمكنني من تعويض الساعات الضائعة في المواصلات ولأجعل من فترات عودتي للقرية كل أسبوعين بمثابة معسكر مغلق لتعويض النقص في الطعام والنوم والمذاكرة ، ومن يدري فقد يأتي الحل قريبًا بعد بدء الدراسة بالتعرف على زملاء أغراب أتشارك معهم الإقامة في شقة قريبة من المعهد لتنتهي المشكلة تمامًا.

رفعت القميص عن وجهي فرحاً بالتوصل لهذا الحل وجلست علي الفراش وقد ارتسمت ابتسامة سعادة على وجهي لأجدهم يتبادلون النظرات بينهم وهم يرمقونني في دهشة !

* * * *

(٥)

لا أظنني سأروي ما حدث معي بهذا اليوم لأحفادي إن مضى بي العمر وتزوجت وصار لي أحفاد وغالب ظني مع أب كأبي بأني لن أتزوج ، سبع سنوات كاملة مرَّت من عمري منذ تخرُّجي وأبي على صمته لم يحرك ساكنًا ولم يخطر بباله يومًا أن يفتح معي الحديث حول الزواج لمرَّة واحدة ولو على سبيل الدعابة! وحتى المرات القليلة التي واتتني الشجاعة وامتلكت الجرأة لأفتح أنا الموضوع كنت أجد نفسي أمام إمَّا تجاهل وصمت كمن لم يسمعني ، أو عبارات محرجة وأسئلة بنكهة ساخرة ، والتي حين تأتي في مثل هذا الموضوع فإنها تكون لاذعة للغاية.

انقلبت الدنيا رأسًا على عقب في دقائق ، عقلي كان يفكر بأقصى سرعة محاولًا أن يجد حلًا يخرجني من هذا الموقف ، ارتفع زئير أبي سائلًا:

- من هذه؟

أجبته بصوتٍ مرتبك متقطّع:

- إنها (دانييلا).

فأردف مضيفًا:

- "وتِطلع مين (دانييلا) دي يا حيوان؟".

تجمدت الكلمات بحلقي فلم أنطق ولم يسعفني عقلي بأي رد سوى الصمت.

- "انطق بسرعة.. مين الست اللي واقفة على الباب دي؟".

صفق أبي الباب في وجهها بعنف ، تحركت بسرعة لأفتح الباب مناديًا عليها فإذا بصفعة ثقيلة ذات دويّ تهوى على وجهي أمامها ، ثم بوالدي يسحبني للداخل بيده بقوة وهو يعيد صفق الباب باليد الأخرى في وجهها من جديد.

مزيـج من مشاعر السخط والقهر والإهانة سيطرت عليَّ بعد أن تبعثرت كرامتي تمامًا أمام (دانييلا) ، هرعت إلينا والدتي وإخوتي بعد يقظتهم على زئير أبي ليبدأ في رواية ما حدث لهم بصوت جهوري مرتفع وكأنه يروي للجيران وليس لمن يقفون أمامه:

- هل رأيتِ إلى أي مدى وصل انحدار أخلاق ابنك؟!

دلفت غرفتي مغلقاً الباب خلفي قبل أن أسمع رد أمي فأنا أعرف أن القضية مع أمي خاسرة تمامًا فما يرويه لها أبي هو الباب الوحيد الذي تدخل منه الأمور لعقلها ، وما يراه هو النافذة الوحيدة التي ترى العالم منها. شعرت بالخدر في وجهي موضع الصفعة فوقفت أمام المرآة لأجد أصابع أبي قد رسمت علامات للذكرى على وجهي وسأمكث غالبًا في البيت ليومين أو ثلاثة حتى تختفي تلك العلامات التي نقشتها أصابع أبي، ألقيت نظرة حسرة على الثياب الجديدة المعلقة على المشجب والتي كنت أتأهب لارتدائها والذهاب بها للعمل اليوم، لم أجد أمامي سوى أن ألقي بجسدي على الفراش في حسرة والقهر يعتصرني.

انتصف اليوم وأنا على ذات رقدتي بالفراش لم أنهض وشارفت الساعة الثانية ظهرًا ، أمسكت بالهاتف لأحادث أحدهم ليقوم بعمل يومين أو ثلاثة إجازة لي، إخترت (فادية) بإعتبارها فتاة والفتيات لا يتركن الهاتف من أيديهن غالبًا ، سألتني عن سبب غيابي فلم أجبها بل

سألتها عن أخبار العمل والزملاء وأنا أصغي لها بلا تركيز لرغبتي فقط في كسر الملل الذي أحدثته رقدتي في الفراش منذ الصباح ، أجابتني الإجابات المعتادة المتوقع سماعها ، طلبت منها عمل إجازة لي وتركت لها اختيار النوع المناسب طبقًا لظروف العمل ولرصيد إجازاتي - (فادية) بارعة في إنهاء مثل تلك الأمور - وتابعت هي حديثها بأن الجميع بخير وقد سألوا عني ، ثم أضافت : "ده حتى (إنجي) سألت عليك".

الثرثرة والحديث بلا طائل والكلام عديم الفائدة هي أشياء كثيرًا ما تصادفني وتملأ مساحات كبيرة من ساعات يومي ، أمّا تلك الكلمات التي تنساب من الأذن إلى القلب مباشرةً فإن لها نكهة ومذاق لا يُنسى وليس أدل على ذلك من أنها حين تحضر من الذاكرة فإنها تأتي ومعها سعادة وابتسامة لتذكرها ، أظن جملة (فادية) الأخيرة كانت واحدة من هذا النوع مع ما شعرت به من نشوة ملأتني وانعكست على حواسي وتسارعت لها دقّات قلبي. نهضت لأقف أمام المرآة لأتحسس وجهي وأعاين موضع الصفعة محاولًا تخمين متى سيزول أثرها لأتمكن من العودة للعمل ثانيةً.

نكشت أدراج غرفتي حتى عثرت على لاصقة طبية ملائمة يمكن وضعها على وجهي لإخفاء موضع الصفعة ، ثم ارتديت ملابسي وغادرت ، سرت في الشوارع على غير هدى وبلا هدف ، حملتني قدماي لبيت صديقي (هاني) فاتصلت به طالبًا منه النزول لأنني أسفل منزله ، دعاني هو للصعود فاعتذرت فلم يكن بإمكاني الصعود إليه لتشهق والدته عند رؤيتي هكذا وتمطرني بالأسئلة عمَّا حدث لي؟ ومن الذي فعل بي هذا؟

رويت لـ(هاني) ما حدث معي ونحن نسير فقهقه قائلًا:

- " يعني أبوك بوَّظ لنا السياحة ، وضيع سمعة شباب مصر".

ثم أردف مكملًا:

- كم قلت لك يا صديقي بأن الحياة لدى الأجانب ليست بذات تعقيد حياتنا ، وأن الأمور لديهم تخلو من المبالغات والتعقيدات التي لدينا ، حين قالت لك بأنها ستزورك كان ينبغي عليك على الفور أخد الأمر على محمل الجد والتعامل وكأنها أمامك ، لكنّك سخرت مني ولم تأبه بنصحي قائلًا بأنه من رابع المستحيلات أن تأتي من البرازيل في النصف الآخر من العالم إلى هنا لزيارتك .. وها قد حدث ما ظننته مستحيلًا يا صديقي.

أخبرته بأن الأمور ليست كما يظن، وأن السبب الحقيقي وراء ما حدث هو حبس الوطواط وعدم دخولي على الشبكة العنكبوتية أو اطِّلاعي على بريدي طوال الأسبوع الماضي، وأنني لو قرأت رسائلها الواردة خلال هذا الأسبوع والتي قرأتها وأنا أرتدي ملابسي قبل النزول إليه لعرفت الأمر في الوقت المناسب ولأمكنني تجنب ما حدث ، والخطأ أنني طالعت رسائلها بعد فوات الأوان لأجد أنَّها قد أخبرتني بكل شيء تقريبًا حتى رقم الرحلة وموعد وصول الطائرة ، لكن ماذا تفعل لمن هو تَعِسٌ قليل الحظ مثلي!

هبط علينا الليل ونحن نتبادل الحديث ، وقفنا أمام أحد مطاعم الوجبات السريعة لتناول وجبة خفيفة ، سألني (هاني) عن الوافدة الجديدة فأجبته أني بموضع يده كما تركني بالأمس بإستثناء النقوش التي خطها والدي على وجهي بالطبع. ودَعت (هاني) وعدت للمنزل ، فتحت الباب ودخلت مباشرةً لغرفتي وقبل أن أبدل ثيابي وجدت بعض

قطع الأثاث قد تغيَّر مكانها ، دقيقة واحدة كانت كافية لأكتشف اختفاء جهاز الحاسب من الغرفة ، خرجت مندفعًا للمطبخ لأسأل والدتي عن السبب فأجابتني ببساطة بأن والدي قد أخذ الحاسب لغرفته وأن استخدام الحاسب لأي منا أنا أو إخوتي من الآن فصاعدًا سيكون في وجوده وتحت رقابته ، حاولت إقناعها بأني لم أعد صغيرًا أو مراهقًا ليتم التعامل معي هكذا ، وأن بعض زملائي الآن لديهم أبناء ، وأن والدي نفسه حين كان بنفس عمري الآن كان رب أسرة ولديه أبناء، أجابتني وهي تشير نحو غرفة والدي قائلة:

- يمكنك الحديث مع أباك وإقناعه إن استطعت.

لست أدري أهي شجاعة زائفة؟ أم اندفاع؟ أم حماقة؟ تلك التي دفعتني لأخطو تلك الخطوات لأكون أمام أبي ، كان جالسًا كعادته يكمل مطالعة الجريدة الصباحية التي يظل يقرأ فيها طوال اليوم منذ شرائها في الصباح وحتى موعد النوم ، اقتربت منه قائلًا:

- أبي .. من فضلك ... أتسمح لي بالحديث معك قليلًا؟

أزاح الجريدة لثانية نظر فيها إليّ ثم أعادها أمام عينيه وكأني غير موجود ، فأردفت قائلًا:

- أنا لم أعد صغيرًا ! ... فلماذا تصر دومًا على التعامل معي وكأني ذلك المراهق الطائش؟!

ألقى والدي بالجريدة على المنضدة أمامه صائحًا:

- اذهب لغرفتك ... فلا أريد رؤيتك أو سماع صوتك.

- وماذا فعلت حتى لا تريد رؤيتي أو سماع صوتي؟!

نهض والدي من مقعده ليُنهي الحوار بطريقته المعتادة بالدخول لغرفة نومه صائحًا:

- لا تدري ماذا فعلت وتسألني!! .. ألا تكفيك الفضيحة التي صنعتها لنا صباحًا.

تحركت لأقف أمامه حتى لا يُنهي الحوار بالذهاب لغرفته قائلًا:

- أنت من صنع الفضيحة يا أبي بصياحك ليسمعنا نصف سكان البناية وصفقك الباب في وجهها وصفعك لي أمامها ، كان من الممكن أن تمضي الأمور بهدوء لو...

دفعني أبي بقوة فاختل توازني وسقطت، لكنني نهضت بسرعة مردفًا:

- لو لم تصفق الباب بوجهها وقلت لها تفضلي بدلًا من صفعي ودعوتها كأي ضيف أو زائر لكوب من الشاي فقط لتغيرت صورتنا تمامًا أمامها وأمام الجيران ولما حدث ما تسميه أنت فضيحة!

- دعوتها كأي زائر .. أمجنون أنت؟! أي زيارة تلك في السابعة والنصف صباحًا وأنا أقف أمام الباب بمنامتي ممسكًا بقدر اللبن!

- ترى العيب أن تراك بالمنامة ممسكًا بقدر اللبن ، لكن لا عيب في أن تصفعني أمامها وأمام كل من شاهد الموقف من الجيران ، وكالعادة نحن دائمًا المخطئون وأنت من لا تخطئ!!

أدركت فداحة ما فعلت وقلت حين رأيت شرر الغضب يتطاير من عينيه والألم الشديد بعيني اليسرى بعد تلك اللكمة القوية ، سقطت على الأرض أصرخ في ألمٍ شديد ، تركني ومضى لغرفته ، هرعت إليَّ والدتي مطلقة صرخاتها في جزع وهي تنحني لتتفحص وجهي وعيني التي أصابتها اللكمة ، تركتها ونهضت لأقف أمام المرآة في قهر لأعرف ما حدث لعيني اليسرى مع هذا الألم الذي أشعر به ، هالني منظرها وقد بدأت تتورَّم ، نظرت إليهم جميعًا وأنا أفتح باب البيت ، تشبثت والدتي

بذراعي محاولة إيقافي فانتزعت ذراعي منها وغادرت البيت دون كلمة مع أحد.

* * * *

(٦)

فتحت عينيّ لأجد ضوء النهار قد ملأ الغرفة ، نصف دقيقة كانت كافية لأستوعب أين أنا وأستعيد ذاكرة اليوم السابق مع نظرتي للأشياء من حولي، نهضت مغتبطًا لغياب رفقاء الغرفة ، تفقدّت هاتفي ونقودي في لهفة فوجدتهم ما زالا بحوزتي ولم يسرقا ، يبدو أن إجهاد الأمس قد أصاب ساعتي البيولوجية بالعطب فلم أستيقظ لصلاة الفجر مع الأذان كما هي عادتي كل يوم ، جمعت أشيائي التي بعثرتها على الفراش قبل النوم وأعدتها لحقيبتي ثم ارتديت حذائي وغادرت.

تناولت إفطاري وشربت الشاي بأحد المقاهي بعد أن اتصلت بـ(حمدون) وأخبرته بما طرأ من تغيير على خطتي وأننا سنغض الطرف عن القرب من المعهد وسيكون بحثنا عن الأقل سعرًا هو الأهم ، وافقني الرجل مؤيدًا قولي وأن هذا أفضل وأنني الأولى بفارق السعر طالما أن السكن لفترة مؤقتة وليس دائمًا.

أوقف (حمدون) إحدى سيارات الأجرة لتحملنا للعنوان الذي أخبر به السائق، التباين كان شاسعًا بين أحياء العاصمة ، شعرت بهذا مع رؤيتي لاختلاف أشكال المباني والشوارع والمحال والسيارة تنساب من حي لآخر وكأنه أخذني إلى عالم آخر غير الذي كنا به منذ قليل. نزلنا من السيارة بعد توقفها فنقدت السائق أجره ، أدركت أن هذا ليس مكان إقامتي الجديد حين أوقف (حمدون) ذاك "التوك توك" لينطلق بنا متراقصًا فوق الحواري الترابية الغير ممهدة على نغمات تلك الأغنية الشعبية الشهيرة والسائق يهز كتفيه ورأسه وهو يصدح بكلمات

الأغنية في نشوة واستمتاع ، أنهى (حمدون) الرحلة طالبًا من السائق التوقف.

سرت بجوار (حمدون) في الحواري الترابية الضيقة وأنا أفكر في تلك الشقة التي وصفها لي بكلمة شديدة الإيجاز "هتعجبك أوي"، قطع رنين هاتف (حمدون) أفكاري وهو يجيب في ضيق:

- وماذا كان عليّ أن أفعل مع الزحام الشديد...
- .....
- وصلت بالفعل وسأكون أمامك خلال دقيقة على الأكثر.

دخلنا ذلك المقهى الصغير فاتجه (حمدون) لمائدة يجلس عليها شخصان ، نهضا ليصافحاه قبل أن نجلس ، أشار نحو أحد الرجلين ليعرفني به قائلاً :

- الأستاذ (زياد) رفيقك الجديد في السكن.

نظرت إليه بإنفعال متمتماً :

- ومن أخبرك بأنني سأقبل بأن يرافقني أحد في السكن! ثم لماذا لم تخبرنِ بهذا منذ البداية وقبل التحرك؟ الآن وبعد أن قطعنا كل هذا المشوار الطويل تذكرت ! لو علمت بهذا من البداية لما تحركت معك خطوة واحدة.

قطَّب (حمدون) حاجبيه في ضيق قائلًا:

- لم أفهم ما المشكلة لديك.. ولِمَ كل هذا الانفعال والعصبية؟! ألم تخبرني صباحًا بأن أهم ما تبحث عنه الآن هو السعر المنخفض، والآن تنفعل عليَّ بدلًا من شكري لأنني جئت لك بمن سيتقاسم معك الإيجار المنخفض.. "خير تعمل.. شر تلقى، زباين آخر زمن صحيح"!

بدأت الأمور تتعقد حين نهض أحد الرجلين الجالسين أمامه من مكانه في غضب صائحًا:

- ومن أخبرك بأني أنا من سيقبل بالسكن معك؟!

رَبَّت المرافق له على كتفه وهو يعيده للجلوس من جديد قائلًا:

- اهدأ يا (زياد) ولا داعي للانفعال ، لم نأتِ هنا للشجار.

أجابه (زياد) وهو يعود لمقعده:

- ألا ترى كيف يتحدث يا (هاني)؟ من يحسب نفسه ليتحدث هكذا؟! يتحدث عن السكن معي وكأنه سيسكن مع أحد المجرمين أو قُطَّاع الطرق!

أجابه (هاني) من جديد قائلًا:

- اهدأ يا (زياد).. الرجل لم يقل أي شيء بشأنك ، هو يوضح للسمسار بأنه يريد السكن وحيدًا دون أن يشاركه أحد.

أجبته وقد أعجبني تدخله قائلًا:

- صديقك محق، واعتراضي ليس عليك أو على غيرك ، أحب فقط أن أكون بمفردي.

هدأ الانفعال قليلًا مع كلمتي الأخيرة ، فقال (هاني) موجهًا كلامه لـ(حمدون):

- والآن اخبرنا.. كيف ستسير الأمور؟

أجابه (حمدون) وهو ينهض موجهًا حديثه لي:

- سنذهب للشقة الآن ستراها وسنقابل صاحبها ، اذا أعجبتك سنتفق على الإيجار وباقي الأمور مع صاحبها ، وسآخذ عمولتي وأتركك بعدها لأرحل معهم فأريهم أماكن أخرى أعرف أنها ستنال إعجابهم.

تحركنا جميعًا لمقر الشقة، كان المعلّم (صبحي) صاحب العقار ومعه اثنان بانتظارنا بالأسفل ، صعدنا معهم للشقة لمعاينتها ، أعجبتني الشقة بعد جولة سريعة بها ووجدتها ستفي بالغرض تمامًا ، أومأت برأسي لهم موافقًا وأنها أعجبتني ، سألته قبل أن نقرأ الفاتحة:

- متى سنكتب العقد يا معلّم؟

أجابني بابتسامة:

- "عقد إيه اللي بتتكلم عليه يا هندسة! كلمة المعلّم (صبحي) هي العقد".

اتسعت عيناي في دهشة وأنا أقول:

- "هو في حاجة اسمها كده يا معلم؟!".

لم يرد المعلّم (صبحي) أو يعقب على كلمتي ، بل أردف لأحد مرافقيه وهو يتجه نحو الباب قائلًا:

- لا تنسى إغلاق الباب جيدًا بعد انصرافهم ، واحضر لي المفاتيح بالمقهى.

هتف (زياد) موجهًا كلامه لي بصوتٍ حَرِص أن يكون عاليًا ليسمعه المعلّم قبل انصرافه:

- إذا لم تعجبك الشقة أو لم ترغب بها فدعها لي فلا مشاكل لدَّي في موضوع العقد هذا .

أطلق المعلّم نظرات حائرة بيننا وهو يسأل:

- ما هذا .. ألستم قادمون معًا؟

صِحتُ بغضب قائلًا:

- أتظنني ذلك الأحمق الذي سينخدع بهذا "الفيلم الهابط"؟

صاح (زياد) هو الآخر بعيون يتطاير الشرر منها قائلًا:

- "حاسب على كلامك وبلاش قلة أدب ولخبطة في الكلام".

أجبته بحدة قائلًا:

- بل أنت من بحاجة لتعلم الأدب ، ويبدو من الكدمات بوجهك وعينك بأن هناك من سبقني وأعطاك درساً في الأدب ، لكن يبدو أنك بطيء الفهم وما زلت بحاجة لدروس جديدة.

وثب (زياد) نحوي بسرعة يريد الإمساك بي ، لكن صديقه كان الأسرع فقفز أمامه ليقف حائلًا بيني وبينه ، ثم التفت نحوي صائحًا:

- لم يقل سوى أنه إن لم تلزمك الشقة فإنها ستلزمه هو ، اهدأ من فضلك ولا تدع الأمور تأخذ أكبر من حجمها.

تحرك مرافقا المعلّم (صبحي) ليقفا في المنتصف ويباعدا بيننا. وهتف المعلّم (صبحي) صائحًا:

- أكملا شجاركما بالشارع فلا شقق لديّ للإيجار والمعاينة انتهت.

في المقهى كانت الجلسة التي جمعتنا من جديد لتهدئة الأمور بعد أن قام (حمدون) بوصلةٍ متقنةٍ من المدح والإطراء في المعلّم (صبحي) والثناء على أصله وأخلاقه وصفاته الطيبة ، مستعينًا ببعض الكذبات الفجَّة وأننا ما أتينا لمعاينة الشقة إلا بعد ما سمعناه عن سماحة المعلّم وأخلاقه الطيبة وزَجَّ بعض الحكم والأمثال من نوعية "اللي ما يعرفك يجهلك" وغيرها في سياق الحديث حتى لانت ملامح المعلّم (صبحي) وأصبح بإمكانه الاستماع لنا والحوار معنا من جديد.

تعارفنا واستمع المعلّم (صبحي) لما رويته أنا أولًا ثم استمع لما رواه (زياد) وصديقه ثانيًا حتى انتهيا ، إلتفت بعدها نحوي سائلًا:

- أنت تريد السكن وحيدًا دون مشاركة مع أحد؟

أومأت برأسي بالموافقة فالتفت لـ(زياد) سائلًا:

- وأنت لا مشكلة لديك في السكن مع رفقاء؟

أومأ (زياد) هو الآخر برأسه موافقاً ، إلتفت المعلّم (صبحي) نحو (حمدون) معاتبًا:

- لماذا لم تخبرنِ بهذا من البداية يا (حمدون)؟! الشقة بالطبع لمن يريد السكن وحيدًا ، أمَّا الآخر فيمكنه السكن في الشقة الواسعة الكبيرة بالطابق الأخير بذات البناية فلديّ بها أكثر من غرفة فارغة.

الإعياء والتعب الشديد كانا قد أجهزا عليَّ تمامًا ونالا مني مع الرغبة الشديدة في العودة لحياتي القديمة التي لم أعرف كم كانت جميلة إلاَّ بعد ما عشته خلال اليومين الماضيين ، تذكرت أمي وهي تسألني: أتستحق المنحة كل هذا التعب؟... قطع المعلّم (صبحي) ذكرياتي وهو يستند بمرفقيه على المنضدة في وضع الدعاء قائلًا:

- "طيب نقرأ الفاتحة ؟ ".

ألقيت بكل محاذيري خلف ظهري مع ما أشعر به من إنهاك وتعب مقرراً منح ثقتي للمعلّم (صبحي) وليكن ما يكون ، رفعت يدي معهم أنا الآخر لأبدأ في قراءة الفاتحة.

* * * *

(٧)

وقفت حائرًا ونسمات الليل تداعب وجهي أفكر ماذا عليَّ الآن أن أفعل؟ جيد أني لم أبدل ثيابي أو أترك هاتفي قبل أن يلكمني أبي، اتصلت بـ(هاني) ورويت له ما حدث في كلماتٍ موجزة فطلب مني البقاء حيث أنا وأنه سيكون أمامي خلال دقائق ، تحركت نحو حديقة كانت قريبة فدخلتها واخترت مقعدًا منعزلًا وجلست أفكر.. لن أعود للمنزل ثانيةً ، يكفي هذا وإلى هنا وكفى ، أنا فقط من بين أصدقائي وزملائي من يحدث معي كل هذا ، المشكلة في أبي بالتأكيد وليس أنا ، أيحدث كل هذا لي لأن (دانييلا) طرقت باب منزلنا فقط! ماذا كان سيفعل معي إذًا لو فعلت مثل صديقي (عاصم) الذي سافر إلى روسيا وتزوج هناك من فتاة على غير دينه وعاد بها لوالديه لتشاركهم الحياة بذات المنزل كزوجة لابنهم؟ أكان والدي ساعتها سيطلق النار عليَّ؟ أم سيتبرأ مني للأبد؟!

وصل (هاني) بلا تأخير كما وعد ، رأيت الذهول بعينيه وهو يعاين ما حدث لي ، تحسس عيني المتورمة مؤكدًا بأن علينا الذهاب لطبيب لنطمئن عليها أولًا ، أخبرته بأنها تؤلمني فقط لكني أرى بها جيدًا ، حمد الله وتنهَّد وهو يجلس بجواري سائلًا:

- وماذا تنوي أن تفعل الآن؟

أجبته بأني لن أعود للبيت ثانيةً ، اتسعت حدقتاه قائلًا:

- "بلاش جنان".

نهضت صائحًا في حِدّة:

- أخبرتك بأني لن أعود للبيت ثانيةً.

جذبني من يدي ليعيدني لوضع الجلوس جواره قائلًا:

- أنت لست صغير ويمكنك بالطبع أن تفعل ما تشاء.

ثم أردف مكملًا بهدوء:

- ولكن على الأقل دعنا نهدأ أولًا ولا نتخذ القرارات بأوقات الانفعال.

نهضنا لنكمل حديثنا سيرًا وهو يبتسم قائلاً :

- أصابتك لعنة حبس الوطواط ، اللعنة التي حلت عليك وستظل تطاردك حتى تطلق سراحه ، لعنة الوطواط المحبوس.. ما رأيك ألا يصلح عنوانًا رائعًا لمسلسل إذاعي أو رواية رعب؟

نظر نحوي فوجدني على ذات الشرود ولم أبتسم لدعابته فسألني وقد اكتسى وجهه بالجدِّية قائلًا:

- وأين تنوي أن تبيت ليلتك؟

- لا أدري!

- ألا أقارب لديك تنزل بضيافتهم الليلة؟

نظرت إليه بدهشة وأنا أشير لوجهي قائلًا:

- بهذا الوجه! تريدني أن أنزل بضيافتهم بهذا الوجه!

أخبرته بأن أيّ بيت من بيوت أقاربي أطرق بابه سيكون أول ما سيفعله هو الاتصال بأبي ليطمئنه على وجودي لديه وليتقمص دور المصلح الراغب في تهدئة الأمور وإعادة المياه لمجاريها ولتدور حوارات أقل ما توصف به أنها سخيفة مع لوم وعتاب وتبادل للنصائح ، وكلها أشياء بلا فائدة ستزيد الأمر سوءًا لو فهم أبي الأمر بأني أشكوه متقمصًا دور الابن المضطهد الذي يعاني من جور الأب الظالم ، توقف (هاني) عن السير ثم التفت إليَّ قائلًا:

- دعنا لا نهدر الوقت .. وتعال للمبيت معي الليلة.
- المبيت بأي فندق سينهي الأمر دون إزعاج لوالدتك و أختاك.

داعب (هاني) هاتفه ليطلب رقمًا فهمت أنه لأحد أقاربه:

- أريدك أن تسدي لي خدمة ، ليست لي بل لصديق عزيز دخل مشاجرة اليوم .
- .....
- جيد أن فهمتني .. أجل هي بالفعل مشاجرة من تلك التي تترك أثراً على ملامح الوجه .
- .....
- لا يريد العودة لأهله هكذا.
- .....
- لا تقلق .. فلا مشاكل أو محاضر شرطة أو من يبحث عنه، وهل تظنني سأزج بك يا عزيزي في أشياء كهذه.
- .....
- كن مطمئنًا تمامًا فهو صديقي وأعرفه جيدًا.

أنهى (هاني) المكالمة ، صحبني بعدها لمنزله فصعد لدقيقة أحضر لي فيها حقيبة صغيرة بها منامة ومنشفة قبل أن نقفز داخل إحدى سيارات الأجرة لتحملنا للفندق المطلوب ، ما أن دخلنا الفندق حتى تركني وذهب ليحادث قريبه ، عاد لي بعد دقائق ليعطيني مفتاح غرفتي وبطاقتي قائلاً : لا تفكر بشيء الآن .. فقط نم وارتاح والصباح رباح .

الغرفة كانت نظيفة بل الفندق بأكمله يبدو راقيًا ، ليلة بغرفة كهذه ستكلفني الكثير بلا شك. لم أستطع النوم مباشرةً بعد الحمام الذي أخذته فرقدت في الفراش أفكر ، ها قد وجدت مبيتًا الليلة ولكن

ماذا عن الأيام القادمة؟ لا بد أن أستقل بحياتي تمامًا ، والحمد لله أنني أعمل ولديّ وظيفة تدِّر عليَّ دخلًا أظنه ببعض التنظيم يمكن أن يكفيني تمامًا وساعتها فقط سيدرك أبي بأني لم أعد مراهق المرحلة الثانوية الذي يظنني إياه ، مفاتيح المنزل ما زالت معي ، سأذهب غدًا لأحضر ملابسي وسأبحث عن سمسار يستطيع أن يجد لي بسرعة غرفة قليلة الإيجار أو حتى مشتركة ، سيكون ذلك جيدًا في خفض نفقاتي لأريح والدي من الضيق والمشاكل والفضائح التي أسببها له على حد زعمه ، راقتني الفكرة كثيرًا وشعرت ببعض الهدوء فأغمضت عيني واستسلمت للنوم.

فتحت عيني لأدرك أن الوقت سرقني وأنا أنظر لساعة الهاتف الذي أيقظني رنينه، المتصل كان (هاني) أراد أن يطمئن عليَّ وهل نمت نومًا عميقًا أم أن جسدي لم يعتد النوم خارج سريري ، شكرته على ما فعله معي بالأمس وأخبرته عن خططي تجاه المرحلة القادمة فأجابني بأنني ما زلت كما عرفني دائمًا ذلك الأحمق المندفع ، لم يعجبه شئ مما قلت فأغلق معي المكالمة وهو يخبرني بأنه قادم إليَّ الآن.

غسلت وجهي وارتديت ملابسي ونزلت لسداد الحساب فأجابني الموظف بأن الحساب قد سُدِّد بالفعل ، إذن فقد فعلتها يا (هاني)! .. جلست في بهو الفندق أنتظر قدوم (هاني) وأفكر فيما قال ، لن أتراجع عما انتويت فعله. بدأت أهاتف أصدقائي وأسألهم إن كان أحدهم يعرف سمسارًا جيدًا فحصلت على أرقام هواتف لبعض السماسرة ، بدأت الاتصال بهم واحدًا تلو الآخر لأُخبِرَهم بطلبي وهامش الإيجار المسموح لهم التحرك خلاله وأن الوقت مهم بالنسبة لي لأنني في عجلة من أمري.

حضر (هاني) بالفعل كما قال وأنا في عجب كيف استطاع التسلل من عمله ليحضر لي ، فأجابني بأنه لم يذهب للعمل ، بدأ بعدها يناقشني ويحاول إقناعي بأن الأبَ أبٌ مهما فعل ، وأنها ما هي إلا أيام قليلة فقط وسأدرك خطأ ما انتويت فعله وسأغرق في الندم والرغبة في هدِّ هذا العالم الجديد الهش الذي بنيته متمنيًا العودة لما أنا شديد الضيق منه الآن ، أشعرتني كلماته باستفزاز شديد فصحت فيه بضيق قائلًا بأن من السهل عليه قول هذا وأكثر وهو من يضع يده في الماء البارد ، وأنني لو كنت مكانه لكان من السهل عليَّ أنا أيضًا تقمص نفس الدور وقول ذات الكلمات ، لكن أكان سيقول هذا لو كان هو من تلقى الصفعات واللكمات مكاني...

انطلق رنين الهاتف ليقطع حديثي ، المتصل كان أحد السماسرة الذين هاتفتهم يخبرني بأنه قد وجد طلبي مُلخصًا الوصف في كلمتين "هتعجبك أوي وسعرها حنيِّن" ، أنهيت المكاملة معه ملتفتاً لـ(هاني) لأسأله إن كان سيذهب معي أم أذهب وحيدًا؟

هزّ رأسه في استسلام قائلًا بأنه لن يتركني أذهب وحيدًا. حملتنا إحدى سيارات الأجرة إلى المنطقة الشعبية والعنوان الذي ذكره لنا السمسار، تجولنا على أقدامنا قليلًا إلى أن وصلنا للمقهى مكان اللقاء، حاول (هاني) أكثر من مرّة إثنائي عما انتويت فعله ، لكن القطار كان قد انطلق ولا سبيل لإعادته. دخل للمقهى رجلان يرتدي أحدهما نفس الملابس التي أخبرني السمسار بأني سأعرفه بها ، جال الرجل بعيونه بين رواد المقهى حتى توقف أمامي بوصف وألوان ملابسي التي ذكرتها له ، أشرت له بيدي فاتجه نحونا لنتصافح ونجلس ، كان يمكن للأمور

أن تسير بصورة أفضل لو لم يحضر السمسار معه ذلك الشاب الوقح المسمى (ساجد).

لم أدرِ أجشع السمسار أم الحرص على الوقت هو ما دفعه لأن يحضر وبرفقته طالب آخر لنفس الشقة؟ لم تجرِ الأمور على النحو المطلوب أثناء المعاينة وكدنا نصل للتشابك بالأيدي أنا وذلك المدعو (ساجد) كدت أفتك به حين أشار لوجهي بسخرية قائلًا بأنه لولا تلك الكدمات بوجهي وعيني للقَنَنِي درسًا لن أنساه لولا وجود (هاني) معي وإصراره الدائم بأن يلعب دومًا دور صمام الأمان الذي يحول بيني وبين تأزم المواقف . تم الاتفاق بيننا أخيرًا بأن الشقة ستكون للفتى المغرور (ساجد) وسأرافق أنا آخرين في السكن بشقة أخرى كبيرة بالطابق الأخير بذات البناية. غادرني (هاني) عائدًا لأنه لا يستطيع التأخر عن والدته أكثر من ذلك ، أخذت طريق العودة للمنزل بعد أن انتهى الجزء الأول من خطتي وقد تبقى الجزء الأصعب بأن أعبِّأ ملابسي وأشيائي في حقيبة وأغادر البيت لأبدأ حياتي الجديدة ، كنت أعلم أن الأمر شديد التعقيد وسيخدش كبرياء أبي وستبكي أمي غالبًا ، وقد يقسم أبي عليَّ بأيمان لا أعلمها لكنها بالتأكيد لن تكون في صالحي ، فكرت أن أتسلل للبيت بعد منتصف الليل والجميع نيام فأحزم حقائبي في صمت مغادراً لكن خوفي من وصف أبي لي باللص الذي يستتر بالظلام كان ثقيلًا على نفسي وحال بيني وبين فعل ذلك. رنين هاتفي أخرجني من حساباتي المعقدة، (هاني) كان المتصل، سألني هل صعدت للبيت؟ فأجبته بأني ما زلت في الطريق ولم أصل للبيت بعد ، فأردف بلهجة شديدة الحزم قائلًا:

- انصت إليَّ جيدًا ولا تصعد إلى البيت قبل أن تسمع وتستوعب جيدًا كل كلمة سأقولها لك.

ظننته سيبدأ فصلًا جديدًا من الهراء الذي حاول إقناعي به في الفندق صباحًا ، لكن ما قاله لي هذه المرّة لم يكن مختلفًا فحسب ، بل كان رائعًا.. رائعًا بحق.

* * * *

(٨)

على بعد آلاف الفراسخ الفلكية عن كوكب الأرض ، بمملكة لاميتا داخل الكوكب القرميدي تحديدًا كانت الحيرة تتلاعب بأعصاب (جسَّار) داخل قصره الكائن وسط مجموعة قصور كبار السهم القرمزي الغارقة في حراسات مشدّدة ، أشخاص بعينهم فقط كانوا المسموح لهم بالاقتراب من هذه المنطقة أو دخولها ، توتر شديد ساد الأجواء بعد قدوم الزائر المهيب ولقاءه بالسيد (جسَّار) ليخبره بأن الضوء الساطع يريد لقاءه ، ارتجفت أوصال (جسَّار) لسماع الخبر ، فأي عظيم حدث ليطلب الضوء الساطع لقاءه؟! الأمر بدا أشبه بعملة معدنية تم إلقاؤها في الهواء ولا يدري على أي وجه ستقع؟ نعمة أم نقمة؟! أعطى (جسَّار) الأمر لحاشيته بعد انصراف الزائر المهيب بأن يُعدوا موكبه للذهاب للقاء الضوء الساطع.

الضوء الساطع كان بإنتظار (جسَّار) حين دلف لقاعة اللقاء فأشار له بالجلوس قائلًا:

- اجلس يا (جسَّار) ... فهذا هو لقائي الأخير بك كرأس مطرقة.

جلس (جسَّار) وقد أسود وجهه لسماع الكلمة وتملكته حسرة بلا حدود قبل أن يغمغم سائلًا:

- أتعني بأنه تم عزلي ولم أعد رأس المطرقة بعد الآن؟!

أومأ الضوء الساطع برأسه مجيباً:

- انتهى دورك .. وحان وقت نزولك من على خشبة المسرح.
- بهذه البساطة .. وبعد كل ما قدمته من سنوات عطاء !

- لست الأول ولن تكون الأخير ، لكنك ستُمنح مكافأة اختفاء سخية لم تمنح لأحد بالسهم القرمزي قبلك تقديرًا لجهودك طوال سنوات عملك الطويلة معنا.

- ومن سيخلفني؟

- انتهى دورك وستعرف الإجابة في الوقت المناسب تعلم بأننا نمقت الأسئلة ولولا مكانتك الكبيرة وسنوات عطائك وإنجازاتك للسهم القرمزي لما استدعيتك لأبلغك بنفسي ولاكتفيت بإرسال من يخبرك.

- أهي وشاية؟

أجابه الضوء الساطع بابتسامة باهتة قائلًا:

- لا يمكنك اعتبارها وشاية بالمعنى الحرفي للكلمة .. بل اقتراح.

- اقتراح بعزلي؟!

- بل اقتراح بما يمتص غضب الكبار ولأجل غدٍ أفضل.

- وهل صرت أنا الأمس السيء؟!

- تعرف بأنه لا بد من كبش فداء حين تتعقد الأمور.

- وهل لي أن أعرف من كان صاحب الاقتراح بعزلي؟

- أأنستك الصدمة قواعد عملنا ... انتهى اللقاء غادر الآن .

استعر موقد الغضب بأعصاب (جسَّار) كحطب يتفحم ويتراكم سواد احتراقه على جدران عقله ، أبعد كل تلك السنوات التي أمضاها كرأس للمطرقة بعصابات السهم القرمزي وما حققه خلالها من إنجازات لا تنسى قفزت بها لتسود وتتسيد المشهد في مملكة لاميتا والممالك المجاورة ، أبعد كل هذه السنوات من العطاء بلا حدود تكون تلك الصفعة المؤلمة هي كلمة الشكر ومسك الختام؟! يا لها من نهاية ظالمة!

غادر (جسَّار) قصر الضوء الساطع عائداً لقصره للمرة الأخيرة ، اجتمع بمعاونيه وشرح لهم خطة الإخلاء ليبدأوا بجمع أشيائه وإخلاء مكتبه ، طلب قهوته وهو جالس على أريكته المفضلة بأقصى الجناح رافعًا قدميه فوق منضدة قصيرة أمامه ، أشعل لنفسه صاروخًا تبغيًا كثيف الرائحة وبدأ ينفث بضيقٍ دخان الغضب لتتصاعد سحب الدخان البيضاء وتحيطه ، دلف شاب لينحني أمامه باحترام قائلًا:

- بأمرك سيدي.
- من هو رأس المطرقة الجديد ؟
- السيد (برهان) هو من شغل المنصب الجديد خلفًا لك سيدي .

ركل (جسَّار) المنضدة الصغيرة أمامه ونهض يضرب كفًا بكفٍ في غضب صائحًا:

- (برهان)! أهذا الحقير التافه عديم القيمة هو من سيخلفني؟!

نادى بعدها كبير معاونيه وهو يردف قائلًا:

- سأرحل للضيعة الغربية اجمع الرجال والحقوا بي هناك .. أريدكم جميعًا أمامي هناك بعد ساعتين من الآن.

أغلق (جسَّار) هاتفه ونزع شريحته فكسرها ملقيًا إياها بعيدًا وهو يعطي الأمر للسائق بالتوجه للضيعة الغربية ، مرارة شديدة كانت عالقة بحلقه، لم يستطع ابتلاع الأمر رغم كونه قد صار واقعًا لا رجعة فيه ، أبعد كل تلك السنوات التي أمضاها في خدمة السهم القرمزي ولم يتأخر فيها عن فعل أي شيء مهما كانت صعوبته أو قسوته أو حتي حقارته لجعلها بتلك المكانة تكون هذه هي كلمة الشكر التي تقال له ويكون هذا هو الجزاء؟!

أشار (جسَّار) بيده للمعاون الجالس بجوار السائق إشارة فهمها الرجل في الحال فمدَّ يده ليخرج من حقيبته أحد هواتف اللاتتبع ، أخرج بعدها شريحة شفَّافة دسَّها في الهاتف ثم ناوله لـ(جسَّار) وهو يأمر السائق بالتوقف ، غادر (جسَّار) السيارة وهو يداعب الهاتف لينطلق الرنين وليأتي صوت المتحدث سائلًا:

- إن لم يحوِ العش الذهبي طيورًا ذهبية فماذا سيحوي؟

أجاب (جسَّار) قائلًا:

- قد يحوي الطيور المخادعة ذات الأجنحة النحاسية.
- تقبل أسفنا ومواساتنا لمصابكم.
- أريد معرفة الواشي وكيف جاءت الوشاية؟
- يلزمني بعض الوقت لأعرف وأخبرك.
- لاَّ تتأخر .. وسأنتظر الإجابة على الرقم المتفق عليه.

في الضيعة الغربية كانت (جيلان) زوجة (جسَّار) تحاول قدر استطاعتها تهدئة زوجها وامتصاص غضبه فمنذ وصوله للضيعة وهو ثائر كالبركان الذي لا يخرج سوى شظايا وحمم من الغضب ، حاولت تهدئته قائلة:

- ألقي بما حدث خلف ظهرك ودعنا نبدأ الاستمتاع مع أولادنا بما تبقى لنا من عمر .
- أي استمتاع هذا الذي تتحدثين عنه مع ما تعرضت له من غدر وخيانة؟!

- لا تعقد الأمور ... فكما حللت مكان رأس مطرقة سابق فلا بد أن يأتي يوم ليحل محلك لاحق ، هكذا تجري الأمور دائمًا كلهم يأتون ويرحلون ولا أحد باقٍ للأبد ، وإن أردت الحقيقة فيجب أن تشعر بالفخر لأنك أطول من مكث كرأس مطرقةٍ بالسهم القرمزي.

- من كان السبب؟ هذا ما لا بد لي أن أعرفه.

- لا ينقصنا شيء لتشعر بالضيق ، نملك أربع ضيعات شاسعة ولدينا من المال ما قد نحتاج لعمرٍ إضافيٍ جديد لإنفاقه ، وستمنح مكافأة اختفاء لم تمنح لأحد من قبلك في تاريخ السهم القرمزي فلا تكن نظرتك للأمور سوداوية هكذا ، ودعنا نبدأ مرحلة الحصاد والاستمتاع مع أولادنا فيما تبقى لنا من عمر .

تعالى رنين نغمة غريبة، نظرت (جيلان) للهاتف في دهشة سائلة:

- ما هذا الهاتف الغريب الذي لم أره معك من قبل؟

تحرك بالهاتف بعيدًا عنها وهو يشير لها بالابتعاد قائلًا:

- غادري الآن من فضلك فلديّ مكالمة هامة.

غادرت (جيلان) الغرفة ، وأسرع (جسَّار) ليبدأ المكالمة قائلًا:

- إن لم يحوِ العش الذهبي طيورًا ذهبية فماذا سيحوي؟

- قد يحوي الطيور المخادعة ذات الأجنحة النحاسية.

- هات ما عندك أيها الطائر المحلق.

- .....

تغيرت ملامح وجه (جسَّار) وهو يصغي لما يقوله الطرف الآخر عبر الهاتف قبل أن يصيح:

- أواثق مما تقول؟

- .....

- أغبياء ملاعين .. كيف لثلاثة من الكبار والضوء الساطع أن يؤيدوا عزلي؟!

- .....

- كيف ينظرون لطموحي على أنه طمع؟! ... أي غباء هذا؟

- .....

- بالطبع مستحيل أن أكون مخترقًا !

- .....

- حسنًا.. سأفعل اللازم.

****

جرى الإحتفال الكبير على قدم وساق بتلك الساحة التي تم إعدادها للإحتفال بالسيد (برهان) بعد ترقيته كرأس المطرقة الجديد خلفًا للسيد (جسَّار) بعد سنوات طويلة أمضاها بالمنصب لا ينازعه فيه أحد بما رسخ الظنون بأن الوفاة وحدها هي من يمكن لها أن تقصيه عن المنصب. انتهى الحفل الكبير الذي استمر لساعات ، تلقى (برهان) فيه الكثير من الهدايا والأمنيات بالنجاح والتوفيق قبل أن يغادر الساحة وقاعة الاحتفال ليدلف للمرة الأولى لمكانه الجديد بقصر رأس المطرقة. طرقات على الباب دخل بعدها مسئول الاستقبال لينحني بالتحية في احترام قائلًا:

- (صفوان) بالخارج يطلب الدخول.

- دعه يدخل، واختر لنفسك المكان الذي تحب الذهاب إليه ، وارسل في استدعاء (رشوان) ليحل محلك كمدير للاستقبالات بقصري.

أومأ الرجل برأسه وهو ينحني في احترام قبل أن يغادر الغرفة قائلًا:

- كما تريد سيدي.

دلف (صفوان) للغرفة فأشار له (برهان) بالجلوس وهو يمسك قلمًا ويكتب على ورقة أمامه : "لم أتأكد بعد من أمن المكان .. لا تتحدث واكتب ما تريد قوله" ، ناول الورقة لـ(صفوان) فقرأها وأمسك بالورقة ذاتها وكتب: "(جسَّار) غضب بشدة من عزله وقدومك مكانه، خرجت منه بعض الألفاظ التي..." ، قرأ (برهان) ما كتبه (صفوان) وتلك النقاط التي عكست تردده في إكمال الكتابة فكتب له سائلًا: "ماذا قال بالضبط؟"، الحيرة التي حملتها عيون (صفوان) فهمها (برهان) في الحال فكتب:

"دع سخافات الحياء والخجل الآن فأنا من يطلب منك أن تخبرني ماذا قال ، أريد أن أعرف كل شيء"، كتب (صفوان) "هتف وسط رجاله بغضب قائلًا: أهذا الحقير التافه عديم القيمة هو من سيخلفني" ، هزَّ (برهان) رأسه في فهم وهو يشير له بأن يتابع الكتابة ، فتابع (صفوان) الكتابة مضيفًا: "طلب الاجتماع برجاله في الضيعة الغربية ، ولم يتمكن أي من رجالنا هناك من حضور هذا الاجتماع" ، كتب (برهان): "جيد أن أخبرتني بهذا، أنتظرك أنت والداهية (غيَّاث) لنتابع حوارنا ليلًا في موعدنا المعتاد بمقر اجتماعاتنا القديم ، المكان هناك آمن تمامًا وسيمكننا الحوار بلا خوف أو قلق حتى أتأكد من تأمين المكان هنا". تناول (برهان) الورقة التي حوت الحوار بينه وبين (صفوان) وأشعل فيها النار بقداحته وهو يتابع إحتراقها بعينيه إلي أن صارت رمادًا في المنفضة ، عاد بعدها للحوار مع (صفوان) بموضوعات أخرى قبل أن يُنهي الحوار ويسمح له بالانصراف.

في الموعد والمكان المتفق عليه جلس كلٌ من (غيَّاث) و(برهان) يستمعان بإنصات وإصغاء لـ(صفوان) وهو يعيد رواية ما حدث وما قاله (جسَّار) ، تمتم (غيَّاث) وكأنه يراجع الصورة التي تشكلت لديه من حديث (صفوان) قائلاً:

- (جسَّار) يشعر بالحزن الشديد لإعفائه من منصبه بعد ماقضاه من أعوام كرأس للمطرقة.

هزّ (برهان) رأسه مردفاً :

- لم تكفه الأعوام التي عاث فيها في لاميتا فسادًا وعقد تحالفات ومعاهدات طويلة الأمد مع الشيطان ذاته مقترفًا ما لا يخطر بالبال من المصائب بدعوى توسيع انتشار السهم القرمزي وزيادة هيبتها و سحقه للكثير من المنافسين والخصوم وأبقاء من سمحت لهم السهم القرمزي فقط بالبقاء لذا فشعوره بالظلم لعزله من منصبه أمر طبيعي تمامًا.

نهض (غيَّاث) من جلسته متحركاً في الغرفة ذهابًا وإياباً يفكر بينما ظلَّ (صفوان) و(برهان) يرقبانه في صمت ودون مقاطعة لأنهما يدركان بأن (غيَّاث) داهية وصاحب عقل جبَّار ومن الأفضل أن يُترك ليفكر بهدوء ودون مقاطعة ، طال الوقت و(غيَّاث) على صمته يتحرك بالغرفة دون كلمة مع أحد ، قطع (صفوان) الصمت قائلًا:

- لو كنت مكان (جسَّار) لما نظرت هكذا للأمور ولاعتبرتها مجرد نهاية لمرحلةٍ وبداية لأخرى جديدة ، أبدأ فيها الاستمتاع بحصاد مشوار العمر مع الزوجة والأولاد ومكافأة الاختفاء الضخمة بدلًا من الحزن .

التمعت عينا (غيَّاث) بالبريق فتوقف عن السير ونظر للسيد (برهان) نظرة طويلة قائلًا:

- إن كان لدي السيد (جسَّار) لَبْسٌ في فهم الحزن ويشعر بالحزن الشديد لعزله فمن واجبنا أن نذيقه أحزان أخري يعرف بها الفرق بين الأحزان وكيف هو الحزن الحقيقي ولتزوره وتواسيه سيدي في مصابه وأحزانه.

هزَّ (برهان) رأسه في عدم فهم سائلًا:

- أزوره و أواسيه؟!

أومأ (غيَّاث) برأسه مجيبًا:

- أجل سيدي تزوره وتواسيه بأفضل كلمات المواساة من قلبك الكبير الذي لا يحمل غير الطيبة والرحمة.

ارتسم الذهول على وجه السيد (برهان) و(صفوان) وهما يرمقان (غيَّاث) وهو يردف مضيفًا:

- لعن الله الخمر وما تفعله بالعقول وذاك السائق المخمور الذي سيصدم بسيارته ابن (جسَّار) تلك الصدمة كقرصة أذن صغيرة في صورة حادث نحن بعيدون عنه تمامًا سيجعل السيد (جسَّار) يجرب نوع آخر من الحزن ويعرف جيداً كيف هو الفرق بين حزن وحزن آخر.

حدَّق (صفوان) في ذهول سائلًا:

- أتقصد وفاة في حادث؟!

- ومن قال بأننا نريد الموت للفتى ، لنترك للأقدار ياعزيزي إن تقول كلمتها ، إن حدث وفاضت روح الفتى البريئة فسيعزيه السيد (برهان) كرجل يملك قلب وأخلاق النبلاء ، وإن لم تحدث الوفاة وكان الأمر مجرد إصابة فقلب السيد (برهان) الكبير أيضًا سيجعله أول

الذاهبين لمواساته في مصابه لأن المصائب هي من تظهر دومًا معادن الرجال ، وتلك المصيبة هي من ستظهر بوضوح معدن السيد (برهان) النفيس ، ليس أمام (جسَّار) فقط بل وأمام الضوء الساطع وكبار السهم القرمزي أيضًا.

اتسعت حدقتا السيد (برهان) في ذهول قائلاً:

- لكنها مخاطرة كبيرة ومصيبة رهيبة إن حدث أي خطأ وعرف بأننا من وراء الأمر؟!

ابتسامة واثقة حملتها ملامح (غيَّاث) وهو يجيب:

- لا تقلق سيدي فأصدقائنا الأطباء سيكونون الأسرع وسيقومون بعقاب السائق المجرم على ذنبه الفادح وخطئه الجسيم بقيادة السيارة بتلك السرعة مخمورًا وسينهون الأمر بالسرعة المطلوبة.

ارتسم الذهول على وجه (برهان) وهو ينظر لـ(غيَّاث) الذي أردف مضيفًا:

- لا بد أن تتلألأ عيونك بالدموع الحزينة سيدي وأنت تواسيه ليعلم الجميع وخاصة الضوء الساطع وكبار السهم القرمزي كيف أن رأس المطرقة الجديد رجل يحمل أخلاق النبلاء ، وأن اختيارهم لك يمثل حقًا خير بداية لعهد جديد.

* * * *

(٩)

المعهد كان مبهرًا بكل ما تحويه الكلمة من معانٍ ، معامل مجهزّة وقاعات مكيفة فلا تتساقط قطرات العرق على الأوراق أمامك وأنت تسمع أو تكتب محاضرة ، أجهزة الحاسب هناك كانت حديثة سريعة لا تقارن بالطبع بحاسبي الذي يحتضر منذ شهور دون أن تفيض روحه ، قدَّمت أوراقي وتسلمت "الكارنيه" الخاص بالدخول ، مكتبة المعهد كانت أكثر من رائعة فعقدت العزم على قضاء غالب وقتي بها وأن أتخذ منها المقرّ الرئيسي للدراسة بهدوئها وما تحويه من كتب ومراجع حديثة يحتاج شراء أيًا منها لمبلغ يضاهي إيجار شقتي لشهرين أو ثلاث.

نظرتي للمعلّم (صبحي) تغيَّرت كثيرًا بعد اللقاء الأول وأنا من ظننته أعدَّ خطَّة متقنة مع (حمدون) السمسار واستعانوا فيها بالكمبارس (زياد) لتنطلي عليَّ الخدعة لإقناعي بالإسراع في تأجير الشقة كي لا تضيع الفرصة مني ، المواقف والأيام التالية أظهرت لي أن ظني بالرجل لم يكن فقط خاطئًا بل متسرعًا ومندفعًا أيضًا وإنَّ بعض الظَنِّ إثم ، "وما محبة إلاَّ بعد عداوة" كما يقولون ، أخلاق المعلّم (صبحي) الحقيقية بدأت تظهر لي رويدًا رويدًا، لم يطلب الرجل مني الإيجار كاملًا واكتفى بجزء منه قائلًا بسماحة: "عيب يا باشمهندس .. الدار أمان ، إحنا ولاد بلد جدعان ، والناس لبعضيها" ، دعاني بلطف بعدها لتناول الغداء معه لكنني اعتذرت لانشغالي إلي أن قابلته ذات صباح أسفل المنزل وأنا في طريقي للمعهد فسألني إن كنت أستطيع - بما أنني

مهندس حاسبات - إصلاح جهاز الحاسب الخاص بإبنه ، أجبته بأني لا أعلم بعد ما المشكلة بالجهاز لكنني حين أعود من المعهد سأرى الجهاز وأخبره بالمطلوب ، نسيت الأمر تمامًا فوجدت الصبي بانتظاري عند عودتي ليصحبني لمنزلهم قبل أن أصعد لشقتي لتبديل ثيابي أو تناول الطعام ، العطل كان بسيطًا لم يستغرق إصلاحه سوى دقائق ، استأذنتهم بالانصراف لكن المعلّم أمسك يدي بقوة ودعاني للطعام وهو يقسم بأغلظ الأيمان على عدم مغادرة منزله قبل تناول الطعام مُنهيًا الأمر بقوله: "يبقى أكلنا عيش وملح مع بعض يا باشمهندس".

اكتشفت خلال الأسبوع التالي حاجتي لأشياء كثيرة كان لا بد من العودة معها لقريتي لإحضارها خاصةً بعد أن اتضح لي بأن نفقات الحياة الأساسية بلا إسراف أو بذخ مرتفعة ولا بد لي من طلب دعم مالي إضافي جديد من والدي بعد أن شارفت نقودي التي أخذتها منه على النفاد. حملت حقيبتي وعدت لقريتي ، اللقاء جاء رائعًا حنونًا وكأني عائد بعد سنوات من الغيبة وليس مجرد أيام ، تبادلنا العناق والقبلات وأمطروني بالأسئلة ونحن نتناول الغداء الشهي من يد أمي ، أخبرتهم كيف أن ليلتي الأولى مع زملائي كانت عسيرة صعبة مع كثرة عددهم ومشاجراتهم التي لا تنقطع فأحدهم يريد غلق الضوء والآخر يريده مفتوحًا للمذاكرة، وهذا يشعر بالحرّ ويفتح النافذة ليدخل الهواء والثاني يخشى أن يصاب بالبرد من النافذة المفتوحة ، وذاك يريد مشاهدة التلفاز والآخر لا يستطيع النوم مع صوت التلفاز ، قضيت ليلتي أفكر بأنني إن قضيت شهور المنحة بينهم في مكان كهذا فلن استطع الدراسة أو التفوق كما اعتدت وستضيع أيام المنحة في فضّ

المشاجرات بينهم إن لم أكن أحد أطرافها ، غادرتهم صباحًا دون أن أخبرهم بشيء لأبدأ رحلة البحث عن شقة صغيرة محدودة الإيجار حتى وجدتها.

كان والدي يستمع في سعادة عكستها قسمات وجهه وهو يقول لأمي بفخر من آن لآخر: "ألم أخبرك بأن ابننا قد كَبُرَ وصار رجلًا يستطيع تدبر أموره" ، عرض أبي عليَّ كالمعتاد أن نصحب عمي (مرزوق) بعد أن نملأ السيارة بالوقود وبكل ما تحتاجه الشقة من نواقص فقبَّلتُ رأسه وشكرته ، لكنني مِلتُ لأهمس له في حياء بحاجتي للمزيد من النقود.

حلَّ المساء علينا وكأن نسمات الهواء الباردة أرادت الترحاب بي هي الأخرى فداعبت جلستنا ليتراقص معها ذلك المصباح الشحيح الضوء ونحن نرتشف الشاي الساخن ، سألتني أمي عن جيراني ومن تعرفت بهم من سكان البناية ، شممت في حديثها رائحة البحث عن الأنثى فأخبرتها أن ابنة الجار المقابل لي تقف في الشرفة المقابلة لشقتي كل صباح لتودعني وأنا ذاهب للمعهد ولا تدخل للنوم إلا بعد الإطمئنان على عودتي سالمًا ، اتسعت عيناها وبدأ القلق يطل من عيونها فقمت وقبّلت رأسها مخبرًا إياها بأني أداعبها ولا شيء من هذا صحيح وأنني هناك للدراسة فقط ولا شيء غيرها.

أخبرتها عن سكان البناية التي أسكنها وذاك الشاب الملتحي الذي ينادونه بالشيخ (أوَّاب) ، وكيف أنه يمتلك وجهًا يشعرك بالراحة حين تراه سواء أحادثته أم لا، وأنه دائم الصلاة بالمسجد وليس أيسر لمن يرغب بلقائه من أن يجده بالمسجد في أوقات الصلاة.

تغيرت ملامح أبي وقاطعني وهو يشير بإصبعه لي محذرًا:

- احذر منه يا (ساجد) ومِن كل مَن على شاكلته يا بُنيّ.

أخبرتهم كذلك عن الساكن الضخم مفتول العضلات والذي يرتدي قبعة ونظارة داكنة تخفي وجهه طوال الوقت ولا يحادث أحد ، بل أنه كثيرًا ما لا يلقي أو يرد السلام ، وعن ذاك الآخر الذي يبدو لي في كل مرَّة ألقاه فيها بصورة مختلفة ، فتارة أراه كسكير لا يفيق وتارة كتائه لا يدرك من حوله وثالثة كمجنون يحادث نفسه، ولا أعرف أين يسكن أيٌ منهم باعتبار شقتي بالطابق الأول ، لم أخبرهم بالطبع عن (زياد) ولقائي المتوتر به كي لا أثير قلقهم .

الزيارة مضت سريعة كغمضة عين لأجد نفسي من جديد أُنزل حقائبي من "التوك توك" أمام البناية ، ظهر لي في تلك اللحظة (أوَّاب) فحيَّاني ثم مدَّ يده ليحمل إحدى حقائبي ويصعد بها معي دون كلمة ، حاولت منعه من فعل ذلك لكنه كان الأسرع فوثب حاملًا الحقيبة في صمت ليضعها أمام باب شقتي ، أنهينا وضع الحقائب أمام باب الشقة وشكرته قبل أن ينصرف فرد عليَّ بابتسامة قائلًا:

- لا داعي لذلك.. لم أفعل غير الواجب، وحمدًا لله على السلامة.

بدأت إفراغ حقائبي ووضع كل شيء بموضعه، ضيق تملكني طوال الرحلة بعد أن همست لي أختي قبل المغادرة بدقائق بأن أعدها بأن أشتري من أول راتب أتقاضاه هدية ذهبية لأمي التي رَهَنت سوارها سِرًا لتحضر لأبي النقود التي أعطاها لي ، آه .. لو علمت بهذا مبكرًا قليلًا لما أخذت تلك النقود من أبي أبدًا ، منعني العهد الذي قطعته لأختي بعدم الحديث أو إظهار معرفتي بالأمر فلزمت الصمت كي لا أسقطها في

مشكلة معهم ، هل جاءت المنحة لتزيد الأعباء عليهم أم لأنطلق في تحقيق أحلامهم وتخفيف أعبائهم !

رنين الجرس ودقات على الباب قطعا عليَّ وحدتي وصمتي ، من عساه الطارق ولا أحد يعرفني ولم أصل بعد لتكوين الصداقات أو أن يكون لي زوَّار؟! شعرت بالكسل ولم أشأ النهوض لفتح الباب ، لكن تكرار الطرق والرنين أجبراني على النهوض لأرى من بالباب ، جرجرت أقدامي في تكاسل وغالب ظني أن الطارق سيكون شيئًا يخص الساكن السابق لي مثلًا أو ربما سائل عن شخص خاطئ ، فتحت الباب فإذا بصبي يسألني:

- "هو حضرتك المهندس (ساجد حامد)؟".

أومأت برأسي بالموافقة فمدَّ يده ليناولني هاتفه قائلًا:

- "طب ممكن ترد على التليفون".

تناولت منه الهاتف لأجد المعلِّم (صبحي) هو من بالطرف الآخر للمكالمة ، أخبرني بأن الصبي الواقف بالباب أمامي الآن هو زميل لإبنه ولديه هو الآخر حاسب محمول يريد إصلاحه بعد أن علم من ابنه بأنني من أصلحت له حاسبه فجاءني يسألني إن كان بالإمكان إصلاح حاسبه هو الآخر، ثم أردف مكملًا:

- اصلح له الحاسب وتقاضى أجر إصلاحك كاملًا بلا مجاملات أو اعتبار أن الأمر يخصني "الشغل شغل يا باشمهندس".

أنهيت المكالمة وأعدت الهاتف للفتى ، نظر لي حائرًا فسألته أين حاسبك؟ أنزل الحقيبة المعلَّقة على ظهره وأخرج الحاسب المحمول وناولني إياه ، فدعوته للدخول وبدأت أسمع منه شكواه ، ثم أخذت رقم هاتفه على وعدٍ بأني سأعاود الاتصال به حال الانتهاء.

* * * *

(١٠)

لم يخطر ببال (برهان) يومًا أن يكون رأس مطرقة عصابات السهم القرمزي ، الأمر كان أكبر مفاجأة أذهلته حين وقع إختيار كبار السهم القرمزي عليه من بين أقرانه ليكون رأس المطرقة الجديد ، نقلة كبيرة رفعت قيمته وأعلت شأنه فأصبح من ذوي الشأن وأصحاب المناصب الكبيرة بالسهم القرمزي.

دلف (رشوان) ليخبره بأن (صفوان) و(غيَّاث) بالخارج يطلبان لقاءه ، أعطاه الإذن بالدخول فدخلا ، أشار لـ(صفوان) سائلًا:

- ما أخبار الذئب العجوز و لاتقل بأنك توقفت عن متابعته ؟

أجابه (صفوان) قائلًا:

- أي ذئب تقصد سيدي؟ إن كنت تقصد (جسَّار) فقد صار حملاً أو لِنَقُل بأنه قد صار ذئباً مستأنسًا منزوع الأنياب.

ابتسم (برهان) وهو يشير لـ(غيَّاث) في إعجاب قائلًا:

- الداهية (غيَّاث) هو من إنتزع أنيابه.

ابتسم (غيَّاث) قائلًا:

- صمته الشهور الماضية هدَّأ من مخاوفي لكنه لم يبدِّدها فرجل كـ(جسَّار) لا يُؤمن جانبه أبدًا ، ويبقي كالأفعى التي قد تأتيك لدغاتها الغادرة بأي لحظة.

قاطعه (صفوان) في حسمٍ قائلًا:

- لا أتفق أبدًا مع نظرتك شديدة الحذر فالرجل لم يتحرك أو يغادر ضيعته منذ ثلاثة أشهر واستغنى عن الأعوان والمساعدين فلم

يبقَ سوى السائق وبعض من يقومون بخدمته فقط وكأن انفصال زوجته عنه وسفرها بابنها الأكبر قد دكَّ آخر حصون المقاومة لديه.

تمتم (غيَّاث) وهو يشير بأصابعه محذرًا:

- الطمأنينة لـ(جسَّار) خطأ فادح .

قطع (برهان) حوارهم قائلًا:

- السائق المخمور أنهي الأمر وأسدى إلينا صنيعًا كبيرًا بقتله ثلاثة شبان آخرين دهمهم بشاحنته مع ابن (جسَّار) ليبدو الأمر كعمل طائش لا تشوبه شائبة أودى بحياة الشباب الأربعة.

أشار (برهان) لـ(غيَّاث) سائلًا:

- ماذا فعلت وإلي أين وصلت فيما كلفتك به؟

تألق وجه (غيَّاث) بابتسامة فخرٍ وهو يُجيب قائلًا:

- عرفت أخيراً السرّ الرهيب الذي قفز بشخصٍ محدود الإمكانيات كـ(جسَّار) لتلك المكانة المرموقة ليشغل رأس المطرقة طوال هذه الفترة وينال أعظم مكافأة اختفاء مُنِحت لأحد في تاريخ السهم القرمزي.

تمتم (صفوان) في فضول ولهفة سائلًا:

- وأي سر هذا الذي يمكن أن يثب به تلك الوثبة الرهيبة التي يقضي الكثير من رجال السهم القرمزي أعمارًا كاملة ولم يصلوا لمثلها ؟!

أجابه (غيَّاث) قائلًا:

- إلتقط الخيط السحري الذي قذف بعصابة السهم القرمزي للقمة لتسحق منافسيها وتترك الفزع في قلوب خصومها وتتبوأ المكانة الرائعة التي نعيشها الآن وهذا ما جعله يقفز سلم المناصب وثباً ليصبح رأس مطرقة.

صاح (برهان) بدهشة سائلًا:

- يبدو أن ما تتحدث عنه الآن هو أحد أسرار السهم القرمزي القديمة التي لا أعلم عنها شيئاً رغم كوني رأس المطرقة ... لذا كف عن الثرثرة وأخبرني أي خيط هذا الذي التقطه (جسَّار)ليقذف بالسهم القرمزي لتلك المكانة.

توقف (غيَّاث) عن الحديث لثوانٍ رمق فيها لمعان الفضول في أعينهم قبل أن يردف:

- عالم يُدعى (تقي الدين ضياء) بوحدة علوم الغد والمستقبل فكَّر بدراسة الكواكب التي يتشابه مناخها وطقسها وسكانها تشريحيًا معنا للذهاب إليهم والاطلاع على ما وصلوا إليه من تطوُّر وتقدم .

أردف (غيَّاث) متابعاً:

- تطورت الفكرة لتدخل مرحلة التنفيذ بإختراع جهاز المسافر الأيوني للسفر لتلك الكواكب و جهاز فاحص القدرات لمعرفة قدرات السكان هناك من قوة وذكاء حتى لا يهدر وقته مع الحمقى الأغبياء .

اتسعت عيون (صفوان) و(برهان) دهشة وهما يصغيان في تركيز لـ(غيَّاث) والذي تابع حديثه قائلاً :

- سرق (جسَّار) أحد أجهزة المسافر الأيوني بمعاونة أحد أتباع السيد (تقي) دون معرفته ، قاموا بعدها بمعاونة التابع الخائن بالسفر لكوكب يسمى مينامون وأحضروا من هناك أعداد من المقاتلين تم استخدامهم كجنود مرتزقة في عصابة السهم القرمزي خاضوا بهم معارك لا حصر لها إنتهت بسحق الأعداء لأن الخسائر كانت مجانية مع مقاتلين بلا ثمن وبهذا إستطاع (جسَّار) أن يثب سلم الترقيات ليصبح رأس مطرقة وأن يجعل عصابة السهم القرمزي تتسيد المشهد

بلا منازع فتقوم بما تريد وتترك الفتات للآخرين للإبقاء على شكل الحياة المعروف بضرورة وجود الآخر، لكنه وجود بلا دور أو قيمة كفزاعات الطيور لا أكثر.

تمتم (صفوان) في دهشة سائلًا:

- وأين (تقي الدين) هذا والجهاز ؟

أجابه (غيَّاث) قائلًا:

- لا أحد يعلم عنهما أي شيء! أظنه مسجوناً بأحد الكهوف الرمادية.

غمغم (صفوان) في دهشة سائلًا:

- الكهوف الرمادية؟!!

تمتم (برهان) وهو يهز رأسه بعد أن فهم المغزى قائلًا:

- ليدفنه ويدفن السر معه.

تمتم (غيَّاث) قائلًا:

- أظن (جسَّار) قد حاول مع السيد (تقي) هذا كثيرًا ومارس كل أنواع التهديد والوعيد بحثاً عن المزيد ويبدو أن الرجل لم يقبل ببيع عقله وعلمه.

تمتم (صفوان) سائلًا:

- ولماذا لم ينه الأمر بقتله ودفن السر معه ؟

- وضعه بالسجون الرمادية هو قتل أيضاً لكن مع بقاء الأمل بالاستفادة منه إن تغيرت الأمور بأي لحظة ولهذا بادر بإختطافه وإخفائه لتخرج كل صحف اليوم التالي ولا حديث لها سوى اختفاء العالم الفذّ (تقي الدين ضياء) ، سلطات لاميتا بحثت عنه بكل مكان دون أن يصلوا لشئ حتي ماتت القصة مع الأيام ودُفِنت طي النسيان

ولتبقي أطماع (جسَّار) هي من لم تمت بأمل الاستفادة مما عند هذا الرجل من كنوز .

- كنوز؟

- أجل كنوز تحويل المعادن ، وهو ما كان يخطط له السيد (تقي) كوسيلة للتفاوض وعقد صفقات مع سكان الكواكب بعد الزيارات الأولي التي تمت لهم بالمسافر الأيوني واكتشاف أن بعض المعادن النفيسة لديهم بلا قيمة لدينا ليفتح هذا أمامه باباً واسعاً للتفاوض معهم لرفضه التام للخطف أو استخدام العنف بمنطق أن ما لا نرضاه لأنفسنا لا نقبله لغيرنا.

أشار (برهان) لكلٍ من (صفوان) و(غيَّاث) وهو يقول في جدية:

- جِدا لي (تقي الدين) هذا بأي شكل ... أريده أمامي بأقصى سرعة.

****

وجد (جسَّار) في ضيعته الجنوبية أكثر الأماكن ملائمة له بما تحمله من عزلة وسكون وبُعدٍ عن أعين الرقباء ، وفاة ابنه (إياد) هوت على وجهه كصفعة قوية أفقدته الوعي تقريبًا لتأتي الصفعة التالية من زوجته (جيلان) بوصلات طويلة من الصراخ والبكاء والنواح على (إياد) تطورت شيئًا فشيئًا لتصبح إتهام مباشر له بأنه السبب فيما حدث ، وأن ما حدث ليس سوي البداية لموسم حصادٍ أسود سيعيشه بعد سنواته التي أمضاها في الظلم والتجبر ، الأمور كانت محسومة لدى (جيلان) بطريقة باءت معها كل محاولات التهدئة بالفشل ، لتزداد الأمور تعقيدًا بإصرارها على الانفصال عنه لترحل برفقة ابنها الأكبر خارج مملكة لاميتا تاركة له كل شيء من أموال وضيعات باعتبار

خسارتها لابنها لا تعدلها خسارة ، كم حاولت إثناءه عن الطريق الذي اختاره لنفسه لكنه لم يصغ إليها.

الأيام صارت متشابهة لديه فكلها أيام تمر بلا فارق بينها ، زاره بعض الأصدقاء وغادروا في حزنٍ شديد وهم يجدون أنفسهم أمام (جسَّار) آخر غير الذي عرفوه ، (جسَّار) الذي امتلأ وجهه بلحية كثيفة مهملة واستطال شاربه بلا تهذيب ليبدو كشبح بائس يائس ينتظر الموت ولا يحمل من (جسَّار) القديم سوى الاسم.

لم ينس كلمات الضوء الساطع حين أبلغه بأن وقت نزوله من على خشبة المسرح قد حان ، الكلمة لم تغادر رأسه بل اقترنت بسؤال جديد : إذا كانت لحظة نزولي من على خشبة مسرح السهم القرمزي قد حانت .. ألم يأن الأوان للحظة نزولي من على خشبة مسرح الحياة؟.

الذكريات صارت أسوأ كابوس يطارده ، لم تعد الأيام تعنيه أو تمثل له قيمة بعد وفاة ابنه (إياد) ورحيل (جيلان) ، فالموت قد صار هو الشيء الوحيد الذي ينتظره ليغادر به مسرح الحياة لكنه عنيد لا يريد القدوم ، دخلت الخادمة لتنحني أمامه بطريقةٍ مهذبةٍ قائلة:

- سيدي .. وضعت طعام الغداء على المائدة.

أشار إليها بيده في لامبالاة قائلًا:

- اذهبي وارفعيه فلا رغبة لي بالطعام الآن.

أومأت الخادمة برأسها في احترام قائلة:

- كما تريد سيدي.

غادرت الخادمة لترفع الطعام عن المائدة لكنها التفتت إليه بعد خطوات قليلة قائلة:

- سيدي هناك مكالمة تأتي كل يوم في تمام الثالثة منذ أسبوع على ذلك الهاتف الغريب الذي لم يرن أبدًا منذ بدأت عملي هنا إلا بتلك المكالمة بذات التوقيت منذ أسبوع.

التفت إليها (جسَّار) وقد استوقفته كلماتها سائلًا:

- عن أي هاتف تتحدثين؟
- الهاتف الصغير بمفتاحيّ الإجابة والإلغاء فقط.
- ومن سمح لكِ بأن تلمسي هذا الهاتف يا غبية؟!
- هاتف يرن ولا بد من إجابته فأنت لم تطلب مني عدم المساس به أو الإجابة عليه أو أي شيء خاص بشأنه سيدي .. لذا أجبت.

سألها (جسَّار) وهو يحدِّق بوجهها في ضيق سائلًا:

- وماذا كان يقول المتصل؟
- كان يقول جملة واحدة سخيفة لم أفهم لها معنى ولا أذكر هل كان يسألني عن عش ذهبي أم طيور ذهبية؟.. جملة سخيفة يكررها في كل مكالمة في صورة سؤال ولا يقول شيئًا غيرها.

ضرب (جسَّار) كفًا بكف في ضيق شديد وهو ينهض ليحضر ذلك الهاتف سائلًا:

- قلت أنه يتصل في الثالثة؟

أومأت الخادمة برأسها، فأشار لها بالانصراف وإعداد قدح من القهوة وهو يقلب بصره بين الهاتف وساعة يده منتظرًا أن تمضي تلك الدقائق القليلة التي باتت تفصله عن دقات الثالثة.

أنهى (جسَّار) قهوته وعينه ما زالت تتابع عقارب الساعة في سيرها الوئيد حتى ارتفع رنين الهاتف أخيرًا ، فتح المكالمة في صمت منصتًا فجاء الصوت لشاب يبدو في مقتبل العمر يقول:

- إن لم يحوِ العش الذهبي طيورًا ذهبية فماذا سيحوي؟

أجابه (جسَّار) بهدوء قائلًا:

- قد يحوي الطيور المخادعة ذات الأجنحة النحاسية.

أطلق الشاب تنهيدة طويلة ثم قال : أخيرًا.

- من أنت؟ وماذا تريد؟

- اصغ لي من فضلك سيدي وأعدك بألاَّ أطيل عليك.. سطور حوتها وصية والدي - يرحمه الله - لم أفهم لها معنى، لكنها صارت واجبة التنفيذ لأنها وصية ، طلبت مني تلك السطور أن أتصل بهذا الرقم وأن أخبر المتصل بتلك الجملة ولا أكمل الحديث حتى يأتي الرد بالكلمات التي كانت ردك الآن ، وكان هذا هو الشرط لأخبرك بباقي الوصية.

- رحم الله والدك ، والآن اخبرني ماذا كتب لي والدك في وصيته؟

- طلب مني أن أخبرك بأنه يمكن للسائق المخمور أن يكون قاتلًا مأجور.

اتسعت عينا (جسَّار) في ذهول قبل أن يردف سائلًا:

- فقط؟! أهذا ما حوته فقط؟.. اخبرني بالله عليك هل حوت أي شيء آخر؟

- أجل سيدي.. هناك اسمين وبجوارهما تعليق صغير يقول: "عيون كانت لا تغفل".

أمسك (جسَّار) بسرعة بقلم ليدون الاسمين الواردين بالوصية وهو يفكر من هم يا ترى أصحاب تلك الأسماء؟.. لم تدم حيرته طويلًا وارتفع حاجباه في ذهول وهو يسمع الاسم الأول ، وفهم تمامًا ما قصده صديقه الطائر المحلق حين كتب "عيون كانت لا تغفل" مع سماعه للاسم الثاني ، فقد كانت الأسماء لاثنين من أكثر رجاله قربًا له.

* * * *

(١١)

العلامات بوجهي بدت منطقية تمامًا لزملائي عند عودتي للعمل بعد أن رويت لهم وأطلقت لخيالي العنان عن تلك المشاجرة التي وقعت بموقف سيارات الأجرة بين سائق كان يسخر ويهزأ من رجل مسن وتعاطفي أنا وشاب إلى جواري مع الرجل المسن ليتفاقم الأمر بتدخل أصدقاء السائق وليتطور الأمر فيتجاوز السباب بالكلمات ليصل لعراكٍ انتهى بتلك الذكريات على وجهي.

(علاء) فجر مفاجأة لم تكن بالحسبان فاستقال تاركًا لنا العمل بالرحيل لإحدى شركات خاله ليبدأ خطاه على طريقٍ تم إعداده له منذ زمن ، و(فادية) اختفت عنا هي الأخرى في عطلة زواج أعقبتها بإجازة مرضية لتغيب عنا فترة ليست بالقصيرة ، أمّا (عادل) فكان بشروده الدائم خير ممثل للحاضر الغائب.

اختلاس النظرات الخفية لـ(إنجي) كان نبع السعادة الذي أسرق الرشفات منه كلما حانت لي الفرصة رغم ما كان يحمله ذلك لي من حرج و حياء حين تنظر إليَّ فجأة فتراني أمعن النظر إليها، لا أعرف إن كانت للعيون لغة تتحدثها ، وهل فهمت (إنجي) ما وشت به إليها نظراتي؟ كنت أحاول إخفاء ارتباكي في الحال بفتح أول موضوع أو سؤال يخطر ببالي عندما تكتشف نظراتي إليها، وكم كان الخجل يقتلني حين يأتي السؤال - في غمرة تسرعي وارتباكي - تافهًا، لكنها كانت دومًا الهادئة الواثقة من نفسها للغاية فلا تجيب إلا بالكلمة التي لها معنى، وأحيانًا تختزل الإجابة في مجرد ابتسامة صامتة.

انطلق رنين هاتف المكتب ، رفعت عيني عن الأوراق أمامي فوجدتها تنظر إليَّ ثم للهاتف ، أجبت الهاتف فخرج صوت المدير صائحًا يطلب مني الحضور إليه حالًا ، ذهبت إليه بخطوات متعثرة أقدم ساقًا وأؤخر أخرى سائلًا الله اللطف في قضائه ، لا أعلم ما المصيبة التي حدثت لكنه لن يجد أمامه سواي لأقوم أنا بسداد الحساب نيابةً عن الجميع ، اتضح لي في غرفة المدير بأن السبب كان مكالمة من رئيس مجلس الإدارة يسأله عن (إنجي) وكيف تسير أمورها ولماذا تقضي ساعات يومها بلا تدريب أو عمل ثم قال كلمته التي ارتعدت لها فرائس المدير: "إذا لم يكن لديكم من العمل ما تقومون به فاخبروني".. أجابه المدير بذكاء بأن لا شئ من هذا وأنه فقط لم يرد إقحامها في العمل مباشرةً من أول يوم وأراد لها أن تأتي الأمور تدريجيًا فتتعرف على الزملاء والمكان أولًا ثم يتم بعد ذلك إدخالها في غمرة العمل تدريجيًا وشيئًا فشيئًا ، كلفَّني المدير بعد أن أنهى المكالمة بالإشراف على تدريبها ومتابعة عملها والرجوع إليه في أي مشاكل تواجهني.

التكليف بتدريبها كان قبلة الحياة التي أعادتني للحياة من جديد لأكتشف بأنني كنت ميتًا تقريبًا بأيام عمري التي تمضي وتمر بلا طعم ، ولِأَعرف الفرق بين حياة ممتعة تستحق أن أحياها وأستمتع بكل ثانية فيها وبين مجرد أيام متشابهة أقضيها بلا فارق بينها. تطورت أموري بعد هذا التكليف كثيرًا فأصبح بإمكاني الحديث معها دون بحث عن موضوع ملائم للحديث كما أصبح باستطاعتي ليس فقط النظر إليها في أي وقت بل وأن أمعن وأطيل النظر كيفما أشاء فأملأ عيوني من جمال نظراتها وسحر عينيها بلا أدنى خوف أو قلق واكتشفت بالعمل معها

كيف أن ما مضى من عمري قد سُرق مني أو ضاع دون أن أدري وأنا أجد متع الحياة التي أعرفها قد خفت بريقها إلى جوار متعة التواجد معها وقضاء ساعات يومي بجوارها ، (زياد) الذي كان جمال يوم عمله يأتي حين ينعم بوصلة طويلة من النوم العميق أصبح الآن الموظف المنضبط الذي يحضر كل الأيام ولا يمقت شيئًا أكثر من العطلات والإجازات بل ويتمنى أن تطول وتتضاعف ساعات العمل حتى لا ينقضي ويمر وقت بقائي معها بسرعة! ولتصبح أسوأ لحظات يومي هي لحظة الفراق بانصرافها من العمل وكلمة الوداع تخرج من شفتيها وهي تحمل حقيبة يدها للرحيل وبرفقتها يوم من أيام سعادتي يودعني معها هو الآخر... يبدو أني قد سقطت في الحب!

دفعت إيجار الشقة للمعلّم (صبحي) لكن مكالمة اللحظة الأخيرة من (هاني) أوقفتني عن الذهاب لهناك ، حذرني بشدة يومها من الإقدام على تلك الخطوة المتسرعة التي ستغرقني في الندم، ونصحني يومها قائلًا: "دع الأمور تمضي بسلام ولا تفتح مع والدك بابًا يصعب إغلاقه، ولا تدع الأمور تهرب منك لتأخذ صورة التحدي مع والدك ، فلن ينظر أحد لصفعةٍ أو لكمةٍ أو حتى ركلةٍ كمبرر لك ، بل ستصبح أمام الجميع الابن العاقّ الذي ترك أسرته ورحل عنهم. كن ذكيًا ولا تسقط في الفخ عُد للمنزل يا صديقي واخبرهم بأنك مكثت الليلة لدى أي صديق لا يعرفونه ، ولا يطل حزنك عن يوم أو أثنين على الأكثر لتعود الأمور مع اليوم الثالث لما يشبه طبيعتها التي كانت عليها قبل الأزمة ، أيام قليلة فقط وستهبط المفاجأة غير المتوقعة على الجميع بقرار نقلك الظالم الجائر الواجب التنفيذ لفرع للشركة بمحافظة أخرى تختارها أنت ، والتي لن تكون بالطبع سوى الشقة الجديدة كتربية وتأديب لك بعد

ذلك التحقيق الذي جرى معك لانفعالك على أحد قياداتك في العمل والحديث معه بطريقة غير لائقة فيها تجاوز لحدود الأدب ، تذهب بعدها لمقر عملك الجديد أقصد الشقة وهذا ما أراه الأفضل لك يا صديقي وإن لم يعجبك لكنه سيجنبك مصيبة تحدي والدك و سيترك الباب أمامك مفتوحًا للتراجع متى أردت بعد أن تفيق من سخف ما كنت تنوي القيام به ، يمكنك ساعتها التقدم بشكوى و تظلم من قرار نقلك الجائر ليتم إعادة النظر فيه وإعادتك إلى مقر عملك مرة أخرى. بدا لي ما قاله مقبولًا لثقتي التامة بأن لا أحد من أسرتي سيفكر في الذهاب لمقر عملي للسؤال عني والقرار وإدراك كذب تلك القصة الكبيرة المفبركة.

ذهبت للشقة مقر عملي الجديد برفقة المعلّم (صبحي) بعد أن سلمني نسخة من المفتاح وعرَّفني على رفقاء السكن معي ، كانوا ثلاثة تتقارب أعمارهم معي (كمال) و(أوَّاب) و(همَّاس الزنفلي) ، أدركت بعد سكني معهم أن كلًا منهم عالم بذاته بطباعه الخاصة وغرفته المغلقة عليه معظم الوقت ، كان اللقاء يجمعنا أحيانًا في الصالة لمشاهدة مباراة بالتلفاز أو لإعداد شاي أو طعام بالمطبخ أقنعت نفسي بأني مازلت جديدًا عليهم وسأعرفهم جيدًا مع الوقت.

أغمضت عيني مستلقيًا على فراشي أستمع لكوكب الشرق وهي تشدو وأنا هائم في سحر الكلمات والعالم الذي حملتني إليه "لسه فاكر قلبي يديلك أمان .. ولا فاكر كلمة هتعيد اللي كان"، اختياري لهذه الأغنية لم يأتِ عن معرفة بها أو سماعٍ سابق لها ، بل جاء بعد أن علمت من (إنجي) بأنها أغنيتها المفضلة من بين أغاني سيدة الغناء العربي. ماذا أفعل الآن وقد غرقت في الحب بكل استسلام وغرق قلبي

في العشق والهوى وأنا من كان يهتف بأن الحب وهم الأغبياء؟! لم يعد أمامي الآن سوى أن أعلن بشجاعة عن لامبالاتي بتصدر صفوف من وصفتهم بالأغبياء. أخرجتني الطرقات الخفيفة على الباب من نشوتي، صحت مانحًا الإذن للطارق بالدخول، فتح (أوَّاب) الباب ودخل لغرفتي بابتسامة قائلًا:

- أحضرت من الخارج طعامًا شهيًا .. هيا انهض وتعال لتشاركني الطعام.

هززت رأسي بالنفي وأنا أرفع له يدي شاكرًا لكنه أردف قائلًا في رجاء:

- بالله عليك يا (زياد) تعال لنأكل معًا.

اعتذرت له من جديد بلطف فلست جائعًا الآن ، صمت قليلًا بإنتظار أن أراجع نفسي أو أُغيَر رأيي ولمّا طال انتظاره هزَّ رأسه في يأس مستسلمًا وحمل كوبًا فارغًا به بعض بقايا الشاي كان إلى جواري قائلًا:

- ماذا عن الشاي؟.. ما رأيك بأن نشرب كوبين من الشاي سويًا بعد الغداء؟

أجبته قائلًا:

- اسمع.. لِمَ لا تحضر أنت طعامك وتتناوله هنا في غرفتي طالما أن وجودي وحديثي معك أثناء الطعام سيفتح شهيتك.

- غريب.. غداء بغرفة النوم! لا أظنه أمرًا جيدًا على الإطلاق.

- لا تقلق بالنسبة لي فأنا أعرف أنه جيد ، اذهب واحضر طعامك وأنا بانتظارك .

نهضت بسرعة فنصبت المنضدة التي سيضع عليها الطعام، ثم جلست على الفراش أنتظره، حضر (أوَّاب) ومعه الطعام، دعاني من

جديد لمشاركته فاعتذرت، والحقيقة أني كنت أود الحديث معه والتعرف عليه أكثر باعتباره أحد رفاقي في السكن، سألته:

- هل جربت الحب من قبل أو فكرت في الزواج ؟

أجابني بابتسامة هادئة قائلًا:

- حاولت ولم يُكتب لي النجاح.

- ولماذا ؟

- اتصلت بوالد فتاة سمعت الكثير عن جمالها وأخلاقها، وأخبرته برغبتي في إحضار أسرتي لطلب يد ابنته ، لكن الرجل طلب مني أن ألتقي به وحيدًا في المسجد بعد صلاة العشاء..

- بهذه البساطة وبدون أي تمهيد.. أخبرت الرجل مباشرةً برغبتك في الزواج من ابنته!

- كما أقول لك بالضبط ودون أي زيادة أو نقص.

- وماذا حدث؟ وكيف جرى اللقاء بينكما؟

- كنت مندهشًا لكون اللقاء بالمسجد وليس ببيته، جلست مع الرجل في أحد أركان المسجد بعد الصلاة فأمطرني بأسئلة بدت لي شديدة الغرابة وقتها عن كيف هي علاقتي مع الله؟

- وبماذا أجبته؟

- أخبرته بثقة وبلا تردد بأن "علاقتي بربنا زي الفل" ، فرمقني بنظرة طويلة نهض بعدها ليغادرني وهو يربِّت على كتفي قائلًا: "ابحث عن فتاة أخرى تناسبك يا بُنيّ".

هززت رأسي لأفيق مما رواه لي بعد أن شعرت وكأنه يروي لي حكاية من زمن آخر أو حكاية لا أعلمها من حكاوي ألف ليلة وليلة، لكنها ليست بالطبع حكاية من زمننا الذي نعيش فيه، سألته بعدها:

- ومع أهلك بالمنزل .. كيف سارت الأمور ؟

- لا شيء غير عادي ، أخبرت والدي برغبتي في الزواج ، فسألني "أهناك فتاة بعينها ترغب في الزواج بها؟ أم نختار لك نحن؟"، فأجبته بمقتي لزواج الصالونات والأقارب وأني أفضل الاختيار بنفسي وسأخبرهم بالفتاة التي أريدها حال عثوري عليها.

ضربت كفًا بكف وقد غلفني الذهول وأنا أتذكر أوضاعي قائلًا:

- يا لك محظوظ! أبتلك البساطة سارت الأمور مع أهلك؟!

- خطوة أساسية لا بد منها في حياة كل منا، فما الداعي لإهدار الوقت بتأجيلها!

تركته يكمل طعامه وقمت فأعددت لنا كوبين من الشاي متحسرًا على حالي مع والدي الذي اختزل رسالته نحوي في تعليمي، والجملة التي لا يمل من ترديدها ليل نهار "لقد علمتك كما علمني أبي". حملت الشاي وعدت للغرفة وكلي شوق لمتابعة الحديث معه والتعرف عليه أكثر، سألته وأنا أضع السكر بالشاي قائلًا:

- ولماذا لم تجرب من جديد مع أخرى؟

مسحةُ حزنٍ غلفت وجهه وهو يجيبني قائلًا:

- وفاة والدتي بعد معاناة طويلة مع المرض الخبيث قلبت حياتنا بأسرها رأسًا على عقب.

- لم أفهم.. كيف قلبت وفاة والدتك - يرحمها الله - حياتكم رأسًا على عقب؟

- استدان والدي بعد أن أنفق كل ما يملك في علاج والدتي، ليفيق بعد وفاتها على كابوس مطاردة الديون والدَّيانة له في كل وقت ومكان ويجد الحل لأزمته في الزواج بأرملة ثرية.

- وهل تلك الأرملة سيدة طيبة أم أنها...

أدركت سخف سؤالي وهو يقاطعني بحسمٍ قائلًا:

- بالنسبة لي يكفي أنها المرأة التي أخدت مكان أمي لكن مشكلتها في الحقيقة لم تكن معي أنا بل مع أختي الصغرى فهي من عاشت معها بعد أن غادرت أنا البيت للجامعة والدراسة حتى أنهيت دراستي وتخرجت وعملت.

- إذن فوفاة والدتك والأوجاع التي عشتها هي من جعلتك مختلفًا عن الآخرين.

- لم أكن هكذا قبل وفاة والدتي، لو رأيتني أيام الجامعة كنت ستعرف الفارق الشاسع بين (أوَّاب) الماضي و(أوَّاب) الذي أمامك الآن.

- يمكنني تخيل الفارق بالطبع بين شاب طموح مقبل على الحياة وآخر مغرق بالهموم والأحزان سواء أكانت وفاة والدته أم ديون أبيه أم قهر أخته.

- كنت أول دفعتي خلال سنوات دراستي فاختارني أحد أساتذتي للعمل معه بمكتبه وأنا طالب، وكان يحجز لي تذاكر السفر لفرنسا وإيطاليا وغيرها من الدول الأوربية لحضور المعارض الكبرى لبيوت الخبرة ، ويزودني بهاتف حديث به كاميرا عالية الجودة لأحضر تلك المعارض وأصور كل شيء فيها وأعود له بعشرات الصور تكون أفكارًا يستخدمها في رسوماته وتصميماته وكأنها بنات أفكاره دون أن يعلم الكثير أنها مسروقة أو لنقل مستوحاة من أعمال أخرى.

- مهنة رائعة أن تكون مهندسًا للديكور.

- كانت مبهرة لي أيضًا في البداية وأنا أجوب قصور وبيوت الأثرياء لكن بمرور الوقت أدركت وأنا أرى ما يحدث من مصائب وفضائح يعُفُّ

عن ذكرها اللسان بتلك القصور والبيوت بين من يقال عنهم الصفوة من الأثرياء بأن ليس كل ما يلمع ذهبًا.

- وهل تركت العمل مع أستاذك المعجب باجتهادك؟

- تركته وانتقلت للعمل الشخصي بمفردي بعد أن نجحت في تكوين سمعة طيبة بما أنجزته من أعمال فأصبح أحد رجال الأعمال يخبر صديقه قائلًا له سأدلك على مهندس شاب بارع يمكنه أن يُنهي لك العمل بجودة رائعة وبسعر لا يصدق.

- ولماذا لم تصبح ثريًا بعملك مع الكبار والأثرياء؟

- حققت بالفعل أرباحًا وجنيت أموال جيدة من عملي زوَّجت بها أختي من شاب طيب يحبها ويضعها في عينيه، وأعتبر هذا أهم أنجاز فعلته بحياتي.

- ولماذا لم تفتح مكتبًا خاصًا بك لإدارة هذا العمل؟

- جربت بعدها العمل في تصميم ديكور الأفلام بمدينة الإنتاج الإعلامي لكنني لم أحب هذا العمل أيضًا أو أجد نفسي فيه.

- وأين وجدت نفسك أيها السوداوي المتشائم؟! فلو كانت أمك حيَّة لما ارتضت لك هذا.

- الحمد لله على كل حال فوفاة والدتي قد غيرت من نظرتي للحياة كلها لأعرف أن كسب المال وسيلة وليس غاية ، ولتتغير أولوياتي فلم يعد للأشياء ذات بريقها السابق ، أعمل الآن مهندس ديكور بأحد مصانع الموبيليات بمرتب ليس سيئًا أدخر منه بعض الأموال لأي طارئ ، وأزور أبي وأختي من آن لآخر كلما سمحت ظروفي ، وحياتي الشخصية كما تراها هنا معكم وبينكم.

أنهينا الشاي فحمل (أوَّاب) الأكواب الفارغة وأعادها للمطبخ ثم عاد فطوى المنضدة الخشبية وشكرني على الشاي والضيافة ، أغلقت الباب خلفه بعد مغادرته وحاولت إعادة تشغيل الأغنية التي كنت أعيش كلماتها بعمق قبل دخوله فلم أفلح ، تبًا لك يا (أوَّاب) أضعت نشوتي بالأغنية تمامًا بقصتك الغريبة هذه.

مرّ الوقت عليَّ وأنا ممدّد في الفراش أفكر في كلمات (هاني) الأخيرة.. "يجب أن تشعرها يا صديقي بأن اهتمامك بها شيء آخر غير اهتمام العمل، وأن قلبك يحمل لها شيئًا خاصًا لم يعرفه مع أحد من قبل إلا هي، حاول أن تجد اللمسة الحانية التي تطرق بها قلبها وتوصل لها ذلك المعنى". طال تفكيري بحثًا عن اللمسة الحانية دون أن أصل لشئ ، لا بد من الاستعانة بالوطواط فهو من قد يدلني على تلك الخطوة المفقودة ، إعداد قدح من القهوة الآن سيكون جيدًا لسهرتنا أنا والوطواط والتي قد تطول ، خرجت لإعداد قدح القهوة فوجدت (أوَّاب) قد صلى العشاء ودخل للنوم باكرًا كطيور الحقل الأليفة كما هي عادته و(همَّاس الزنفلي) يقوم بالتمارين الرياضية التي لا يكف عنها أثناء مشاهدته للتلفاز وقد خفض الصوت كي لا يزعج أحدًا و(كمال) في غرفته المغلقة عليه بالمفتاح من الداخل لكن ضوء غرفته أخبرني بأنه ليس نائمًا ، يبدو أنني قد اخترت السكن وسط حفنة من غرباء الأطوار ، لا بد أن أجد الوقت لأتعرف على (همَّاس) الرياضي القوي ذو العضلات الضخمة الذي لا يحادث أحدًا مُفضِّلًا الصمت الدائم و(كمال) وغرفته المغلقة عليه دائمًا ذات الروائح الغريبة كما تعرفت على (أوَّاب) الذي أشك بأنه يدرك بأننا نعيش في القرن العشرين بنومه مباشرةً بعد صلاة العشاء.

دخلت المطبخ وأوقدت النار على الماء لإعداد قدحٍ من القهوة لي وكوبًا من الشاي لـ(همَّاس) وعقلي ما زال يبحث ويفكر في اللمسة الحانية ، دخل (همَّاس) ليخبرني بأن أذهب لغرفتي لأجيب هاتفي الذي لم يتوقف عن الرنين ، من عساه يتصل بي بهذا الإصرار في هذا الوقت من الليل ، حملت الشاي لـ(همَّاس) وقهوتي إلى غرفتي ثم تفحصت الهاتف لأجد رقمًا غريبًا كان هو الطالب في كل المرَّات ، بدأت أرشف قهوتي في استمتاع ليتعالى رنين الهاتف من جديد بنفس الرقم الغريب ، أجبت الهاتف لأجد بانتظاري مفاجأة مذهلة بحق كنت أنتظرها منذ أمدٍ بعيد ويبدو أن أوان تحققها قد حان.

* * * *

(١٢)

الضوء الباهت والهواء الساخن القادم من فتحات التهوية الضيقة أثار ضجر وضيق الشاب الجالس على الأرض وهو يحرك طبق طعام ورقي فارغ أمام وجهه لجلب المزيد من الهواء ويرمق جرذًا يطل برأسه عليهم من أحد الشقوق من آن لآخر. السيد (تقي الدين) كان يرمق بريبةٍ ذلك الشاب الذي أحضروه ليشاركه السكن بكهفه ، سنوات مرَّت عليه داخل الكهوف الرمادية اللعينة والتي لم يسمع بها أو يعرف عنها شيئًا حتى صار بين عشية وضحاها أحد نزلائها ، لم يكن وحده من لا يعلم شيئا عن الكهوف الرمادية بل كل من عرفهم لم يسمعوا عنها وقد تكون سلطات مملكة لاميتا ذاتها لا تعلم عنها شيئًا ، كهوف خافية محفورة وسط الجبال لها مداخل ومخارج وأنظمة تهوية وإضاءة غريبة ومعقدة كانت المقرات القديمة لعصابة السهم القرمزي اللعينة ثم تغيرت الخطط ليتم الاستفادة منها كسجون لمن يرون أنه يستحق السجن بمواقعها التي لا يعلمها أحد . إحضار هذا الشاب لكهفه كان أمرًا مريبًا لم يخرج الأمر في المرات السابقة عن كون المرافق إمَّا جاسوسًا ينقل لهم أخباره أو قادم برسالة إليه لكنه لم يعرف حتى الآن ما الذي وراء هذا الشاب، تمتم الشاب في ضيق سائلًا:

- منذ متى وأنت بهذا المكان العطن؟

رمقه السيد (تقي الدين) بنظرة متفحصة قبل أن يجيبه قائلًا:

- أنها ميزة لم أمنحها إلاَّ بعد أعوام قضيتها بالكهوف الكبيرة حتي رَأوْا أخيراً بأني أستحق بعض الرحمة والتكريم بالحبس في كهف صغير .

- وهل البقاء وحيدًا تكريم؟!

- وجائزة لا تمنح لأي أحد !

- كنت أظن الوحدة هي العذاب، وأن وجود من يثرثر بجوارك ويشاركك الحديث والذكريات سيمنع الهموم والأحزان من افتراسك.

قهقه السيد (تقي الدين) قائلًا:

- هذا ما قد تشاهده في التلفاز عن السجناء الذين ينامون على الأسرة الوثيرة ويتبادلون الدعابات الضاحكة وحديث الذكريات كل ليلة عن الأهل والأحباب وتنشأ الصداقات بينهم وبين السجَّان الذي لا بد أن يكون حنونًا طيب القلب ، أمَّا الكهوف الرمادية فشيءٌ آخر مختلف تماماً.

- وما المانع بأن تسير الأمور كذلك هنا؟

- لا أدري إن كان هذا يحدث في السجون الوردية لمملكة لاميتا أم لا فحياتنا هنا بالكهوف الرمادية وسط الحشرات والحيات والعقارب ليست كذلك لأنها سجون عصابات.

- وما جريمتك التي استحققت عنها الحبس هنا؟

- السؤال الصحيح هو ما الجريمة التي امتنعت عن فعلها لأكون هنا . لكن دعك مني الآن واخبرني ما جريمتك أنت؟

- مقالًا نشرته بالجريدة منتقدًا أحد الكبار.

قهقه السيد (تقي الدين) بسخرية معلّقًا:

- وبالطبع لجأ الكبير الذي إنتقدته للخدمات المدفوعة طالباً من السهم القرمزي عقابك ... لكن لماذا إختار الإنتقام منك أنت فقط تاركاً مدير النشر ورئيس القسم ورئيس التحرير!

ظهر الارتباك قليلًا على ملامح الشاب قبل أن يجيب قائلًا:

- لا أعرف ... فربما يكون هناك انتقام منهم قد حدث أو سيحدث.

أراح السيد (تقي الدين) ظهره على الأرض وأغمض عينيه دون أن ينظر للشاب قائلًا:

- إن كُتِب لك العودة والالتقاء بمن أرسلوك فأبلغهم تحيات رجل قابع في الكهوف الرمادية منذ أعوام وأخبرهم بأنه لم ولن يغير موقفه.

* * * *

أحاط السيد (برهان) رأسه بيديه يفكر بعد قراءة ما أعدَّه (غيَّاث) من أوارق عن اختراعات وأبحاث السيد (تقي الدين) ، رشف رشفة من قدح القهوة أمامه والذي غفل عنه حتى صار باردًا ، ثم التفت إلى (صفوان) وهو يشير للأوراق قائلًا:

- كل سطر بالأوراق التي أعدَّها (غيَّاث) يؤكد بأن السيد (تقي الدين) هذا عقل جبَّار بلغ بعلمه وأبحاثه شأنًا عظيمًا مبهرًا ، وأنه بالفعل أحد أهمِّ وأعظم من أنجبتهم مملكة لاميتا.

مدَّ يده بالأوراق ليناولها لـ(صفوان) وهو يعتدل في مقعده طالبًا منه أن يقرأها ، تناول (صفوان) منه الأوراق وبدأ يقرأ وهم يرمقونه في صمت حتي إنتهي فغمغم قائلاً :

- أفكاره البحثية رائعة بحق.

نظر بعدها لـ(غيَّاث) سائلًا:

- وأنت يا (غيَّاث) .. ما رأيك ؟

أجابه (غيَّاث) قائلًا:

- السيد (تقي الدين) هذا كنزٌ بمعنى الكلمة، والكنوز دائمًا ما تحتاج للصبر الطويل والعمل الجهيد حتى يمكن الاستفادة بما تخبئه وتحويه من خيرات ، وأظن هذا تحديداً هو ما جعل (جسَّار) يفضل الاحتفاظ به وعدم قتله ودفن السر معه.

التفت (برهان) لـ(صفوان) سائلًا:

- وأنت يا (صفوان) .. ما رأيك؟

تغيرت ملامح وجه (صفوان) وهو يشير لهاتفه قائلًا:

- خبرٌ سيءٌ جاءني منذ قليل لم أشأ قطع حديثكم أو تشتيت انتباهكم به ، لكنه أمرٌ هام لا بد من اطلاعكم عليه.

أشار له (برهان) بأن يتحدث مباشرةً فأردف قائلًا:

- توفى الرجل الثاني ممن كانوا رجالنا لدى (جسَّار) مسمومًا بعد أسبوع من وفاة الأول في حادث سيارة .. وفاتهم واحدًا تلو الآخر في هذه الفترة القصيرة لهو أمر غريب ومثير للشك!

أومأ (برهان) برأسه وهو يشير لـ(غيَّاث) قائلًا:

- يبدو أن شكوك (غيَّاث) كانت في محلها تمامًا.

هزّ (صفوان) رأسه بالنفي في حسم قائلًا:

- (جسَّار) قد غادر مملكة لاميتا قبل شهر من وفاة الرجل الأول.. ولم يعد من هناك إلى الآن.

* * * *

(١٣)

لم أتخيل لحظة أو يخطر ببالي أن إصلاح جهاز الحاسب الخاص بابن المعلّم (صبحي) والذي قمت به حياءً ومجاملة لا أكثر سيكون كلمة السر في تغيُر أوضاعي، تناقل الأخبار في الأوساط الشعبية كان سريعًا للغاية وسَرَى كما تسري النار في الهشيم دون أي مجهود يذكر وليتطور الأمر مع الوقت فيتجاوز صيانة الحاسبات إلى إعداد الأبحاث ومواد العرض الدعائية والتلاعب بالصور، وجدت ساعات يومي بعد هذا التطور لم تعد كافية بل أحتاج فوقها لساعات إضافية للقيام بما هو مطلوب مني خاصةً بعد تطبيق كلمة المعلّم (صبحي) التي قالها لي وهو ينصحني بأن "الشغل شغل.. وكله بحسابه يا هندسة".

طرقات الباب كانت تمثل معي دومًا دقّات البداية، فتحت الباب لأجد أمامي رجل كبير وقور يعرفني بنفسه وبأنه جاري بالطابق الثاني، هبط الرجل لشقتي ومعه ابنته وهو يعتذر لإزعاجي ويطلب مني إن كان بالإمكان مساعدتها لأن البحث الذي تعمل به منذ فترة قد أصابه عطل وغدًا موعد تقديمه، دعوتهما للدخول أولًا ثم فتحت حاسب الفتاة بعد أن استمعت للمشكلة منها وأنهيت الأمر أثناء جلوسهما كمجاملة للرجل الذي كان يعتذر بأدب شديد كل دقيقتين تقريبًا على إزعاجي وإهدار وقتي ، وعند سؤالي عن المقابل أقسمت عليه بأني لن أتقاضى شيئًا مردفًا بحسم : "عيب إحنا جيران"، غادرني الرجل ممتنًا فودعته وقد تملكتني سعادة ونشوة كبيرة بكوني استطعت أن أقدم للرجل وابنته العون.

أهي دعوات والدتي التي تمطرني بها ليل نهار؟ أم أنني قد وجدت مصباح علاء الدين دون أن أدري؟! حادثت الفتاة زميلاتها ولينتقل الخبر في الحارة الشعبية وينساب بين البيوت بسهولة كنسمات الهواء التي تنساب من النوافذ بلا حساب ، الساكن الجديد المهندس الشاب الذي يقدم الخدمات الطلابية لأجد باب شقتي أصبح مفتوحًا معظم الوقت وقد تحولت الشقة ذاتها لشيء بدا أقرب "لعرضحالجي" يجلس تحت مظلته أمام المحكمة أو الشهر العقاري منها لشقة يسكنها مهندس حاسبات يدرس الآن بمنحة شديدة الأهمية.

عرفت النقود طريقها لجيوبي كأجر لتلك الخدمات فأزال هذا أي أثرً للضيق بنفسي خاصةً وقد كنا في غمرة موسم دراسي، بدأت أمور حياتي في التحسن فتركت ركوب حافلات النقل العام المكدسة وبدأت باستقلال سيارات الميكروباص كبديل أو سيارات الأجرة الخاصة عند العجلة، اختمرت برأسي فكرتين مع تحسن أوضاعي المالية ، الأولى هي العودة لقريتي لفك رهن سوار أمي الذي أخبرتني أختي عن رهنه وإعادة السوار لها، والثانية هي إنجاز الوعد الذي قطعته لأختي بشراء هدية ذهبية لأمي من أول راتب أتقاضاه.

قررت مع ضيق الوقت وحاجتي للمذاكرة الاستعانة ببعض الطلبة من أبناء الجيران مقابل أجر أدفعه لهم ، الفكرة راقت للجميع فالأجر كان يساعدهم ويعلي من شأنهم أمام أهلهم كبديل للتسكع مع رفقائهم والأهم أنه كان يوفر لي أنا الوقت فأصبحت أجلس للدراسة وسطهم في هدوء وهم يقومون بالعمل المطلوب الذي أكلفهم به وأقوم لمعاونتهم عند حدوث مشاكل أو مواجهتهم لصعاب لا يعرفون طريقة التعامل معها فأُعالج الأمر في دقائق ثم أعود بعدها للدراسة من جديد.

* * * *

هاتفت (هاني) باكرًا قبل ذهابي للعمل وأخبرته عن المكالمة المفاجأة التي جاءتني ليلًا والتي لم أخبر بها أحدًا حتى الآن إلاَّ هو ورجوته ألا يخبر أحدًا هو الآخر ، تملكه الذهول حين سمع بأن برنامج المسابقات الشهير "عقول ذهبية" قد اتصل بي لأكون ضمن قوائم المتسابقين لموسمه الجديد ، أخبرته بأنني لا أستطيع العودة للبيت للدراسة على جهاز الحاسب بغرفة أبي وأنني بحاجة لاستعارة حاسبه المحمول هذه الفترة كجميل لن أنساه له ما حييت، وأن ذهابي لبيت والدي سيكون لنقل كل المواد الثقافية والموسوعات التي كنت مولع بجمعها وادخارها على الحاسب هناك لحاسبه المحمول لكن ليس لبيعها على أقراص مدمجة هذه المرّة بل لدراستها والاستعداد للمسابقة ، أجابني بأن لا مشكلة لديه لكن عليَّ فقط تذكره عندما يعلو صيتي وأصبح من عِلية القوم والمشاهير ممن تظهر صورهم على شاشات التلفاز.

أنهت (فادية) إجازتها المرضية وعادت إلينا بعد طول غياب، أسبوع مرَّ على عودتها بدأت أدرك خلاله التغير الذي حدث ، فالسيدة (فادية) العائدة من إجازة الزفاف لا أشعر أبدًا بأنها هي ذاتها الآنسة (فادية) التي زاملتها لأكثر من ثلاثة أعوام من عمري ، و(فادية) التي كانت تتحدث وسطنا بكل أريحية وتلقائية وتشاركنا بما يطرأ في عقلها أو قلبها من خواطر وأفكار مباشرةً دون خوف من إساءة الفهم كأخت لنا تثق بنا.. أراها الآن (فادية) أخرى مختلفة تمامًا عن تلك التي كنا نعرفها من قبل وقد أصبحت لا تنطق حرفًا واحدًا قبل أن تفكر كثيرًا كيف سيفهم المحيطين بها كل كلمة ، بل كل حرف يخرج من لسانها.

فتش عن الأنثى ، هذا ما وصلت إليه أفكاري خلال الأيام الماضية وأنا أبحث عن اللمسة الحانية التي سأطرق بها قلب (إنجي) كما نصحني (هاني) ، وجود أنثى أخرى في الأمر للمساعدة كفيل بأن يقفز بي عشرات الخطوات إلى الأمام لا خطوة واحدة ومن عساها يمكن أن تلعب هذا الدور أفضل من (فادية) ، انتظرت حتى فرغت الغرفة إلا منّا أنا وهي وهمست لها قائلًا:

- أحتاج لدقائق قليلة من وقتك إن لم يكن لديكِ مانع .. أود الحديث معكِ بأمر خاص.

قطَّبت حاجبيها وهي تنظر إليَّ سائلة:

- منذ متى وأنت تستأذن في الحديث معي يا (زياد)؟!

- أشعر بأنكِ قد تغيرتِ كثيرًا بعد الزواج فقررت الاستئذان خشية أن أسبب لكِ حرجًا أو حياءً بطلبي للحديث معكِ بأمر خاص.

- من ناحية أني قد تغيرت فقد حدث ، لكن هناك أشخاص أنت أحدهم لا يسري عليهم هذا التغيير.

- كم أنتِ رائعة يا (فادية).. تثبتين لي دائمًا بأنكِ الأخت التي لم تنجبها لي أمي.

- دعك من هذا الآن واخبرني ماذا تريد قبل أن يدخل إلينا أحدهم.

- ما رأيك بأن نتحدث بالشُرفة أفضل؟

تحركنا سويًا لنقف بالشُرفة، نظرت لي متفحصةً قبل أن تردف بفضول :

- هيا تحدث.. ما الموضوع والأمر الخاص الذي تريد الحديث معي به؟

- لا أعرف كيف أبدأ.. لكن بصراحة كنت أريد سؤالك عن (إنجي).

- لم أفهم ! عن أي شيء تحديدًا بخصوص (إنجي) تريد السؤال؟

- يبدو أنني قد سقطت في حب الفتاة يا (فادية) وأريد أن أعرف إن كانت مرتبطة بأحدٍ ما؟

ابتسامة لم أفهمها ارتسمت على وجه (فادية) وهي تضرب كفًا بكفٍ قائلة:

- أنت يا (زياد)!! وأين المهم ألاَّ تكون مصرية؟ وأين الحب هو نوع من الغباء البشري؟!!

- ليس وقت هذا الآن .. كنت مخطئًا ولديّ شجاعة الاعتراف بذلك.

- لكن يا (زياد)...

- لكن ماذا؟ تحدثي فأنا أعرف أن المصائب كلها لا تأتي إلاَّ وراء كلمة "لكن" هذه!

- أردت قول أنها مفاجأة لي.

- أحفظك يا (فادية) وأشعر بأن "لكن" التي قلتها هذه تخفي وراءها مصيبة لا أعرفها فدعك من قصة المفاجأة هذه واخبريني بما كنتِ تنوين قوله ، فنحن لن نعرف بعضنا اليوم.

- الحقيقة يا (زياد) على قدر سعادتي بكونك قد وجدت أخيرًا من تحب، وسعادتي الأكثر بالفتاة الرائعة التي اخترتها ، لكن يمكنك القول باختصار بأني لا أرى الطريق أمامك ممهدًا...

دخل (عادل) علينا في تلك اللحظة وهو يسأل (فادية) قائلًا:

- هل خدمة إعداد المشروبات للزملاء الأعزاء لا زالت قائمة؟

نظرت (فادية) إليه وكأنها تفكر، ثم أجابت مبتسمة:

- ليس كل الزملاء بالطبع، لكن بما أنك قد قلت "الزملاء الأعزاء" فلا مانع لديّ.

- هيا أريد كوب نسكافيه من يدك بعد أن كدت أنسى مذاقه طوال فترة غيابك، ودعينا نرى هل ضعفت مهارتك بعد الزواج أم تطورت ؟

غادرت الغرفة بعد دخول باقي الزملاء وكلي سخط على (عادل) الذي اختار أسوأ توقيت ممكن للدخول ليقطع حديثنا. توقف عقلي وفكري في نقطة واحدة ظللت أفكر فيها حتى موعد الانصراف دون أن تتاح لي فرصة أخرى لأعرف ماذا كانت (فادية) تريد أن تقول بعد "لكن" .... ولماذا لا ترى الطريق أمامي ممهدًا؟

* * * *

(١٤)

أيام كاملة قضاها (غيَّاث) غارقًا في متابعة من أرسلهم لجمع المعلومات عن السيد (تقي) ، لم تكفه المعلومات التي جمعها بنفسه وطمع بالمزيد ليكتشف مع الوقت حماقة من أرسلهم وكيف أثاروا رعب وفزع كل من عرف السيد (تقي) أو جاوره أو ألقى عليه السلام يومًا. ارتفع رنين الهاتف بمكالمة من (صفوان) يخبره بأن سهرةً كبيرةً ستجمعهم الليلة بعد منتصف الليل بالسيد (تقي) ذاته ، وأن هذا ما قرره (برهان) بعد أن استمع لِمَ رواه الشاب العائد من مرافقة السيد (تقي) ، وأنه قد حان وقت اللقاء بالرجل وحدَّد الليلة لتكون موعد اللقاء بالعالم الجليل غزير العلم وجهًا لوجه.

* * * *

أرخى السيد (تقي الدين) رأسه تاركًا نسمات الليل المنسابة من زجاج السيارة تداعبه ، لا يذكر متى كان آخر لقاء له بتلك النسمات بعد أعوام كاملة مضت عليه وسط صخور وشقوق الكهوف الرمادية وأنظمة التهوية المعقدة بها . ما المجهول الغامض الذي ينتظره بعد أن حمله الرجال وسط صمت وظلام الليل مع آخرين ليجلسوه بتلك السيارة المنطلقة بهم؟ وإلى أين هم ذاهبون به؟ ولماذا تذكروه الآن بعد أعوام من النسيان؟! قالها ولن يمل من تكرارها بأن لا تنازلات. أصوات أبواق السيارات بدا له كمعزوفة يعشقها ولا يذكر متي كانت آخر مرة سمعها ، نسمات الهواء المندفعة من إحدى نوافذ السيارة المفتوحة كانت تداعب وجهه وثيابه. خفضت السيارة سرعتها حتى

توقفت ، سحبه إثنان من الرجال لأحد المباني ، شعر بهذا مع توقف نسمات الهواء وتلك الروائح المتنوعة التي التقطها أنفه والتي يعرف بعضها ولا يعرف البعض الآخر لكن جميعها كانت روائح للثراء يعرف بعضها ما بين خمور وعطور وفواكه ، استقر به المقام أخيرًا بإحدى الغرف فتم فك قيوده ونزع العصابة عن عينيه واللاصقة عن فمه ، الغرفة كانت شديدة الظلام بلا بصيص من ضوء ، ثوان قليلة أعقبها إلقاء رجل ثاني بالغرفة ثم ثالث.

أراح (تقي الدين) ظهره مستندًا إلى الحائط وهو يتابع التنفس بعمق مفكرًا فيما عساه ينتظره هنا ، لم يحاول الحديث مع أحد ممن أحضروهم معه مكتفيًا بالصمت إلي أن بدأت عيناه تعتاد الظلام ، مرَّت الدقائق بطيئة في صمت قطعها صوت صراخ رهيب لأحدهم يبكي في ذلٍ ويتوسل بكل ما يعرفه من كلمات الرجاء بأن يتوقفوا ، نهض السيد (تقي الدين) فقطع بأسنانه قطع قماش من ملابسه سدَّ بها أذنيه ثم بدأ يقوم ببعض الحركات الرياضية البسيطة والرجلان الآخران في الغرفة ينظران إليه بصمتٍ مندهشين مما يفعله خاصةً حين بدأ يشدو بأغنية شهيرة وكأنه لا يبالي بما يجري حوله.

بتلك الغرفة الفخمة كان كلٌ من (صفوان) و(غيَّاث) يشاهدان برفقة السيد (برهان) ما تعكسه لهم كاميرات المراقبة لما يدور بغرفة (تقي الدين)، قام شاب ليغير أصوات التعذيب ويضع أخرى جديدة لينطلق صوت صرخات الألم والبكاء لشخص آخر مع ضحكات ساخرة واستغاثات كلها ذل ولهفة تطلب التوقف .

هتف (غيَّاث) قائلًا:

- أرى بأن لا داعي لأن نطيل أكثر فالرجل الذي أمامنا الآن ذكي ويبدو أنه قد فهم أصول اللعبة جيدًا بدليل أنه سدَّ أذنيه ويغني وكأنه يرسل رسالة لنا.

تمتم (صفوان) سائلًا:

- أترى أن نحضره لنبدأ اللقاء الآن؟

هزَّ (برهان) رأسه بالنفي قائلًا:

- دعه ينتظر .. فالانتظار الطويل والغموض والتفكير فيما ينتظره نوع من العذاب. لنتناول نحن عشاءً شهيًا ونحتسي كؤُوْس النشوة والصفاء لنكون في الحالة المزاجية اللائقة لمثل هذا اللقاء.

دخل الرجال بأصناف الطعام والشراب ليبدأ (صفوان) و(غيَّاث) و(برهان) في تناوله وهم يتابعون ما تنقله الكاميرات لهم والسيد (تقي) ما زال يشدو بأغنية وهو يمارس التمارين الخفيفة والرجلان المرافقان أحدهما يبكي والآخر شارد في ذهول، رفع (برهان) كأسًا أمامه رشف منه رشفة ثم أعاده لموضعه وهو يتجشأ قائلًا:

- هيا ابدأوا بتنظيف الحوض من الطحالب من أجل إراحة السمكة.

فُتِحت الأضواء الشديدة بالغرفة ، دخل بعدها رجل غليظ الملامح فأشار إلى أحد الرجلين سائلًا:

- هل راجعت نفسك وستنفذ ما طلبناه أم ما زلت على رفضك؟

صمت الرجل لكن صمته لم يطل كثيراً بعد أنهته رصاصة اخترقت منتصف جبهته.

دخل بعدها رجال آخرون لحمل الجثة وتنظيف آثار الدماء ورش العطور ليعود للمكان نظافته ورائحته الجميلة.

كان الثلاثة يراقبون الغرفة بفضول ليروا أثر وانعكاس ما حدث على السيد (تقي) والذي توقف عن أداء التمارين وأسند ظهره للحائط في صمت بينما انفجر الرجل الآخر في موجة بكاء ونحيب بلا توقف، رفع (صفوان) بصره لـ(برهان) سائلًا:

- هل ننظف الطحلب الآخر أم نكتفي بهذا؟

أجابه (برهان) بابتسامة قائلًا:

- ليس الآن.. أمهله بعض الوقت ليراجع نفسه ويصغي لصوت الحكمة بعقله حتى نُنهي نحن عشاءنا فنحن لم نُحضر الطحلب الآخر للنزهة ، سيؤدي دوره هو الآخر لنترك الحوض نظيفًا للسمكة.

تكرر سيناريو مشابه لما حدث مع الرجل الأول باستثناء أنه لم يصمت بل حاول الاشتباك معهم بحالته المزرية فكانت الفرصة لإضافة مشهد هزلي جديد بقيامهم بضربه بعنف وشدة قبل أن يُنهي الرصاص المشهد ويأتي رجال النظافة لتنظيف المكان وحمل الجثة ورش العطور ليعود للمكان جماله ورائحته المنعشة.

افترش السيد (تقي الدين) الأرض نائمًا بعد أن وضع خُفيه فوق بعضهما تحت رأسه كوسادة وأغمض عينيه ليذهب في النوم متجاهلًا الضوء الشديد بالمكان ، لم يكن نائمًا فقد كان متأكدًا بأنه مراقب الآن بطريقة ما وأراد أن يرسل لهم رسالة بأنه ثابت الأعصاب تمامًا، وأن كل ما فعلوه لن يخيفه أو يهز ثباته.

أنهى كلٌ من (صفوان) و(غيَّاث) عشاءهما برفقة السيد (برهان) وأعقباه بكؤُوْس النشوة والصفاء وهم يتابعون برود السيد (تقي) وهدوء أعصابه ويتساءلون كيف له أن يجد الأمان للنوم! انتقلت الأمور من التفكير إلى المشاهدة بعد أن أعطى السيد (صفوان) بيده لأحدهم شارة البدء لينطلق إلى الغرفة فيفتح الباب بقوة ، أفاق السيد (تقي الدين) على ضوضاء دخول الرجال للغرفة ودلو الماء البارد الذي سكبه أحدهم فوقه ليغرقه صائحًا:

- أفق من نومك ... فلدينا حديث طويل معك.

خلع السيد (تقي الدين) ملابسه واعتصرها ثم نفضها بقوة في الهواء قبل أن يرتديها من جديد ويجلس على الكرسي الذي أحضره له أحدهم، دقائق مرّت لم يحدث فيها أي شيء وعقل السيد (تقي) يفكر ما التالي ، انطلق صوت هادئ أخيرًا من سماعات الجدار ليقطع الصمت قائلًا:

- مرحبًا بك سيد (تقي الدين) .. أود أن أبدأ أولًا بالاعتذار عما فعله هذا الغبي.

لم يجب السيد (تقي الدين) بأكثر من إيماءة صامتة برأسه. كان (برهان) يشاهد ويسمع ولا يتحدث ، بل يكتب على ورقة ما يريد قوله ويناولها لـ(صفوان) أو (غيَّاث) وكأنه لم يشأ أن يظهر في الحوار ولو بصوته فقط ، فكتب لـ(صفوان) ليقول:

- صديقك القديم (جسَّار) قد تركك ورحل .. فهل أحببت الكهوف الرمادية لدرجة ترغب معها في إكمال الباقي من عمرك بها ؟ وهل سنرهق رجال النظافة المساكين ليدخلوا للغرفة من جديد

لتنظيف المكان خلفك ورش العطور ، أم ستكون عاقلاً وتمنحنا الفرصة لنبدأ معاً صفحة جديدة ؟

الصمت ولا شيء غيره كان إجابة السيد (تقي) فلم يتحدث أو تخرج كلمة من فمه مفضلًا البقاء على صمته وكأنه لم يسمعهم.

- لم نسمع صوتك.. هل تريد أن تشرب ماء؟ احضر بعض الماء البارد يا بني للسيد (تقي) فورًا.

وثب أحد الرجال في الحال ليعود بإبريق ماء مثلج وكوب زجاجي نظيف ، تناول السيد (تقي الدين) الإبريق من الرجل وصب لنفسه بعض الماء وشرب.

تمتم (صفوان) بهدوء قائلًا:

- ندرك جيدًا قيمتك كعالم جليل ، وقد همس أحد الأصدقاء لنا بعد رحيل (جسَّار) بأن حبسك لن يفيدنا وأن التعاون بيننا هو الأفضل لنا ولك بدلاً من قضاء الباقي من عمرك بالكهوف الرمادية ..فهل لديك استعداد للتعاون لنبدأ عهدًا جديدًا؟

- ولا شيء بالطبع دون مقابل.

ارتسمت ابتسامات على وجوههم مع الجملة التي نطق بها السيد (تقي) فتمتم (صفوان) قائلًا:

- سنعطيك من الأموال ما تطلب و ستسترد حريتك لتعود للحياة وسط أهلك وأسرتك ، وسننشأ لك معملًا يفوق معملك بوحدة أبحاث علوم الغد والمستقبل ، لكننا لن نستطيع إعادتك بصورتك القديمة كالسيد (تقي الدين) العالم الفذّ.

قاطعه (غيَّاث) بحسمٍ قائلًا:

- وإن أردت أن تكمل حياتك بنفس اسمك ووصفك كعالم جليل له اسمه وسمعته التي يعرفه الجميع بها فلن نعدم الحيل لفعل ذلك، وسنطلب منك فقط أن تمهلنا بعض الوقت لنجد الطريقة الأفضل لفعل ذلك.

- دعك من ماذا ستفعلون فأنا أعرف قدراتكم التي بلا حدود والسؤال الصحيح هو لماذا ستفعلون؟ وما الثمن؟

- لاشئ أكثر من بعض التعاون البسيط معنا.

- ليس الشوق لي أو الشعور بالذنب تجاهي هو سبب عرضكم ، لذا لنبدأ الحوار بإخباري .. ماذا تريدون مني بالضبط؟

- نريد أن نضيف جناحًا جديدًا لصفوفنا ، جناح من رجال العلم.

- وفي أي مجال سيكون هذا التعاون البسيط بيننا بالضبط؟

- علمك وأبحاثك بالطبع .. وهل هناك غيره؟!

- عرضكم مرفوض.

صفعة قوية هوت على وجه السيد (تقي الدين) من أحد الرجال الواقفين بجواره وهو يهتف فيه صائحًا:

- تحدث جيدًا وبأدب وإلا لقنتك درسًا لن تنساه ، تأدَّب وأعرف كيف تتحدث مع الكبار.

صاح (صفوان) بغضب في الرجل قائلًا:

- من أمرك بفعل هذا أيها الغبي؟! نعتذر لك ثانيةً يا سيد (تقي) لما بدر من هذا الغبي .. اعذره فهو جاهل لا يعرف مع من يتحدث.

أردف (غيَّاث) مضيفًا:

- نفهم جيدًا مشاعرك السلبية تجاه ما حدث معك في عهد (جسَّار) لكن الأمور قد تغيرت كثيرًا ، وأؤكد لك بما لا يدع مجالًا للشك بأن الصورة الآن قد صارت مختلفة تمامًا عن كل ما برأسك.

- عرضكم مرفوض.. وإذا كانت الأمور جيدة كما قلتم فأظنني أملك حق الرفض.

خرج السيد (برهان) عن صمته فقال:

- (جسَّار) رحل ولم يعد هناك سبب لخوفك ، وما حدث معك سابقًا خطأ كبير لن يتكرر ثانية ، فلنفتح صفحة جديدة .

- حين يموت زعيم قطيع الكلاب ... فلن يخلفه سوى كلب آخر.

صمت ملأ الغرفة مع تلك الكلمة التي جاءت كصفعة هوت على وجوههم وفرضت معها ذهولًا وصمتًا على الجميع، قبل أن يغمغم السيد (برهان) في غيظٍ قائلًا:

- بالطبع يا سيد (تقي) تملك حق الرفض وعدم القبول، ما كنت أفكر فيه فقط هو: ألم تفكر كيف ستكون غضبة من أطلقت أنت عليهم قطيع الكلاب؟ أظنك تعلم جيدًا ولا تجهل كيف تكون عضَّات الكلاب مؤلمة .. خاصةً إذا كانت غاضبة.

- لن ترهبني تهديداتكم لأنها في النهاية حياة واحدة أحب أن أحياها مرفوع الرأس، وإن كنت أنا ثالث أو رابع قتلاكم اليوم الذين لا أعرف عددهم فأنتم من تدفعون أجور رجال النظافة وليس أنا .. عرضكم مرفوض يا سادة ، أرفض التعاون وافعلوا ما شئتم.

انطلقت قهقهات (غيَّاث) عالية بصورة بدت مستفزة وهو يقول:

- أنت رائع وعظيم بالفعل يا سيد (تقي) ، وما تقوله لا يقل روعة عنك فالكلمات الرائعة حقًا لا تخرج سوى من الأشخاص الرائعين أمثالك ، لكنني للأسف لديّ عيب صغير يلازمني منذ الصغر ولم أستطع التخلص منه حتى اليوم بالشك الدائم وعدم الثقة في كل ما أسمع .. قلبي الطيب تذكر ابنتك الآنسة (رحيق) والتي أظنها قد سئمت حياة الوحدة في الخارج بدونك وأفكر لها في رفقة جيدة بأحد السجون تُنهي وحدتها.

صاح السيد (تقي) بغضب لم يستطع إخفاءه قائلًا:

- هل ستدخلون ابنتي هي الأخري للكهوف الرمادية؟!

قهقه (غيَّاث) قبل أن يجيبه قائلًا:

- أخبرناك بأننا نبدأ عهدًا جديدًا، والكهوف الرمادية هي سجون عصابات لا يدخلها سوى ذوي الشأن العظيم مثلك ولسنا بحاجة للتكدس داخلها ، لذا فلا حاجة لنا بأن نخطف ابنتك لتعيش بأحد الكهوف الرمادية.

- لم أفهمك؟

- السجون الوردية هي الأنسب لها ، قضية بغاءٍ صغيرة سيحيكها رجالنا لابنتك ستُنهي وحدتها تمامًا لتمكث بعنبر الآداب بأحد السجون الوردية للنساء بمملكة لاميتا ولتجد هناك مِنَ البغايا اللطيفات مَنْ يؤنسنها وينهون وحدتها ، ولا تقلق فستكون نزيلة سجون مملكة لاميتا هذه المرة وليس كهوفنا الرمادية ، وسيكون الأمر عادلًا تمامًا بحيث يمكنها أن تكلف من الحقوقيين ورجال القانون من يساعدها ويحاول إخراجها أو تخفيف الحكم عنها، كما أنها ستدخل السجون الوردية غالبًا

بحكم خفيف للذكرى ولن تقضي عمرها بأكمله هناك حتى لا تتهمنا بالظلم وأننا أهدرنا عمر ابنتك كما أهدرنا عمرك ، المشكلة الوحيدة في الأمر ستكون في النظرة لها بعد خروجها كبغي ، وهذا ما لن تستطيع تغييره في قادم عمرها.

- أسلوب رخيص حقير منكم للضغط عليّ وكسر إرادتي.

- سنكون معك صبورين لأقصي حد ولن نتعجل الأمور بل سنتركك لفترة تفكر وتقرر ما تراه مناسبًا ، وسأزورك بعد أيام لأطمئن عليك وأعرف هل كان شكّي اللعين في محله بخصوص ثبات رغبتك في الحياة مرفوع الرأس ، أم ستخفضها قليلاً لتتجاوز الأسطح الصلبة ولا تصطدام بها ويمكنك بعدها إعادة رفع رأسك من جديد؟

* * * *

(١٥)

سمعت من قبل عن أحلام اليقظة أمّا كوابيس اليقظة فلم يحدثني أحد عنها بل كان موعدي معها وأنا أصغي لكلمات (فادية) التي حاولت إخفائها عني ثم استجابت وروتها لي أخيرًا أمام إصراري الذي لم ينقطع ، كلماتها هبطت عليَّ ككابوس مخيف أعيشه ولا أرفع رأسي منه في يقظتي قبل نومي ، كابوس كان السكين الحادّة التي ذبحت أحلامي الجميلة في الغد.

- مجتمع (إنجي) يختلف عنا كثيرًا ، وزيارتي لها في بيتها ورؤية أسرتها عن قرب جعل الصورة التي لديّ غير تلك التي لديك تمامًا.. تخيلي عما يريده والد (إنجي) في زوج ابنته قد يحبطك كثيرًا ، أظنه لن يشدّ على يدك وهو يقول لمن حوله بفخرٍ اخترناه لأننا نشتري الرجال ، كما لن يقبل بانتقال ابنته من سكنها معه بالفيلا الجميلة بالحي الراقي الذي يعيشون به لتبدأ حياتها معك في شقة "إيجار جديد" كشابٍ مكافح يخطو خطواته الأولى على طريق الحياة .. استيقظ من نومك ياصديقي وأفق من أحلامك فالأحلام تنتهي باليقظة من النوم. ما رأيك بأن تجرِّب التجوال على قدميك قليلًا حول بيتهم فقد يقرِّب هذا إلى ذهنك قليلًا ما أردت وصفه لك.

الأمور كانت محسومة تمامًا لديّ فـ(إنجي) هي الأميرة التي اختارها قلبي وهذا وحده يكفي لعدم التفكير بأي شيءٍ آخر. كلمات (فادية) المحبطة جعلت مني شخصين مختلفين تمامًا يتشاركان العيش في ذات الجسد، (زياد) المحلّق بأجنحة السعادة والذي يعيش اللحظة

بلحظتها ولا يترك الفرصة لثانية واحدة تضيع منه أو تُسرق من عمره دون أن يكون إلى جوار حبيبته.. هكذا كنت أعرفني صباحًا وقت العمل بجوار (إنجي) أو (زياد) الصباحي، أمّا (زياد) المسائي ساكن ضريح الهموم والأحزان فكان يسكنني بمجرد مغادرتي العمل والبعد عن (إنجي)، كائن حزين مثقل بالهموم.. أوشكت الجنون بينهم ، فمن يطلق الضحكات العالية الصافية من القلب صباحًا هو ذاته من يبتلع صمتًا بطعم الأنين وسط وحدته وانفراده بأحزانه ليلًا!

حملت همومي التي أثقلتني وذهبت لصديق عمري (هاني) أبحث لديه عن مخرج، أنصت لي جيدًا كعادته بإصغاء شديد وأنا أصف حالي بعد أن كنت الطائر الحرَّ حيث السماء فضائي والهواء ردائي، وبعد أن وجدت ما ظننته شجرة الحلم وطموح المنتهى فإذا بي أجدها ليست سوى عُشٍّ لأحد الصقور الضارية التي تؤذي صغار الطيور ، ابتسم (هاني) لي قائلًا:

فتمتّع بالصبح ما دمت فيه ..... لا تخف أن يزول حتى يزولا
وإذا ما أظلّ رأسك همّ ..... قصّر البحث فيه كيلا يطولا
إنّ شرّ الجناة في الأرض نفس ..... تتوقّى، قبل الرّحيل الرّحيلا
وترى الشّوك في الورود وتعمى ..... أن ترى فوقها النّدى إكليلا

عش اللحظة يا صديقي كما هي ودع الغد للغد، ومن يدري فبين عشية وضحاها يغير الله الدنيا من حال إلى حال ، فلا تكتئب هكذا ولا تدع أوهام الخوف من الغد تغرقك وتدمر سعادتك.

سألني بعدها :

- أليس غريبًا أن تختار حبيبتك أغنية "لسه فاكر قلبي يديلك أمان" من بين أغاني سيدة الغناء العربي كلها لتكون أغنيتها المفضلة؟! أخشى أن تكون خارجة لتوها من محنة عاطفية.

أجبته بحسمٍ زائفٍ وقد أربكني ما قاله بأن الأمور لا تجري دومًا هكذا وبأنني كمثال أمامه أحببت الأغنية ولا أَملّ سماعها لمجرد أن حبيبتي تحبها دون ربط ذلك بقصة الأغنية أو معاني كلماتها.

عدت للمنزل وكأن كلمات (هاني) "روشتة" دواء من طبيب ماهر وضع يده على موضع السقم ، سأتمتع بالصبح وسأخوض معركتي لغزو قلبها للنهاية ملقيًا بالمنطق وكل حسابات العقل خلف ظهري، فمرآة حبي لا تحمل سوى صورتها . أول ما خطر ببالي لخطوتي القادمة هو أعياد الميلاد بما قد تحويه من فرصٍ ، ومن يدري فقد يحالفني الحظ لفتح الأبواب المغلقة وخطف همسة حب سحرية تغني عن قول الكثير من الكلمات ، لا بد من معرفة تاريـخ ميلادها لأجعل من عيدِ مولدها القادم يومًا لن تنساه ، أحد زملاء شئون العاملين تكفَّل بذلك وسرَّب لي عنوانها المدون في ملفها كخدمةٍ إضافية ليبرهن لي على عمق صداقتنا.

فتحت الحاسب المحمول أُعِدُّ نفسي للمسابقة التي اقترب موعدها وسط وحدتي بغرفتي والأفكار تتلاعب برأسي، اخترت دراسة أشهر المعارك والغزوات في التاريـخ وبدأت أجوب العصور من معركة لمعركة ومن قائد لآخر يؤنسني صوت سيدة الغناء العربي وهي تشدو بـ"لسه فاكر" ، قفز لعقلي الهاجس الشرير بملاحظة (هاني) حول هذه الأغنية لكنني تجاهلته وركلته بعيدًا عني تكفيني كوابيس (فادية).

هل سأظل هكذا صامتًا مكتفيًا بحوارات العمل التقليدية وسط الزملاء حتى عيد ميلادها بعد شهور؟! لا بد أن أخطو الخطوة الأولى، إخبارها مباشرةً ووجهًا لوجهٍ بمشاعري وأنها من اختارها قلبي من بين كل نساء الأرض ليحمل لها كل هذا الحب هي شجاعة لا أمتلكها وعلاقتي بها لا تتجاوز مشاهدتها في الأعمال السينمائية أو القراءة عنها في الروايات لا أكثر ، كلمات (هاني) المشجعة ظلت تطن بأذني "الخطوة الأولى فقط هي ما ينقصك.. تشجع وافعلها وستنطلق بعدها يا صديقي"، فتحت أحد الأدراج لأخرج تلك المذكرة الجميلة وأنا أنظر لاسمي المكتوب في الصفحة الأولى حين تشجعت يوم شرائها وطلبت منها أن تدونه لي بيدها وبخطها الجميل كتذكار ، الورود الجميلة الموجودة بصفحة البداية ذكرتني بحب (إنجي) للورود والذي ظهر أمامنا في مواقف كثيرة ، الورود وألوانها لغة عالمية يفهمها الجميع فلكل لون من الورود معناه ومناسبته التي يقدم بها، وما لا يجهله أصغر مراهق بأن الورود الحمراء هي رمز الحب و الرومانسية ، جالت بذاكرتي مشاهد من بعض الروايات والأفلام كان تقديم وردة حمراء للحبيبة كفيلًا بإيصال المعنى كاملًا بلا كلمات ، الأمر يحتاج لقدحٍ آخر من القهوة.

أوقدت النار على القهوة وقد بدأت ترتسم بعقلي فكرة شبه مجنونة، سأقنع (كمال) بأن يحملني بدراجته البخارية فجرًا للحي الراقي الذي تسكنه (إنجي) ولينطلق هو بعدها لحال سبيله، سأشتري في طريقنا لهناك وردتين جميلتين متشابهتين تمامًا ، سأضع الأولى أسفل مسَّاحة زجاج سيارتها والأخرى سأحملها معي لتجدها على مكتبي في

العمل صباحًا، أفقت من شرودي على صوت فوران القهوة وقد فعلتها وأغرقت الموقد.

* * * *

قفز (ساجد) في أول سيارة عائدة لقريته حاملًا معه ما ادخره من نقود طوال الفترة الماضية ، سعادته كانت لا توصف بمغادرة مرحلة كان مصدر دخله هو طلب النقود من والده لمرحلة أخرى امتلأت جيوبه فيها بنقود من كسب يده ، سيعيد لأمه سوارها المرهون اليوم ويفي بوعده لأخته بشراء هدية ذهبية لأمه فمعه اليوم من النقود ما يكفي لذلك .

الاستقبال الباهت كان مفاجأة أذهلته ، عرف بعدها أن والدته قد سقطت منهم فجأة ، كانت متعبة وتتحامل على نفسها ولم تخبر أيًّا منهم بألمها مكتفية بأكواب النعناع والينسون الساخنة وظلت تخفي عنهم تعبها دون أن يعلم أحد حتى جاءت اللحظة التي سقطت فيها وسطهم وحين حملوها إلى الطبيب أخبرهم بخطورة الحالة وتأخرهم في القدوم كثيرًا وشدَّد على ضرورة السفر بها للعاصمة لعرضها على أحد الأساتذة الكبار هناك وإجراء الفحوصات والتحاليل المطلوبة، وأن الأمر سيتطلب غالبًا جراحة. تقلَّصت ملامح (ساجد) وهو يصغي للتفاصيل من والده، أخرج مظروف المال الذي معه وناوله لوالده قائلًا:

- ادخرت هذا المبلغ وأظنه الوقت المناسب له.

طوال طريق العودة و(ساجد) مهموم غارق في التفكير بتلك المصيبة التي هوت فوق رؤوسهم ، لن يستطيع الاعتذار عن المنحة ليكون معهم وبجوارهم في رحلة العلاج بين الأطباء والمستشفيات بعد

أن وقَّع ذلك التعهد على نفسه في بداية المنحة بإكمالها وعدم الاعتذار عنها ، وأنه في حالة الاعتذار أو تجاوز نسبة الغياب المسموح بها فسيقوم بسداد قيمة المنحة كاملة. الزيارة التي كان يظنها ستحمل كل السعادة لهم حملت له كل التعاسة وقلبت حساباته فمن أين لهم بالأموال الكافية لتغطية تلك الرحلة العلاجية؟!

* * * *

لم يتطلب الأمر مجهودًا خارقًا لإقناع (كمال) ، وافق بمجرد أن أخبرته بأني سأملأ خزان دراجته البخارية بالوقود في المقابل ، أوصلني (كمال) وتركني في المكان الذي طلبته ، كانت المرَّة الأولى التي تطأ فيها قدمي مثل تلك الأحياء فلم أصادق أو أزامل من يسكن في مثلها من قبل وعلاقتي بها لا تتجاوز رؤية الإعلانات الرائعة في التلفاز والتي تدعوك لحجز وحدتك السكنية بها. التوقيت كان رائعًا ، ضوء هادئ بلا حرارة ونسمات لطيفة تداعب وجهي وثيابي، بدأت أفهم أثناء سيري الصورة التي أرادت (فادية) إيصالها لي فلن أشاهد في الحارة الشعبية التي أسكن بها مثل تلك السيدة التي تغادر سيارتها مترنحة في هذا الوقت المبكر وهي تغلق بقدمها باب سيارتها التي لا شك أن سعرها سيفوق مرتبي أنا وكل أفراد عائلتي بل ومعاشنا حتى نفارق الحياة ، ولن أشاهد عند بيت أبي في الحي الذي تربيت به ذلك الكلب الضخم غريب الشكل واللون والذي يسير برفقة صاحبه العجوز وأظنه غالبًا أحد تلك الكلاب التي تستقل الطائرات وتمتلك جواز سفر وجدول زيارات دورية ومتابعات لدى الطبيب ، الكلب الغبي ترك كل ما بالشارع وتوقف ببصره عليَّ ينبح وهو يرمقني بتحفز وكأنه أدرك بأني غريب عن الحي ، دقائق قليلة تطورت الأمور بعدها لما هو أسوأ بعد أن انفلت الكلب من صاحبه

وانطلق نحوي بسرعته في مفاجأة أربكت كل حساباتي، لم أعرف ما ينبغي عليَّ الآن فعله فكلاب الحارة لم تهاجمني يومًا، بل لعلها كانت هي من تخشى مهاجمتي لها ، ماذا أفعل؟!.. هل أركض بكل سرعتي للهرب؟ لن يفلح هذا مع فارق السرعات بيننا وسيلحق بي بعد ثوانٍ على الأكثر، هل أصرخ وأصيح طالبًا العون؟ اقتراح لا يقل سذاجة عن أخيه فسيمزقني بأسنانه قبل أن يُفتح زجاج أول نافدة ، أوقفتني الحيرة مذهولًا فالوقت يمضي والأحداث تجري بسرعة تفوق سرعة تفكيري وقدرتي على إيجاد الحل، أطلقت ساقاي للريـح بكل سرعتي وأنا أصيح بأعلى صوتي طالبًا العون لعلي أجد من ينقذني ، وكأن ما حدث قد أكَّد للكلب صحة شكوكه تجاهي فزاد من سرعته خلفي ليقطع المسافة كلها تقريبًا حتى باتت تفصله عني خطوات قليلة ، ثم كانت تلك الوثبة القوية التي أسقطتني أرضًا والكلب الضخم فوقي!

ارتفاع صوت صاحبه العجوز بالنداء عليه كان طوق النجاة الذي قُذِفَ لي من حيث لا أدري ، ظلّ الكلب يرمقني بتحفز ثم التفت لصاحبه الذي رفع صوته مكررًا النداء عليه من جديد فتركني وتراجع إليه عائدًا ، العجوز الأجنبي تمتم بكلمات لم أفهمها وأظنها غالبًا كلمات اعتذار بلغته فماذا عساه أن يقول غير الاعتذار ، الحمد لله أنه لم يفهم ما أطلقته عليه من سباب ، نهضت وقد خذلتني أقدامي المرتجفة التي لم تعد تقوى على حملي بعد توتر اللحظات الماضية، حاولت السيطرة على أنفاسي المضطربة حتى عادت لطبيعتها، ابتسامة باهتة ارتمست على وجهي وأنا أتذكر: "فتمتّع بالصبح ما دمت فيه...لا تخف أن يزول حتى يزولا" ، كاد أن يزول تاركًا إياي أتلقى مصل عضَّات الكلاب في المستشفى يا (هاني)! ، الاسم المحفور على

اللافتة الرخامية الكبيرة بمدخل إحدى الفيلّات المجاورة استوقفني وأنا أعيد ترتيب هندامي ، هذا هو المكان الصحيح الذي قطعت كل هذا الطريق لأجله ، هل سيُكتب لي أن أدخل هذا المكان من بابه يومًا؟ هذا مافكرت به وأنا أتفحص المكان وكيف لمن تعيش هذا الثراء والمستوى الراقي أن تكون بيننا وتتعامل معنا طوال الفترة الماضية دون أن تصدر منها كلمة لمرة واحدة على سبيل التسرع أو الخطأ لنشعر معها بالفجوة الواضحة بينها وبيننا ؟! تشرب معنا الشاي والقهوة كل صباح وتضحك لدعاباتنا وتشاركنا حواراتنا والحديث بنفس كلماتنا كواحدة منا تمامًا ! كم أنتِ رائعة في تواضعك يا (إنجي) ، أكملت دورتي حول الفيلّا بحثًا عن سيارتها وأنا أطالع النوافذ المغلقة سائلًا نفسي أي تلك الغرف هي غرفة أميرتي النائمة؟ عجيبة هي أفعال الحب. هل أعادني الحب مراهقًا من جديد؟ لا يهم طالما انتهت المهمة بنجاح ، وجدت نفسي أخيرًا أمام تلك السيارة الصغيرة الحديثة التي أعرف صاحبتها جيدًا ، وضعت الوردة بعناية على زجاج سيارتها أسفل ماسحة الزجاج ، نظرت لساعتي .. الوقت مناسبًا جدًا، يمكنني الذهاب للعمل الآن بلا تأخير بعد أن حركت الأمور للأمام خطوة لأرى كيف سيكون رد فعلها وانطباعها حين ترى أمامها الوردة الثانية في مكتبنا صباحًا ، نظرت للوردة الحمراء الأخرى بسعادة والتي تمثل طرقتي الأولى على باب قلبها ، فهل سيفتح من أول طرقة أم سيكون عليَّ أن أفكر في طرقات أخرى جديدة؟

* * * *

(١٦)

الشارع كان يعج بالضوضاء وحركة لا تتوقف بين أناس ومركبات، وقف (شلهوب) غارقًا في حيرته يفكر ويعود ببصره لهاتفه كل بضع ثوانٍ، ها قد وصلت المكان المطلوب فما القادم يا ترى؟ لاحت أمامه لافتة محطة القطارات الكبيرة فقرر الدخول والجلوس على أحد مقاعد الانتظار وسط جموع من المتحركين حوله ريثما يرن هاتفه بالمكالمة المنتظرة ، ارتفع رنين الهاتف أخيرًا ، فتح المكالمة منصتًا فجاء صوت المتحدث على الطرف الآخر قائلًا:

- كم أنت بارع يا (شلهوب).. كنت سأطلب منك الدخول لمحطة القطارات ففعلت دون أن أطلب منك ، لكن الكرسي الذي اخترته للجلوس غير مريح على الإطلاق وسأدُلك الآن على مقعد أكثر راحة.

- أريد الاطمئنان على أبنائي وزوجتي.

- ألم تسمع أصواتهم في المكالمة السابقة ، كن هادئًا يا (شلهوب) فكثرة الاتصال بهم قد تثير الريبة ولا تقلق بشأنهم فهم سعداء بالفعل بالرحلة الهدية التي أعددتها لهم.

- لِمَ لا تخبرني بما تريد مباشرةً وتُنهي الأمر؟

- لكل شيء أوان يا(شلهوب) وستعرف كل شيء في وقته المناسب ثق بنا فقط.

- أي ثقة تلك التي تتحدث عنها وقد اختطفت أسرتي!

- هل سأظل أكرر بأني لم أخطفهم وأنهم في الرحلة السعيدة التي أعددتها لهم، وقد حادثتهم قبل قليل وتأكدت بنفسك فحافظ على

هدوئك رجاءً ولا تتصرف كالأغبياء وتجعلني أظن بأن السنون قد أصابت عقلك بالصدأ والخرف .

- كيف تريدني أن أهدأ وقد استغللت غيابي وخدعتهم! فهذه ليست الرحلة التي أعددتها أنا لهم وليس هذا هو المكان الذي كان مقررًا لهم الذهاب إليه ، منسق الرحلة اتصل بي ليخبرني بأنهم قد غادروا بدونهم بعد تأخرهم في الحضور بعد أن أخذتهم أنت في رحلتك المخادعة ...

قاطعه الصوت قائلًا:

- ألديك شك بأنني لو أردت خطفهم أو ذبحهم لفعلت!! لقد اتصلت بهم بنفسك وتأكدت بأنهم في رحلة بالفعل وأنهم سعداء ويظنون بأنك أنت من أعددتها لهم.

- ولِمَ لا تُنهي هذا السخف حالاً وتخبرني بما تريد؟

- مدينة الضباب الداكن.

- ماذا؟!

- كما سمعت.. ستترك هذا المقعد الخشبي غير المريح ، لتجلس على آخر أكثر راحة بالدرجة الفاخرة في القطار المغادر لمدينة الضباب الداكن بعد نصف ساعة من الآن.

- وماذا سأفعل بتلك المدينة؟

- نفِّذ المطلوب بلا أسئلة يا (شلهوب) وستعرف كل شيء في حينه.

* * * *

دفعت السجَّانة الضخمة (رحيق) دفعةً قويةً أسقطتها أرضًا وهي تضحك في فظاظة، بينما قذفت إليها السجَّانة الأخرى بثياب السجن الوردي وهي تصيح فيها قائلة:

- هيا انهضي وبدلي ثيابك الآن يا....

تناولت (رحيق) ثياب السجن الملقاة إليها متجاهلة السباب البذيء وهي تسأل:

- هل سأبدل ثيابي هنا وأمامكم؟!

قهقهت السجَّانة الضخمة وهي تجيبها في تهكم قائلة:

- بلا شكٍ أيتها البغي الخجولة ، أم تريدين منا أن ندفع لكِ نحن أيضًا كما يفعل الآخرون؟! هيا اسرعي ولا تهدري الوقت.

بدلت (رحيق) ثيابها وناولتهم الثياب التي كانت ترتديها بعد أن ارتدت ثياب السجن ، سحبتها السجَّانة الضخمة من يدها وهي تقودها لتفتح باب زنزانة ضخمة وتدخلها إياها ثم تغلق الباب الحديدي للزنزانة خلفها قائلة:

- لا تجعلوا حفلة الترحيب بها طويلة، وأنهوا حفلتكم قبل موعد نومي ، أريد النوم بلا ضوضاء أو إزعاج.. هل فهمتم؟

أغلق الرجل مشغل الأقراص ليرتفع صوت في الغرفة يخاطب السيد (تقي) قائلًا:

- أمنحتك مشاهدة ابنتك بعض التسرية وسدَّت الشوق إليها أم تريد المزيد فنعرض لك فيلمًا آخر بوقائع حفل الاحتفال بها من رفيقات زنزانتها من البغايا اللطيفات؟

ابتسم السيد (تقي الدين) ابتسامة مفتعلة حاول بها إخفاء النار المشتعلة داخله وهو يجيب ببرود قائلًا:

- قضيتكم معي خاسرة يا سادة والقضية أكبر من تقديم التنازلات.

قهقه (غيَّاث) قائلًا:

- هل ستصدقني لو أخبرتك بأنني معجب بك يا سيد (تقي)؟ لكن ماذا نفعل وقد تعارضت الاتجاهات والانتماءات بيننا، كنت أتمنى لو كنت بذات الفريق إلى جواري. لقد نجح ابنك (مجيد) بالفرار في اللحظات الأخيرة قبل أن يُلقى القبض عليه بالتهمة التي أعدّها له رجالنا لنمنحه كأخته هو الآخر إقامة مجانية بأحد سجون مملكة لاميتا.

هتف (تقي الدين) في ضيق مقاطعًا:

- لو أرضعتكم أمهاتكم بدل اللبن غباءً لما وصلتم لتلك الدرجة من البلاهة وعدم الفهم ... ألا تفهمون؟! سبق وقلتها وسأظل أكررها بلا يأس بأن لا تنازلات لديّ وقضيتكم معي خاسرة.

قهقه (غيَّاث) قائلًا:

- لا تتعجل الأمور يا سيد (تقي) فاللعبة ما زالت في أولها ولم تنتهِ بعد وما زال أمامنا الكثير من الوقت ، ومنذ أن وصفتنا بقطيع الكلاب وأنا لا أكف عن سؤال نفسي كم سيطول صبرك وتحملك يا تُرى لعضَّات الكلاب الغاضبة؟ مع وجود ذلك الاستثناء الصغير الذي لا أظنه خافيًا عنك ، وهو أن الزمن والظروف في صالحنا نحن لا أنت ، وأنك أنت من يتلقى العضَّات لا نحن.

أجابه السيد (تقي) بوجه حاول أن يرسم عليه ابتسامة لكنها جاءت باهتة وهو يقول:

- هذا هو ظن المجرمين والطغاة دومًا، يغيب عنهم أن دوام الحال من المحال، وأنَّه بين عشية وضحاها تتغير الأمور من حال إلى حال. أما عني فلم يتغير شيء وما زلت علي موقفي حتى بعد سجن ابنتي بعنبر البغايا ، وإن أخبرتني بأنكم نجحتم في القبض على ابني وتلفيق تهمة له فسيظل أيضًا عرضكم مرفوض ولا تعاون بيننا.

****

هدَّأ القطّار من سرعته وهو يدخل مدينة الضباب الداكن أخيرًا بعد ساعات طوال من السير، تحدَّث (شلهوب) فيها مع أُسرته أكثر من مرّة، كان يحاول الحفاظ على ثبات أعصابه ونبرة صوته أثناء الحديث معهم حتى لا يثير توترهم . المتحدث معه نجح في تهدئته حين أخبره قائلًا "بأنه كان من السهل علينا خطفهم لو أردنا وإرسال صورهم لك مقيدين يبكون بدلًا من جعلك تحادثهم عبر الهاتف وهم يضحكون ويلعبون مستمتعين بالرحلة الهدية ، نحن لسنا أعداءك كما تظن ، نريد منك فقط بعض التعاون وسنخبرك بالمطلوب في الوقت المناسب، ينقصك فقط إدراك أننا نحن من نختار ونحدد الوقت وليس أنت".

توقف القطار، ضجَّ الركاب يتدافعون مغادرين مقاعدهم للنزول ومغادرة القطار على عجل إلى الرصيف ، تمنى (شلهوب) أن يكون ما يمر به الآن مجرد حلم سيء سيفيق منه بأي لحظة ، انسل بين الركاب وسط الزحام لينزل معهم، تعثَّر وكاد يسقط وهو يتحرك دون النظر لخطواته وأين يضع قدمه لأنه لم يرفع عينيه عن هاتفه بانتظار أن

تأتي المكالمة التي ستبلغه بالقادم ، تعالى رنين الهاتف أخيرًا، فتح المكالمة ليأتيه الصوت قائلًا:

- ستدخل المطعم الذي أمامك في أقصى اليسار وستجلس على المائدة رقم ٢٣ المحجوزة لك ، ستطلب وتتناول ما تريد من طعام ومشروبات، وستطلب بعدها وجبة أخرى تختارها لتحملها معك أثناء سيرك الطويل القادم.

- عفوًا.. لكنني لم أفهم الجزء الأخير وماذا قصدت "بسيرك الطويل القادم"؟

أجابه الصوت بهدوء قائلًا:

- ستحتاج بالتأكيد للطعام في مشوارك الطويل للغابة المَشْؤومة وداخلها فلا مواصلات أو أماكن للتزود بالطعام طوال الطريق الذي ستقضيه سائرًا على قدميك.

توقف (شلهوب) وقد هبط الذهول على ملامحه وهو يهز رأسه وكأنه يستوثق مما سمع فجاءه الصوت من جديد ليردف في ثقةٍ مؤكدًا:

- نعم ... ما سمعته صحيح تمامًا ، أنت ذاهب للغابة المَشْؤومة.

* * * *

(١٧)

ليلة الأمس كانت ليلة سيئة لا تُنسى ، استعنت بكل من أعرف من زملاء وأصدقاء حتي تمكنت أخيرًا من حجز موعد قريب وانتظار طويل قضيناه بعيادة ذاك الأستاذ المشهور وسط أنين وأوجاع المرضى القادمين من كل الأحياء والمدن وسط جوٍ مليء بالأوجاع والآهات إلى أن حانت أخيرًا لحظة دخولنا للطبيب. الرجل كان متكبرًا فظًّا ، غَضِبَ ولم يقبل مجرد الاستماع لما قاله طبيب القرية وتعامل معنا وكأنها سُبةً وإهانةً أن نروي له ما قاله طبيب آخر وأنه بما أننا لديه الآن فما سيقوله هو القول الفصل الذي لا قول بعده ولسان حاله يقول ومن عساه يمكن أن يتحدث بعدي.

عاد لمكتبه بعد الكشف على والدتي وسط صمتٍ تام منا، وبدأ يدون لنا التحاليل والفحوصات المطلوب إجراءها ثم ناول لوالدي الورقة قائلًا:

- أريد هذه الفحوصات والتحاليل في أسرع وقت من المكان الذي حددته لكم بالورقة، ولن أقبل بها من أي مكان آخر.

نظرت إليه في رجاء قائلًا:

- قد يكون هذا المكان غاليًا علينا أو مزدحمًا أو بعيدًا فهل ترشح لنا مراكز أخرى تثق بنتائجها وتترك لنا اختيار ما يناسبنا ويتلاءم مع ظروفنا منها؟

رمقني بنظرة طويلة متفحصة قبل أن يردف قائلًا:

- أنا من سيدخل غرفة العمليات ليُجري الجراحة وليس أنت وسأجريها بناءً على هذه الفحوصات والتحاليل ، أنا أثق في هذا المكان ودقة نتائجه ويمكنك ببساطة إن أردت إجرائها في مكان آخر أن تختار أيضًا طبيبًا آخر.

ناول والدي ورقة التحاليل والفحوصات المطلوبة مُنهيًا الحوار بضغط الجرس لدخول المريض التالي. ذهبنا للمركز الطبي المختار لنجد المفاجأة المتوقعة بأن تكلفة المطلوب تفوق بكثير ما نحمله معنا من نقود بما فينا العم (مرزوق)، هاتفت المعلّم (صبحي) أسأله إن كان بالإمكان إقراضي فكان الرجل غاية في الكرم وطلب مني الحضور إليه حالًا، تركت أسرتي بالمركز وتحركت برفقة العم (مرزوق) لهناك فأحضرنا المبلغ الناقص، كم أدين بالفضل لهذا الرجل والذي أنقذني بالفعل من هذا الموقف السخيف الذي لا أعرف كيف كان سينتهي لو لم يقدم لي العون في اللحظة المناسبة، هل كنا سنعود للقرية دون إجراء المطلوب أم ماذا كنا سنفعل؟ لم يناقشني الرجل في أي شيء، طلب مني الحضور له حالًا وأعطاني المبلغ الناقص قائلًا بأنه يريد لقائي غدًا مساءً للاطمئنان عليَّ ومعرفة ما حدث.

عصفت الحيرة بعقلي بعد ما حدث وغاب عني التركيز تقريبًا فلم أستوعب أي شيء من المحاضرات التي تلقيتها في المعهد صباحًا أو من الكتاب المفتوح بين يدي الآن، أشهر قليلة باتت تفصلني عن انتهاء المنحة والانطلاق لسوق العمل الفعلية و فرص العمل بوظائف مرموقة ذات أجر مرتفع ، ألم يكن بإمكان تلك المصيبة أن تتأخر قليلًا

حتى أمتلك من النقود ما أستطيع التعامل معها والتحرك بين الأطباء والمستشفيات ومراكز التحاليل دون الاستدانة والاقتراض من الناس!

أفقت من شرودي على يد (مسعد) - ذلك الطالب الذي يعاونني بالعمل في شقتي وهو يربّت على كتفي قائلًا:

- أنهيت جهاز (محمود العطَّار) واعدت إنزال نظام التشغيل فاستعاد الجهاز عافيته وزال عنه البطء .. فهل أتصل به ليأتي ويأخذه؟

- لا .. أخبره أولًا بأننا وجدنا أمشاط الذاكرة تالفة فاستبدلناها بأخرى جديدة.

تمتم الشاب في عجب قائلًا:

- وهل فعلنا ذلك بالفعل؟!

- أتظنني كاذب لأقول شيئًا لم نفعله؟! إن أخبرتك بأننا فعلنا فقد فعلنا ، أنت فقط من لم تكن موجودًا لتراني وأنا أفعل ذلك.

هزّ الشاب رأسه في عجب وعاد لمتابعة عمله في صمت، وعدت أنا لمتابعة القراءة في الكتاب بين يدي وأنا أفكر في المصيبة الكبيرة التي هوت فوق رأسي أنا وأسرتي ، إن كان هذا حالنا في الكشف والتحاليل فكيف سيكون الحال حين أحمل له نتائج التحاليل بعد ظهورها ويطلب إجراء جراحة باهظة التكاليف في مستشفى بعينه لا يعمل إلاَّ به؟!

رفعت عيني لأجد فتاة شابة تقف أمام (مسعد) وهي تسأل عن بحثها وهل تم الانتهاء منه؟ تحركت لأجيبها بسرعة قبل أن يجيبها (مسعد) أو يحضر البحث لها قائلًا:

- معذرةً يا آنسة .. نعتذر على التأخير، لكن ما زال أمامنا بعض الوقت للانتهاء منه، ساعة واحدة فقط من الآن وستجديه جاهزًا بانتظارك.. هذا وعد.

قطَّب (مسعد) حاجبيه بعد انصرافها في دهشة قائلًا:

- لماذا والبحث منتهي بالفعل؟!

أجبته في حسم قائلًا:

- احضر البحث لي الآن ولا تهدر وقتي يا (مسعد).

أحضر (مسعد) البحث فبدأت بإجراء بعض التعديلات به، لكن نظرة مني لـ(مسعد) كانت كافية لأفهم الضيق الذي بداخله من عدم فهمه للأمور، لن أترك توتري وأعصابي المشدودة تفسد علاقتي بالآخرين ، طلبت منه إعداد الشاي لنا نحن الاثنين وأنا أداعبه قائلًا:

- كن ذكيًا يا فتى.. لو تركتك تسلّم البحث هكذا للفتاة فستعطيه لصديقاتها ليقومن بإضافة وحذف بعض الفقرات والعبارات وتغيير الترتيب داخل البحث فيبدو وكأنه بحث آخر تمامًا ، أمَّا مع التعديلات التي سأجريها الآن بوضع علامة مائية وكلمة سر وإغلاق إمكانية التعديل بالبحث فستأخذ الفتاة البحث الخاص بها فقط لطباعته وتقديمه سواء النسخة الورقية أو الإلكترونية ، وسيكون على كل زميلة من زميلاتها أن تقصدنا هي الأخرى طالبة لبحث مماثل ليكون ربحنا ساعتها مضروبًا في عدد الزميلات الطالبات للبحث وليس مجرد بحث واحد لفتاة واحدة.

ارتسمت ابتسامة على وجه (مسعد) وهزَّ رأسه بعد أن فهم المغزى مما حدث، تحرك بعدها في رضا لإعداد الشاي. نظرت لساعتي فذكرتني بموعدي مع المعلّم (صبحي) في بيته مساءً.

التفكير في كيف ستجري الأمور؟ لم يفارقني منذ الأمس ، ماذا سنفعل إن قرَّر الطبيب لوالدتي جراحة بمبلغ باهظ لا نمتلكه؟ هذا ما كنت أفكر به وأنا أصعد الدرج لشقة المعلّم (صبحي) ، أظن والدتي نفسها هي أول من ستفضل الموت على فراشها بدلًا من ذل السؤال لهذا وذاك، لقد أخفينا عنها كل ما يخص التكاليف حتى الآن كي لا تسوء حالتها النفسية وتظن بأنها قد صارت عبئًا علينا. طرقت باب شقة المعلّم (صبحي) ، فتح ابنه (خميس) لي الباب مستقبلًا إياي بحفاوةٍ قادني بعدها للصالون وهو يسألني ماذا أشرب.. قهوة أم شاي؟ دقائق قليلة حضر بعدها المعلّم (صبحي) فصافحني في مودةٍ قائلًا:

- "طمِّني يا باشمهندس كيف حال والدتك؟ مش الأمور عدِّت على خير والحمد لله؟".

أجبته شاكرًا فضله وجميله الذي لا يُنسى، سألني بعدها عن نتائج التحاليل والفحوصات التي أجرتها وهل ظهرت أم لا؟ وإن كانت هناك جراحة ستُجرى لوالدتي أم لا؟ أجبته بأننا لا نعلم أي شيء حتى الآن وأن الأمور كلها قد تتضح غدًا أو بعد الغد على الأكثر.

صمتٌ حملته الدقائق التالية قبل أن يقدِّم المعلّم (صبحي) عرضه لي بابتسامة قائلًا:

- لعله ليس التوقيت المناسب، لكن هناك فكرة برأسي وأريد عرضها عليك.

- تفضل يا معلّم (صبحي).. قُل ما تريد وما برأسك فأنا أسمعك.

تناول رشفة من قدح القهوة قبل أن يضعه أمامه قائلًا:

- ما رأيك بأن نصبح شركاء؟

هززّت رأسي وكأنني أنفض عنها أي تشويش وأنا أسأله :

- لم أفهم بالضبط.. ماذا قصدت بأن نصبح شركاء؟

- هو عرض لك، خذ وقتك كاملًا للتفكير فيه قبل قبوله أو رفضه.

- تفضل يا معلّم.. أسمعك.

- ستغادر الشقة الصغيرة التي تسكنها لنجعل منها مكتبًا أو ستكون هي المكان موضوع شراكتنا بعد أن أصبحت تلك الشقة معروفة للجميع بالحارة، أعلم رفضك للسكن مع أحد لكنك ستنتقل لمشاركة الشباب السكن بشقة الطابق الأخير لفترة قصيرة مؤقتة حتى أوفر لك مكانًا آخر كسكن بديل لشقتك الحالية.

فضلت الصمت مكتفيًا بالنظر إليه حتى يُنهي عرضه فأردف قائلًا:

- ستصبح شقتك - أو لنقل عنها من الآن المكتب - مفتوحة طوال اليوم وليس فقط ساعات عدم وجودك بالمعهد كما هي الآن، وسيكون ابني (خميس) متواجدًا ليدير العمل بها طوال اليوم بعد أن تعلمه أنت كيف يمكنه أن يدير الأمور كما علمت (مسعد) ومن سبقه من الشباب ممن عملوا لديك، سيستطيع ابني (خميس) بعد فترة بسيطة إدارة العمل تحت إشرافك بالطبع، وشيئًا فشيئًا سيتعلم كل شيء وسيقل معدل الرجوع إليك سوى في الأشياء الكبيرة والهامة لتتفرغ أنت لدراستك وعملك المستقبلي.

لحظة صمتٍ رمقني خلالها المعلّم (صبحي) يحاول معرفة أثر ما قال عليَّ فأشرت له بمتابعة الحديث فأردف:

- شهور قليلة حسب علمي تبقت لك لتنهي المنحة، سيكون ابني قد تعلم خلالها القيام بغالب الأمور التي تمكنه من إدارة العمل بالمكتب، ستنتقل أنت بعدها لوظيفة كبرى أفضل بكثير من هذا

المكتب الصغير وغالبًا ما سيتغير سكنك أيضًا لمنطقة أرقى وأفضل، ولن يلائمك بالطبع ترك عملك الجديد الراقي لتتواجد معنا هنا في الحارة ، لذا سيقتصر دورك وقتها على المتابعة بالصورة التي تراها أنت مناسبة سواء أردت أن تزور ابني هنا في المكتب من آن لآخر لتتفقد الأمور بنفسك وقتما تريد، أو أردت أن يذهب ابني إليك ليعرض الأمور عليك في الوقت الذي تختاره أنت أو حتى إن أردت تعيين شخصًا آخر كبديل عنك أو وسيط بينكما...

سألته مقاطعًا:

- كيف علمت بكل تلك الأمور عن موعد انتهاء المنحة ونوعية وشكل فرص العمل التي ستتاح لي بعد انتهائها؟

أجابني مبتسمًا:

- هذا سؤال لا يُسأل لمن يقضي غالب وقته في المقهى حيث لا شيء سوى القيل والقال وسط أناس لا يفعلون شيئًا أكثر من الثرثرة بمكان صغير كحارتنا بعد أن ذاع صيتك فيها وأصبحت من الشخصيات المعروفة.

هززت رأسي متفهمًا وقد بدأت الصورة تتضح أمامي، إنه الطمع وليس أي شيء آخر ، فالمعلّم الذي يملك تلك الشقق والمقهى ويحصد الكثير من الإيجارات كل شهر ينظر لي في رزقي وللنشاط الدائر بشقتي بعد أن أصبحت صيانة وإصلاح الحاسبات وإعداد الأبحاث والخدمات الطلابية مصدر رزق لي ، وجاء علمه بقصة مرض والدتي وحاجتي للنقود ليمنحه الفرصة الذهبية التي لم يشأ أن يفلتها من بين يديه بأن يقاسمني رزقي وأن أجعل من ابنه (خميس) الذي لا يعرف عن

الحاسب سوى الجلوس أمام الألعاب شريكًا ومديرًا لمشروع يدرّ علينا الدخل معًا كشركاء ، وحين تستقر الأمور للفتى في العمل فليس أسهل من خلعي وإقصائي بكل بساطة فأنا لم أكتب معه حتى عقدًا للشقة التي أسكنها الآن.

تمتم المعلّم مبتسمًا وهو يردف قائلًا:

- خذ وقتك للتفكير كما تشاء، وإن وافقت على الشراكة بيننا فيمكنك اعتبار المبلغ الذي أقرضته لك بالأمس هدية من المعلّم (صبحي) لك ولأسرتك "عربون محبة يعني"، وسأقرضك أيضًا تكلفة العملية، لكن بعد أن تكتب لي كمبيالات وإيصالات أمانة بالمبلغ كاملًا يمكنك سدادها لي لاحقًا من عملنا معًا ومن المكسب الذي سيحققه المكتب ، "الحق حق.. والعدل ما يزعلش يا باشمهندس".

أجبته وأنا أتحرك نحو الباب بعد أن استأذنته في المغادرة قائلًا:

- سأفكر بالأمر، ويفعل الله ما يريد.

* * * *

(١٨)

توقف (شلهوب) بأقدامه التي تصرخ ألماً وتعباً بعد سير تلك المسافة الطويلة بلا جلوس أو راحة ، تلفَّت حوله يبحث عن العين المراقبة ، لا بد بأن هناك من يراقب كل خطوة يخطوها، وليس أدل على ذلك من مكالمة محطة القطار وإخباره بأن الكرسي الخشبي الذي يجلس عليه غير مريـح، أين أنت أيها المراقب؟ ولِمَ لم تظهر إلى الآن؟! نظرته لإشارات جودة الشبكة بهاتفه أخبرته بأن الهاتف قد صار عديم القيمة ومن الغباء انتظار مكالمة هنا، تسارعت دقَّات قلبه وبدأ القلق ينتابه مع ظهور أشجار الغابة المَشْؤومة أمامه.

لم يتوقف تفكيره طوال سيره داخل الغابة المَشْؤومة، كيف سيكون الاتصال مع عدم وجود تغطية هاتفية، هل ينتهي أمره هنا في الغابة كوجبة لذئب جائع أو فهد يبحث لنفسه عن بعض المرح؟ أم سيلتقمه أحد تماسيح النهر لتخرج صرخات الموت من بين أسنانه؟! توقف عن السير مستندًا إلى شجرة عالية وقد ملأ الرعب قلبه ومنعه من أن يتحرك أي خطوة جديدة.. يكفي هذا، إلى هنا وكفى!

جلس على الأرض يفكر وقد استبد التعب به مستندًا بظهره على جذع شجرة ضخمة يفكر هل كان ما فعله صحيحًا بأن ينفذ ما طُلب منه ويذهب للغابة المَشْؤومة؟ لم يكن بإمكانه الرفض والتضحية بأسرته ، توترت أعصابه مع أصوات الغابة الغريبة والتي لايعرفها ولايدري أهي لحشرات تعبث حوله أم قوارض ترمقه بضيق كمتطفل اقتحم عالمها أم فحيح أفاعي تستعد للانقضاض؟ هل عليه ترك هذا

المكان الملعون حالًا والعودة لمحطة القطار ثانيةً؟ ليهدأ قليلًا فلا بد أنهم أعدوا طريقة للقائه وسيظهرون له قبل أن يلتهمه أحد الوحوش الجائعة، ستكون حماقة ما بعدها حماقة لو التفت مقررًا العودة لمحطة القطار ثانيةً، لا يجب أن ينسى أبدًا أن زوجته وأبناءه لديهم. طرق مسامعه صوت جديد غريب، أصغى له جيدًا.. الصوت أشبه بوقع جيادٍ قادمة، وضع أذنه على الأرض ليتأكد، رفع رأسه وبدأ يتلفت يمنه ويسره حتى ظهر من بعيد أربعة جياد عليها ملثمون يقتربون منه.

لم يطل انتظاره أكثر من دقائق قليلة كانوا بعدها أمامه مباشرةً، نزلوا من على جيادهم، قيَّد أحدهم يداه وغطى الآخر رأسه بغطاء أسود وأَركبه ثالث عربة تجرها الخيول قائلًا:

- معذرةً سيد (شلهوب).. دقائق قليلة وينتهي كل هذا.

****

صاح (برهان) في ضيق قائلًا:

- كيف لم يقبل (تقي الدين) بالتعاون معنا؟ من يظن نفسه؟!

تمتم (صفوان) قائلًا:

- مرنا بما تريد .. فنحن لم نترك شيئًا يمكن فعله ولم نفعله.

- بدأت تتصرف كالأغبياء يا (صفوان).. الإبداع لا ينتهي والأفكار لا تنضب، الأغبياء فقط هم من يردِّدون ما تقول ويتوقفون عن التفكير في جديد، لا بد من استغلال والاستفادة بعلم وذكاء هذا الرجل، وكما بنى (جسَّار) مجدًا فلا بد لنا أن نشيد نحن أيضًا سمعةً ومجدًا لا يقل عما بناه وحققه (جسَّار).

- جربنا كل شيء معه، حتى أنه أخبرنا بنفسه في اللقاء السابق بأننا حتى لو قبضنا على ابنه (مجيد) فلن يغير ذلك في الأمر شيئًا.

- وأين (غيَّاث) من كل هذا؟

- (غيَّاث) عاكف على دراسة كل ما يخص السيد (تقي) بعد أن أخذ الموضوع لديه صورة التحدي ويرى المعركة قد صارت معركة ذكاء ودهاء ويريد أن يثبت ويبرهن للسيد (تقي الدين) بأنه ليس وحده من يمتلكهم.

هدأت قليلًا حِدَّة السيد (برهان) وهو يُردِف سائلًا:

- وهل تتابعون أخبار (جسَّار) أم توقفتم عن متابعته لتبرهنوا لي بأنني قد اخترت حِفنَةً من الأغبياء للعمل معهم ؟!

- تصلني كل يوم من رجالنا كشوف بقوائم الوصول لمملكة لاميتا من كل مكان وليس المكان الذي سافرت إليه زوجة السيد (جسَّار) وابنه فقط وطبقًا لآخر تقرير عاينته صباح اليوم قبل الحضور إليك فالسيد (جسَّار) ما زال خارج المملكة لم يعد بعد.

صاح (برهان) في ضيق قائلًا:

- تفكير روتيني مُملّ مثلك يا (صفوان) فقد يظل من كلفتهم بذلك يخبرونك بذات الرسالة كل يوم لتحملها أنت لي بكل فخر وثقة بأن الأمور هادئة ولا يوجد ما يدعو للقلق، غافلين بذلك عن ذئب قد بدأ بالتهام الفرائس.

* * * *

نزع الرجل غطاء الرأس عن (شلهوب) معتذرًا له قبل أن يغادر ، تلفت (شلهوب) حوله ليجد نفسه بغرفةٍ نظيفةٍ ذات أثاث فاخر لا ينقصها أي شيء ، بدأ يتحرك بالغرفة حتى توقف أمام شاشة تلفاز جدارية ضخمة ، تحسس الفراش بيديه فبدا وثيرًا للغاية ، دخلت سيدة ترتدي ثياب الخادمات فسألته إن كان يريد أن يشرب شيئًا الآن

فأجابها بأن قدحًا من القهوة سيكون جيدًا ، غادرت السيدة لإعداد القهوة ، التقط جهاز التحكم وفتح التلفاز فانتابه الذهول وهو يجد أمامه ما يشبه البث الحي لأولاده وهم يلعبون مع أولاد في مثل أعمارهم ومشهد آخر لزوجته وهي تتشارك حوار ضاحك مع سيدات بجوارها ، انقطع البث فجأة بصوتٍ هادئٍ رخيم يملأ الغرفة قائلًا:

- مرحبًا (شاهين).

هزَّ (شلهوب) رأسه في ذهول سائلًا:

- من أنتم؟ وماذا تريدون؟!

قَهْقَهةٌ انطلقت عبر سماعات الجدران لتملأ الغرفة قبل أن يردف الصوت قائلًا:

- ومن على ظهر الحياة يعرف بأنك (شاهين)؟!
- لا أحد سواي أنا والسيد...
- ها قد عرفت الآن مع من تتحدث.
- هل ما ببالي صحيح؟ وأنت حقًا السيد...
- أجل يا (شلهوب)، أنا من ببالك ولا أحد غيري.
- لكن كيف هذا؟!
- ضرورة كالتي اقتضت يومًا بأن يختفي (شاهين) في غمضة عين ودون أن يعلم أحد أين اختفى ولماذا، وهل مات أم ما زال حيًّا، وأسئلة ظلت بلا إجابة حتى نسِيَ الجميع السيد (شاهين)، ضرورة مثلها تمامًا اقتضت بأن أختفي أنا أيضًا لأظهر في صورة جديدة كما ظهرت أنت في صورة السيد (شلهوب) التي تعيش داخلها منذ سنوات ، يبدو لي بأنك قد تقمصت الدور تمامًا لدرجة نسيت معها بأنك كنت يومًا السيد (شاهين).

- وكيف لا أنسى والكل يعرفني كـ(شلهوب) ، تزوجت وأنا (شلهوب) وأنجبت وأنا (شلهوب) والتحق أبنائي بالمدارس كأبناء (شلهوب) وكل وثائق حياتي الآن تخص (شلهوب).

- وهل ضايقك هذا؟

- كانت خطة غاية في الروعة منك سيدي وقد نجحت بالفعل نجاحًا باهرًا.

- والأهم من كل ذلك أنها برهنت وأثبتت لك بأننا لا ننسى أبدًا من يعمل معنا.

- بالفعل يا سيدي.. فقد عشت سنوات أرفل في الأمن والأمان دون أن يعرف أحد عني شيئًا، حتى جاءت اللحظة التي...

- لا تقلق.. فما زلت تعيش ذات الأمن والأمان يا (شلهوب)، ولاشك بأن السنون الماضية أكدت لك كيف أني أحمي من يعمل معي ولا أنساه أبدًا.

- هل ستخبرني بما تريد مني الآن.. أم سأنتظر حتى يحين الوقت؟

- مهمة عمل مشترك جديدة بيننا أريدك أن تجد أولاً سببًا مقنعًا لزوجتك وأولادك لانتقالهم لتلك الفيلّا التي سيعيشون بها الأيام القادمة حتى انتهاء مهمتنا، أخبرها بأنها معروضة عليك للبيع من أحد زملائك وإنك أجَّرتها منه لتجربتها قبل شرائها، ولا تقلق فستكون هي هديتي لك إن كُتِب لمهمتنا النجاح.

- ما جمعنا في السابق كان مهمة واحدة فقط، فهل لعملنا المشترك أو المهمة الجديدة كما تسميها أنت علاقة بمهمتنا القديمة؟

انطلقت قهقهة رنَّانة لتملأ الغرفة والصوت يجيبه قائلًا:

- جيد أن تبرهن لي يا (شلهوب) بأن عقلك ما زال يعمل ولم يصبه الصدأ.

- المسافر الأيوني؟؟

- هو بذاته وليس غيره، كتيبة أنوي تكوينها وإحضارها بعد انتقاء مجموعة من المقاتلين الأقوياء الأذكياء ليكونوا رجالي فيما أنوي القيام به في الأيام القادمة.

- لكن الأمور قد تغيرت يا سيدي فأنا لم أعد ذاك الشاب الذي يمكنه السفر بالمسافر الأيوني مع تقدُّم عمري ، ولن يُمكنَنِي السفر بالمسافر الأيوني لكوكب آخر من جديد لإحضار الكتيبة التي تريدها سيدي كما فعلت سابقًا.

- عدم استطاعتك القيام بالمهمة لا يعني أنها ملغاة.. إن كان هذا ما تريد قوله.

- احضر لي السترة مانعة التبعثر وسأقوم بالمهمة.

- ما تقوله الآن هو الهراء بعينه يا (شلهوب)، لديّ الكثير من الرجال فاختر من تراه مناسبًا ودرَّبه وزوِّده بكل التفاصيل اللازمة ليقوم بالمهمة تحت إشرافك.

- لا بد أن تسقط منا بعض التفاصيل مهما بذلنا من جهود للتذكُّر، وقد تظهر مفاجآت غير متوقعة بأوقات غير ملائمة لتفسد كل شيء.. هكذا جرت العادة دائمًا.

- أنت تتحدث عن المستحيل بعينه يا (شلهوب) بحديثك عن السترة مانعة التبعثر، لم أستطع فعلها قديمًا فهل سأفعلها الآن!

- أمانة التعامل تقتضي وضع الصورة كاملة أمامك.

- حسنًا يا (شلهوب).. تناول عشاءك الآن وانعم بعدها بنومٍ هادئٍ وفكّر في حلٍ مقنع كما عودتني منك كأحد أصحاب العقول والحلول.

****

اقتربت (ماوية) من (رحيق) وهي تزيد من سرعة ركضها تحت شمس الظهيرة الحارقة لتجاورها في ركضها، التفتت (رحيق) لـ(ماوية) حين صارت بمحاذاتها ونظرت إليها قائلة:

- أشعر بأنكِ تريدين قول شيء لي منذ الصباح.
- اخفضي صوتك ولا تكوني بهذا الغباء.

توقفت (رحيق) عن الركض لتنظر إلى (ماوية)، لكن (ماوية) لم تتوقف بل تابعت الركض دون أن تلتفت لها، فعادت (رحيق) للركض بالسرعة التي مكنتها من أن تكون بمحاذاتها ثانيةً قائلة:

- ها قد خفضت صوتي.. ماذا تريدين؟
- تحدثي بصوتٍ منخفض دون أن تلتفتي أو تنظري لي.

صمتت (رحيق) متابعةً الركض بجوار (ماوية) دون أن تنظر لها، فتمتمت (ماوية) قائلة:

- أي مصيبة قد فعلتِ بالضبط؟ أراكِ صغيرة السن لأن تكوني بتلك الأهمية وتكون عليكِ تلك العيون المتابعة لكل حركة تقومين بها.

تابعت (رحيق) الركض بذات السرعة وهي تنصت لـ(ماوية) التي أردفت:

- هناك مصيبة بانتظارك إن حَلَّ عليكِ الليل بالزنزانة.

توقفت (رحيق) عن الركض وقد أذهلتها الكلمات لكن (ماوية) لم تتوقف وتابعت الركض، التقطت (رحيق) أنفاسها وأسرعت في الركض لتجاور (ماوية) والتي تابعت حديثها قائلة:

- سأعطيكِ بضع حبيبات خلال وقت الاستحمام بعد الركض، لابد لكِ من ابتلاعها كلها، ستحدث لكِ تسممًا خفيفًا.. لا تخافي فهو مؤلم فقط وليس مميتًا، صرخاتك التي ستنطلق لتملأ ليل السجن الوردي ستجعل الطبيب يزورك الليلة ويقرر لكِ المبيت بمستشفى السجن لبضع ليالٍ ، لا تتفوهي بأي شيء عني مهما كانت الظروف كي لا تتسببي لي بأذى لا قبل لي به.

- وهل لي أن أعرف لماذا تعرضين نفسك للخطر من أجلي؟

- ربما كانت حماقة بالفعل مني قد أجلب لنفسي الضرر بها لكن يصعب على من ذاق مرارة الغدر والظلم بأن يشاهده يتكرر مع غيره دون محاولة دفعه عنه أو إنقاذه ... والآن زيدي من سرعتك لتركضي بعيدًا عني وحاولي خلال الفترة المتبقية أن تركضي إلى جوار أكبر عدد من السجينات وأن تفتحي معهم موضوعات للحديث حتى لا يُعرف بأنني الوحيدة التي تحدثت معكِ اليوم.

****

اللقاء الثاني مع (شلهوب) جرى بعد أن أفاق من نومٍ عميق بذلك الفراش الوثير وشاهد عبر تلفاز الجدار الكبير زوجته وأبناءه يقضون أوقاتهم بسعادة وبلا قلق وكأنه وسطهم تمامًا. قضى الوقت منذ الصباح يفكر في المهمة الجديدة ، طلب قدح القهوة الثالث فإرتفع الصوت من سماعات الجدار قائلًا:

- أوجدت الراحة والنوم العميق لدينا يا (شلهوب)؟

- بلا شك سيدي.
- اخبرني بما دار برأسك من أفكار حتى الآن.
- هل لي بسؤالٍ أولًا؟
- تفضل.
- لماذا لم تكون الكتيبة من أي مكان خارج المملكة وما الحاجة لأن تكون من كوكب آخر غير كوكبنا؟
- لو كُشِفَ أمرنا أو فُضِحَ عند حدوث أي خطأ ستكون مصيبة كبرى سأحاكم معها بتهمة الخيانة العظمى لتكون عقوبتي الموت حرقًا طبقاً لقوانين لاميتا ناهيك عما قد يحدث لي عند معرفة السهم القرمزي بالأمر وأني بدأت العمل لحسابي.. وكرجل عصابات يملك سنوات طويلة من الخبرة أؤكد لك بأن أمر كهذا وارد الحدوث بنسبة كبيرة ومع العنف والتعذيب للمرتزقة من أي مكان آخر خارج مملكة لاميتا سيعرف كل شيء بدءًا من كيفية إحضارهم وما تم الاتفاق عليه معهم وصولًا لأدق أسرار حياتهم الخاصة، لكن شيئاً من هذا لن يحدث إن كانوا من كوكبٍ آخر ، ستبدأ المفاجآت بعدها في الظهور واحدة تلو الأخرى عند العرض على الأطباء بدءًا من فصائل دموية مختلفة لا نعرفها كما حدث في المرة السابقة وصولًا لمفاجآت التشريح الداخلي لأجسادهم وما قد تحمله أجسادهم من الداخل من اختلاف عنا لأنهم يشبهوننا في الشكل الخارجي فقط.. وسيكون هذا أوسع باب للنجاة بالحديث عن غزو من كوكب آخر أو سرقة كنوز كوكبنا أو مؤامرة حقيرة من أي نوع أو اختطاف بعض سكان كوكبنا كفئران تجارب .
- بدأت أفهمك.
- والآن اخبرني بما دار بعقلك حتى الآن.

- يمكننا التحرك في مسارين يا سيدي.

- لم أفهم.. ماذا قصدت بالتحرك في مسارين؟

تناول (شلهوب) رشفة من القهوة التي أحضرتها الخادمة وهو يردف قائلًا:

- المسار الأول هو الانتقال بالمسافر الأيوني إلى كوكب يعد سكانه من أقرب الكواكب شبهًا بنا يُسمى الأرض والمعدن النفيس لديهم هو الذهب وهو كما تعلم كثير وبلا قيمة لدينا هنا .

- اكمل يا (شلهوب).

- سترشح أحد رجالك ممن ليس بالقيمة الكبيرة لديك فإحتمال التضحية به وارد إن ساءت الظروف ، سنعطي الرجل حبوبًا سنخبره بأنها مانعة للقيء والدوار على كوكب الأرض ستسبب له الوفاة وستبدأ أعراضها في الظهور بعد أسبوعين تقريبًا من وصوله، إن نجحت المهمة وعاد لنا قبل نهاية الأسبوعين فسنعطيه الترياق لنبطل مفعولها، وإن فشلت المهمة فستنتهي مهمته هناك نظيفة بلا أذيال بوفاته.

- هذا هو المسار الأول، فماذا عن المسار الثاني؟

- تعلمنا منك بأن لا وجود للمستحيل مع الإصرار، وأن الكبير يصغر والصعب يسهل مع الوقت.. المسار الثاني هو أن تجد وسيلة لسرقة السترة مانعة التبعثر كما نجحت من قبل في سرقة المسافر الأيوني وفاحص القدرات وعندها سأتمكن بعد ارتداء السترة من السفر للكوكب المطلوب لأنفذ المهمة بنفسي.

* * * *

(١٩)

عدت للمنزل وقد أربكني كثيرًا ما حدث، عيون (إنجي) التي انتظرتها أن تشع سعادةً بطرقتي الأولى على باب قلبها لم تحمل سوى صمتٍ بلا تعليق وتجاوزت بعينيها وردتي وكأنها غير موجودة لتتركني في حيرة.. لا أدري أين الخطأ وما المشكلة؟! ، مرَّ اليوم ثقيلًا مع تلك البداية المحبطة، لم تسعفني شجاعتي التي أفقدها حين تتعلق الأمور بـ(إنجي) ولساني الذي ظلّ في وضع الاستعداد لإجابة أسئلتها عن الوردة زهد تمامًا في الإجابة حين جاءت الأسئلة من (عادل) و(فادية) بدلًا عن (إنجي) التي بقيت على صمتها مكتفية بادعاء الانشغال بالعمل.

صفعة الإحباط التي تلقيتها من (إنجي) صباحًا أفسدت حالتي المزاجية طوال اليوم. وجدت الرفاق عند العودة للمنزل مجتمعين أمام التلفاز يتابعون المباراة الحماسية للمنتخب، اجتماعهم بتلك الصورة في صحن الدار كان من الأمور التي لا تحدث إلا نادرًا ، فـ(كمال) و(همَّاس) يقضون غالب وقتهم في غرفهم المغلقة، والفارق الوحيد بينهم أن (كمال) يتعمد إغلاق غرفته عليه من الداخل كفتاة في طور المراهقة.

بدلت ثيابي وجلست وسطهم أتابع المباراة، الحماس كان متأججًا و(أوَّاب) جالس بيننا يتابع المباراة هو الآخر ويصرخ في (كمال) مطالبًا إياه بالتوقف عن السباب والاستغفار مع كل سبةً يطلقها على أحد اللاعبين حتي غادرنا للصلاة بالمسجد مع ارتفاع الأذان، شردت بعقلي لاعنًا حظي العاثر وغياب الابتسامة التي انتظرتها على وجهها اليوم

لتؤكد لي سماعها لطرقتي الأولى على باب قلبها. انتهت المباراة وعاد (أوَّاب) من الخارج بعد أداء الصلاة بالمسجد ليشاركنا جلستنا من جديد ونحن نرشف القهوة والشاي مستأنفين الحديث عن المباراة والفرص المهدرة وأخطاء التشكيل، قاطعنا (أوَّاب) قائلًا:

- جيد أن تذكرت.. فهناك أمر أرغب بعرضه عليكم والحمد لله أنكم جميعًا موجودون.

تبادلنا النظرات بيننا قبل أن نعود بعيوننا لـ(أوَّاب)، رمقه (كمال) بحذر قائلًا:

- إن كانت موعظة دينية فأخبرني لأغادر وكأني ما زلت نائمًا.

أردف (همَّاس) هو الآخر مضيفًا:

- وإن كنت تريدني لخوض مشاجرة معك أو ترغب في الاستعانة بخدماتي في المعارك أو التمتع بحمايتي فاعلم بأن خدماتي ليست مجانية دون مقابل ، وعليك بدعوتي قبلها لوليمة دسمة تنفض عني الكسل وتمنحني الشجاعة الكافية للدفاع عنك بقوة وحماس.

أضحكتنا كلمات (همَّاس) فأردف (أوَّاب) باسمًا:

- يسعدني وشرف عظيم لي أن يعرض عليَّ أَسَدُ الجِبَالِ حمايتي، لكن ما أردت عرضه عليكم ليس موعظة أو مشاجرة كما ظننتم.

توقفت نظراتنا على (أوَّاب) في صمتٍ بانتظار أن يكمل حديثه فأردف:

- تعرفون (ساجد).. ذلك المهندس الشاب بالطابق الأول، قابلته بعد خروجي من الصلاة وتحدثنا طوال طريق العودة للمنزل فأخبرني بأنه يفكر في ترك شقته والانتقال للسكن معنا، وطلب مني أن أسألكم إن

كنتم تقبلون ذلك وطلب مني أن أبدأ بسؤالك يا (زياد) أولًا.. وها أنا أسألكم.. فما رأيكم لأبلِغه؟

اتجهت نظراتهم نحوي ينتظرون سماع ردي فأجبت في حِدّة هاتفًا:

- لا.. أنا غير موافق بأن يشاركنا (ساجد) هذا السكن...

قاطعني (أوَّاب) قائلًا:

- الفتى مهذب للغاية يا (زياد) ومعروف بخلقه الطيب للجميع في الحارة ويصلي في المسجد باستمرار .. فأين يمكننا أن نجد رفيقًا للسكن كهذا ؟!

تمتمت في حسم قائلًا:

- كل ما قلته الآن لا يهمني .. فأنا لا أريده ولا أقبل بسكنه معنا وبيننا خلاف قديم كدنا نصل فيه للشجار والتشابك بالأيدي عند لقائنا الأول.

تمتم (أوَّاب) في استسلام قائلًا:

- الرجل طلب رأينا .. وسأخبره برفضك إن أردت.

تمتم (همَّاس) قائلًا بنبرة الحكماء العالمين بخفايا الأمور قائلًا:

- أيريد السكن معنا مع الاحتفاظ بشقته لحاجة في نفس يعقوب.. أم سيترك شقته ليسكن معنا ؟

قاطعت (همَّاس) قائلًا:

- أعجبتني "حاجة في نفس يعقوب" هذه، كلمة لا تصدر إلا عن مثقف بحق، كم وددت لو عرفت أشياء أكثر عنك مثل تعليمك وعملك، أشياء أخرى غير اسمك الشيء الوحيد الذي أعرفه حتى الآن عنك! لكنك تغضب عند أي سؤال عنك وكأنها أسرار حربية يحظر إفْشَاؤُها!

ارتسمت الجدِّية على ملامح (همَّاس) وهو يجيبني بجِدَّة قائلًا:

- من فضلك يا (زياد).. دَعِ الفضول بشأني جانبًا واكتفي بِمَا أرويه أنا لك عن نفسي .. وهذا ما أراه الأفضل لكلينا.

أذهلني إندفاع (كمال) للدخول في الحوار قائلًا:

- كما لم تخبرني أنت بأي شيء عن مشوارك الصباحي أيها المغرم العاشق ولم أدس أنا أنفي بسؤالك تاركًا لك الحرية إن شئت رويت وإن لم تشأ فهو شأنك.. فدع أنت كذلك الفضول جانباً فيما يخصني أنا و(همَّاس) ولا تقحم نفسك في أموره التي يُفضل أن تبقى مغلقة عليه.

لزمت الصمت مع كلمات (كمال) المفاجأة والتي وقعت كصفعةٍ على وجهي لم أدرِ معها بماذا عليَّ أن أجيب بعد وصفه لي أمام الجميع بالمغرم العاشق في مفاجأة غير متوقعة أربكتني تمامًا وسط نظراتهم التي ترمقني بذهول، اخترت الصمت كأفضل الحلول محاولًا إخفاء الارتباك الذي بدا على ملامحي، تابع (كمال) حديثه وهو يبتسم قائلًا:

- ظننتني لن أرى تلك الوردات الحمراء التي اشتريتها بعدما طلبت مني التوقف بالقرب من محل الورود، وأنا الذي كنت أسأل نفسي حائرًا لماذا اختار التوقف هنا وماذا أراد أن يشتري في هذا التوقيت والمكان.. أيكون مدخنًا ونحن لا ندري؟! لكن رائحة الورود الجميلة التي حضرت معك فضحتك رغم تعمدك إيقافي بعيدًا عن محل الورود، لم أشأ سؤالك لماذا أوقفتني بعيدًا عن محل الورود وليس أمامه أو لماذا أخفيت الورود التي اشتريتها عني وهي في النهاية ليست سوى ورود وقلت لنفسي ببساطة طالما أنه لم يخبرني بنفسه فهذا شأنه ولا داعي للفضول.

أشعرتني كلمات (كمال) - التي جاءت كطلقة أصابت هدفها تمامًا - بالحياء والحرج بعد تسريبه لأخبار مغامرة الورود الصباحية، لم أجد أي إجابات مقنعة يمكن أن أقدمها لهم كدفاع عن نفسي أمام نظراتهم التي حاصرتني في غير تصديق أن يصدر هذا مني ولأبدو أمامهم كمراهق مرتبك يخطو خطواته الأولى بخجل في دنيا الحب!

اعتذرت بلطف لـ(همَّاس) وأني لم أقصد شيئًا وأن الأمر ليس فضول ودسٌّ لأنفي فيما لا يعنيني كما ظنّ بقدر ما هو حب للتعرف به أكثر كرفيق سكن طيب لم أرَ منه سوى كل خير، أعطيته وعودي من الآن فصاعدًا بعدم السؤال عنه ثانيةً والاكتفاء بما يخبرني هو عن نفسه.

حاولت الاتصال بـ(هاني) وكأن هاتفه أراد أن يساهم هو الآخر في زيادة كآبة يومي بعدم إجابته ، أظنها عين (كمال) الحاسدة هي من أفسدت يومي بهذا الشكل البشع. ارتفع رنين الهاتف بمكالمة هامة من طاقم برنامج "العقول الذهبية" يخبرونني بأن الأسبوع القادم موعد بدء حلقات الموسم الجديد ، وأن عليَّ أن أكون على استعداد للحضور عند استدعائهم لي، شكرتهم لإخباري بهذا وأنهيت معهم المكالمة فهذا أول شيء جيد يحدث لي اليوم.

طرقاتٌ على باب غرفتي أعرف صاحبها جيدًا ، دخل (أوَّاب) قائلًا:

- هل لي في دقائق من وقتك.. أردت الحديث معك قليلًا قبل النوم.
- بالطبع يا (أوَّاب) يمكنك الحديث معي متى شئت وبلا استئذان.
- أريدك أن تنظر لموضوع سكن (ساجد) معنا من زاوية أخرى.

تقلَّصت ملامحي وبدأ الغضب يظهر على وجهي فأردف (أوَّاب) قائلًا:

- كلمات قليلة أردت قولها لك قبل النوم فدعني من فضلك أكملها للنهاية بلا مقاطعة .. وخذ وقتك بعدها للتفكير فيها كما تشاء بهدوء وبلا انفعال فلن يجبرك أحد في النهاية على فعل ما لا تريد.

تنهدّت في ضيق قائلًا:

- تفضل يا (أوَّاب).. هات ما عندك... فأنا أسمعك.

- أعجبني تصرف (ساجد) وهو يطلب الإذن بالسكن معنا ومنك أنت تحديدًا على وجه الخصوص، أراه تصرف محترم من وجهة نظري فليس أيسر لو أراد للأمر أن يتم من الاستعانة بالمعلّم (صبحي)، ساعتها لن يستطيع أيٌّ منا التفوه بكلمة واحدة فشقة الطابق الأخير التي نسكنها كبيرة وبمساحة الطابق بأكمله وبها غرف مغلقة تسع (ساجد) وآخرين معه لو أراد صاحب الشقة المعلّم (صبحي) ذلك.

صَمتُ قليلًا أفكر في كلماته فأردف مُكمِلًا:

- هو لم يرد للأمور أن تسير رغمًا عنا وفضَّل بأخلاقه الطيبة استئذاننا واستئذانك أنت بشكلٍ خاص لذلك طلب مني إخبارك برغبته في الاعتذار لك على ما بدر منه تجاهك في ذلك اليوم أولاً ، دع الغضب جانبًا وأعد التفكير بالأمر من فضلك .

الصورة بدت مختلفة أمامي كثيرًا و(أوَّاب) يعرضها هذه المرَّة فلو أراد (ساجد) بالفعل حسم الأمر لأنهاه بكلمة واحدة مع المعِّلم (صبحي) لأَجِدَ نفسي بين خيارين أيسرهما مُر، إما القبول بسكنه معنا رغمًا عن أنفي لأبدو صغيرًا أمام الجميع أو الرحيل تاركًا المكان بأكمله

ليأتي المعلّم بساكن آخر يحل محلي، شكرت (أوَّاب) لنصيحته فهزَّ رأسه في مودَّة قائلًا:

- لا داعي لذلك فنحن إخوة.

همَّ (أوَّاب) بمغادرة الغرفة والذهاب للنوم لكنه التفت لي قبل أن يغادر الغرفة قائلًا:

- لا تغضب من (كمال) و(همَّاس) والحوار الذي دار بينكم اليوم فهما صديقان حميمان هكذا منذ قدمت أنا عليهما ولو أنك سألتني لأخبرتك بألاَّ تسألهما عن أي شيء خاص بهما أبدًا وأن ما أعلمه أنا عنهما هو نفس ما تعلمه أنت تمامًا رغم أنني أزاملهما في السكن قبلك بكثير فهما لا يتحدثان في شئونهما الخاصة مع أحد أبدًا ، الحوار معهما يقتصر على أمور المعيشة كالطعام والشراب والسكن لا أكثر.

حاولت الاتصال بـ(هاني) من جديد بعد مغادرة (أوَّاب) ، جاء صوته مرهقًا مفعمًا بالنوم ، اعتذر لسفره وأنه عاد منهكًا للغاية فنام مباشرةً وأن أول ما كان ينوي فعله عقب يقظته هو الاتصال بي، بدأت أروي له ما حدث وفكرة الوردة التي قفزت لعقلي فجأة واخترتها لتكون خطوتي الأولى وكيف كنت أتمتع بالصبح والكلب قابع فوق صدري يرغب الفتك بي وتمزيقي بأسنانه لولا نداء صاحبه الذي أنقذني، رويت له كل ما جثم على صدري من ضغوط فجاءت كلماته الهادئة لتهبط على قلبي كالبلسم، أخبرني بأن الأمر بسيط ولا داعِ لكل هذا القلق فقد يكون البواب هو من أحبط مخططي بكل بساطة بإلقائه الوردة بعيدًا عن السيارة أثناء تنظيفه لها صباحًا قبل ذهابها بها للعمل وهكذا فهي

لم ترَ أي وردة من البداية ، أو أنها رأت الوردة بالفعل لكن رؤيتها للوردة أربكتها فلم تعرف كيف تتصرف فبدت أمامي بهذا الاضطراب.

****

لم تعرف (إنجي) ماذا عليها أن تفعل بعد ما حدث لها اليوم، غرق عقلها في الحيرة والتفكير فيما حدث هذا الصباح والهوة التي أسقط (زياد) فيها نفسه!.. لماذا فعلت هذا يا (زياد)؟ كلمات كانت ترغب أن تصرخ بها في وجهه بأعلى صوتها، (زياد) الذي استطاع أن يجد الطريق السحري لقلبها ليمنحها وجوده بجوارها وقربه منها سعادة وشعورًا بالثقة والأمان يزداد يومًا بعد يوم بعد أن وجدت معه أمورًا قد يقضي أناس أعمارهم في البحث عنها دون أن يجدوها ، سعادتها لم تدم طويلًا وكأن الحزن كان يتربص بها ويرقبها في الخفاء منتظرًا اللحظة المناسبة للانقضاض عليها وإفساد سعادتها و(زياد) قد أتى اليوم بهذه اللحظة بحماقته.

كان والد (إنجي) يتناول إفطاره باكرًا كعادته بينما أنهت (إنجي) حمامها الصباحي قبل ذهابها للعمل، جلبةٌ وصياحٌ في الخارج مزَّقا صمت وهدوء الصباح، وقفت (إنجي) إلى جوار والدها وهو يتناول جهاز التحكم ويفتح التلفاز ليتابع المشهد الذي تعكسه كاميرات المراقبة خارج الفيلّا ليرى بعينه مصدر الجلبة والصياح وذلك الشاب المذعور الذي يركض بأقصى سرعته في ذعرٍ و(ماكس) الكلب اللطيف لمستر (جيمس) يركض خلفه حتى أسقطه، تحولت ابتسامة والد (إنجي) لضحكات وهو يتابع في استمتاع تطور المشهد فهو يعلم جيدًا أن الكلب (ماكس) كلب لطيف وليس مؤذيًا على الإطلاق، وأن ذلك

الشاب الخائف ربما لم يفهم أن الكلب أراد فقط مداعبته واللهو معه قليلًا وليس مهاجمته والانقضاض عليه.

لو أن المشهد توقف وانتهى هنا لكان يمكن للأمور أن تمضي بسلام كبداية لطيفة مسلية لليوم، تابع والد (إنجي) إفطاره بمذاق ومتعة المشاهدة لحدث جديد مختلف هذا الصباح، نهض الشاب يسب ويلعن الكلب وصاحبه في غضب وهو ينفض الغبار عن ثيابه محاولًا استعادة هندامه الذي تبعثر، المشهد بدا مسليًا يستحق المتابعة لكن ذلك لم يدم طويلًا بعد أن رفع الشاب رأسه محملقًا في اللافتة الرخامية الكبيرة لمدخل الفيلّا وبدأ بعدها في الدوران حول الفيلّا يرمق الغرف بعينيه، تابع والد (إنجي) حركة الشاب حول الفيلّا متنقلًا في متابعته من كاميرا لأخرى وقد تسلل إليه القلق والشك في هذا الشاب الذي يدور الآن حول الفيلّا، أهو لصٌ اختار هذا التوقيت الهادئ من الصباح ليجري معاينة واضحة للفيلّا في ضوء النهار؟ استمر الشاب في الدوران حول الفيلّا و(إنجي) ووالدها يواصلان المتابعة.

انصرف الشاب مغادرًا أخيرًا لكنه ترك لهما في المشهد الأخير قبل انصرافه المفاجأة التي أربكت كل حساباتهما ، المشهد أذهل (إنجي) ووالدها يلتفت إليها في حِدَّة سائلًا:

- أتعرفين هذا الشاب؟
- لا.

خرجت الكلمات من لسانها بلا تفكير بعد أن أذهلتها المفاجأة وأربكها سؤال والدها ولم تعرف بماذا تجيب وهي من تابعت المشهد

في صمتٍ من أوله لآخره وكأنها لا تعرف الشاب، ظنَّت أن (زياد) ربما أراد استغلال صمت وهدوء الصباح الباكر ليرى ويتعرف على المكان الذي تسكن به وسينصرف بعدها في صمت وهكذا ظلت تتابع المشهد بهدوء واطمئنان في أمانٍ تام حتى حدث ما لم يخطر ببالها ، ظنَّت المشهد سينتهي بانصرافه فإذا به يُخرج وردة حمراء جميلة قبّلها بحنان قبل أن يضعها أسفل مسَّاحة زجاج سيارتها و ينصرف، تجمدت الكلمات بحلقها في ذهول مع سؤال والدها ، لن يمكنها أن تخبره الآن بأن الشاب الذي ظلت تتابعه في صمتٍ منذ بداية المشهد هو (زياد) زميلها في العمل والمشرف المباشر على تدريبها.

لا شك بأنه أحد أسوأ أيام حياتها، قضت يومها تشعر بتأنيب الضمير وهي من لم تعتد الكذب على والديها ، اليوم فعلتها لأول مرة بلا ترتيب بإنطلاق لسانها ليجيب بسرعة وبلا تفكير ، سألها والدها في عجب:

- لماذا اختار سيارتك أنتِ يا (إنجي) ليضع الوردة عليها من بين السيارات الواقفة وليس سيارتي أو سيارة والدتك؟! لو لم يعرفك هذا الشاب معرفة مباشرة فهناك من يعرفك وأرسله ليفعل ذلك نيابةً عنه.

خرج والد (إنجي) بسرعة ليستقل سيارته ويجوب الشوارع المحيطة بحثًا عن (زياد)، لكنه كان قد اختفى من المشهد تمامًا وكأنه قد ذاب.

* * * *

(٢٠)

ثلاثة أيام قضتها (رحيق) بالمستشفى بعد تنفيذ ما نصحتها به (ماوية)، تناولت حفنة الأقراص وابتلعتها مع جرعة من الماء دفعة واحدة بسرعة وبلا تفكير ليبدأ تأثيرها بعد إغلاق الزنازين بما يقارب الساعة، انطلقت صرخات الألم من (رحيق) هادرةً لتملأ المكان، تفاعلت غالبية السجينات في زنزانتها والزنازين الأخرى مع صرخاتها بالطرقات القوية على الأبواب والصراخ طلبًا لحضور الطبيب.

حضر الطبيب لتسير الأمور كما خُطِّط لها ويقرَّر الطبيب نقلها للمستشفى بعد فحصها، لم يخبرها الطبيب عن الوصف الطبي الدقيق لحالتها لكنها مكثت هناك تتلقى العلاج لثلاثة أيام إلى أن أخبرها الطبيب اليوم صباحًا بأنَّ حالتها مستقرة وستعود للسجن الوردي اليوم.

ماذا كان سينتظرها لو مكثت بزنزانتها ولم تبتلع حبات الدواء كما نصحتها (ماوية)؟ سؤال دار بعقلها ولم تعرف له إجابة!.. لماذا وثقت بـ(ماوية) لهذا الحد فنفذت ما طلبته منها بلا نقاش؟ سؤال آخر لم تملك له إجابة سوى أنها شعرت بالراحة لها والثقة بها وبكلماتها رغم قناعتها بغباء ما فعلته وأنها لو سمعت ما حدث كرواية من أحد آخر لانتابها العجب فكيف لأحد أن يقول لها ابتلعي هذا الدواء فتبتلعه بمثل هذه البساطة! أمَّا أسوأ الأسئلة التي كانت تعصف بعقلها داخل العربة العائدة بها فكان ما الذي ينتظرها بعد عودتها؟؟ لقد وجدت (ماوية) لتنصحها وتقف بجوارها في المرَّة السابقة فمن عساه سيكون معها ويقف بجوارها فيما قد يحاك لها في المرَّات القادمة؟!

توقفت العربة وبدأت السجينات العائدات لمحبسهن في النزول، قطعت (رحيق) خطواتها برفقة إحدى السجَّانات لتتجاوز الباب المعدني الكبير لعنبرها ولتجد بانتظارها حال دخولها تلك السجَّانة الضخمة وهي تشدها من يدها للداخل في فظاظة قائلة:

- لماذا تأخرتِ علينا أيتها البغي الخجول؟

****

في القاعة الخاصة التي أعدها (جسَّار) كمقر لاجتماعاتهم جلس (راجي) - المرشح الذي تم اختياره لتلك المهمة - يراجع مع (شلهوب) تعليمات الليلة الأخيرة قبل بدء المهمة فجر الغد وبعد أن قضى ما يقارب الأسبوعين يصغي ويدون كل ما يقوله (شلهوب) من توقعات وتحذيرات من أشياء قد تحدث له على ذلك الكوكب المسمى بالأرض، والذي تم الاتفاق بأن يكون هو محطة السفر بالمسافر الأيوني هذه المرَّة.

تمتم (شلهوب) مكررًا في حسمٍ من جديد:

- النقطة (أ) بالغابة المَشْؤومة ستكون هي نقطة الانطلاق وبداية الرحلة غدًا، ولا نعرف بدقة الإحداثيات الدقيقة لنقطة العودة، لكن أغلب الظن بأنها ستكون أيضاً داخل الغابة المَشْؤومة.

نظر (شلهوب) لـ(راجي) يتأكد من إصغائه قبل أن يردف:

- الأدوية التي معك شديدة الأهمية حافظ عليها بنفس ترتيبها دون خلطها أو العبث بالأكواد الملصقة عليها لأنها تمثل منظومة من الحلول لمشاكل قد تقتضي الضرورة استخدام أي منها بأي وقت، ستبدأ غدًا صباحًا قبل بدء الرحلة بأخذ مانع القيء والدوار، تذكر عدم الإفراط

في استخدام حبوب النوم أو اليقظة، وأن يكون استخدامها عند الضرورة وبشكل معتدل...

قاطعه (راجي) وقد بدأ يسأم تكرار الكلام قائلًا:

- سيكون معي جهازين كل منهما بحجم الهاتف تقريبًا، الأول هو جهاز الاتصال بيننا، والثاني هو المسافر الأيوني، وعليَّ الحفاظ عليهما جيدًا وتذكر اجراء الشحن الملائم لهما هناك سواء أكان الشحن الهوائي أم الضوئي طبقًا لما سأجده الأنسب هناك...

قاطعه (شلهوب) رافعًا الجهاز الثالث وهو يقول:

- نسيت جهاز فاحص القدرات لفحص قدرات الأرضي الذي أمامك، ثبّت المؤشر على الاختيار المطلوب ووجه عدسة الجهاز تجاه من تريد فحصه دون أن تشعره لما يقارب الدقيقة، وستظهر نتيجة قياس القدرة المطلوبة بالجهاز سواء أكانت الذكاء أم القوة.

- وماذا أفعل إن لم أجد من تتجاوز معدلات الذكاء والقوة البدنية لديهم الـ٨٥%؟

- لم نرسلك لكوكب يقدَّر تعداد سكانه بالملايين لنسمع منك هذا الكلام أو لتعود إلينا من هناك بحفنةٍ من الضعفاء الأغبياء !!

- وماذا سأفعل لو لم أجد من يحملون الصفتين معًا؟

- رحلتك ليست قصيرة ليوم أو اثنين، معك الوقت الكافي لتجد من يفوق ذكائه وقوته المعدل المطلوب، الجهاز سيسمح بعودتك ومعك ما يقارب من ٢٥ إلى ٣٠ فردًا طبقًا لأوزانهم لذا المخالفة لا بد أن تكون في أضيق الحدود باختيار أذكياء بنسب مقبولة في القوة أو أقوياء بنسب مقبولة في الذكاء.

- ماذا لو لم يحملهم الجهاز جميعًا؟

- الجهاز سيحمل منهم بقدر أوزانهم وطاقته، لكن المهم هو اختيار مكان فارغ خالي من أي شيء عدا أفراد الكتيبة المختارة ، مكان خالٍ كصحراء أو طريق مهجور خالٍ من السيارات أو سطح فارغ لإحدى البنايات، خلو المكان أمر هام للغاية حتى لا يعود لنا الجهاز بأشياء لا نريدها بدلًا من الأشخاص.

- أهناك احتمال بأن يترك الجهاز بعضهم فلا يحملهم معنا في الرحلة؟

- أمر وارد الحدوث مع زيادة الأوزان أو الأعداد، لكن لا تقلق وتذكّر ما أخبرتك به عن أهمية الأكواد المرفقة بمجموعات الأدوية التي معك، وضع بضع حبيبات من دواء (فيرامونا-٤٩) في مشروب وتقديمه لهم قبل بدء رحلة العودة سيطمس الأسابيع الأخيرة من ذاكرتهم ليفيق من لم يحمله المسافر الأيوني معكم شاعرًا بتشويش ذهني رهيب يقارب النسيان.

- ماذا لو اختار المسافر الأيوني أن يتركني أنا؟!

ابتسم (شلهوب) وهو يجيبه قائلًا:

- لاتقلق فأنت أول العائدين إلينا لأنك أنت من سيشغل الجهاز ... والآن اخبرني بأول ما ستفعله حال وصولك.

- سأتناول العقار (صموتيقظ) والذي سيبقيني يقظًا أخرس بلا نوم ليومين لن أستطيع خلالهما النوم أو الحديث بلغتي تحت أي ظرف أردت أو لم أرد.

أومأ (شلهوب) برأسه مؤيدًا وهو يقول مردفًا:

- اكمل.. وماذا ستفعل بعد ذلك؟

- سيكون المسافر الأيوني معي في وضع الإنصات، وسأتحرك بأكثر الأماكن تكدسًا بالسكان كالأسواق، وسأبقى متحركًا دون توقف حتى أتيح للمسافر الأيوني أن يلتقط ويترجم أكبر كَمٍّ من لغتهم التي يتحدثونها ومع بدء اليوم الثالث سأضبط الجهاز على وضع نقل اللغة ليبدأ في نقل ما عرفه من لغتهم لي وليصبح بإمكاني الحديث مثلهم مع زوال تأثير عقار الخرس.

- جيد.. هيا تابع.. وبعد ذلك؟

- سأبيع بعض السبائك الذهبية للحصول على أموال يمكنني بها استئجار المكان الذي سيكون مقر إقامتي هناك.

- ليس سبائك وإنما سبيكة واحدة فقط لدى صائغ واحد، وإذا وجدت الأموال غير كافية ولا بد من بيع أخرى فليكن ذلك لدى صائغ آخر وليس نفس الصائغ حتى لا تثير الشبهات حولك بما تحمله من أموال فالذهب ثروة بالنسبة لهم.. هل فهمت؟

أومأ (راجي) برأسه علامة الموافقة مردفًا:

- سأستأجر بعدها المكان المناسب لإقامتي، طابق علوي بعيدًا عن الزحام قدر المستطاع لأبدأ بعدها مهمتي بجمع أفراد الكتيبة.

- ستُبقي المسافر الأيوني طوال فترة تواجدك هناك في وضع الإنصات للغتهم وعند المساء فقط ستغير المؤشر لوضع نقل اللغة لينقل لك كل يوم المزيد من لغتهم فتزداد حصيلتك منها، ولا تنسى أن تعيده لوضع الإنصات من جديد صباحًا، وتذكر جيدًا الأهمية الكبرى لذلك لأنه سيقوم بالدور العكسي في رحلة العودة بنقل لغتنا نحن لهم ليمكنهم فهمنا والحديث معنا عند وصولهم لهنا.

ارتفع صوت (جسَّار) قائلًا:

- ألا يكفي هذا يا (شلهوب).. نحتاجه يقظًا غدًا وأريده أن يذهب للنوم الآن.

أجاب (شلهوب) في لامبالاة قائلًا:

- يمكنه الذهاب بالطبع فقد قلنا كل شيء تقريبًا طوال الأسبوعين الماضيين، وما نفعله الآن ليس سوى تذكير ببعض النقاط الرئيسية فقط.

تمتم (جسَّار) في حسمٍ قائلًا:

- إياك ثم إياك أن يحدث أي شيء لهذه الأجهزة أو يصيبهم تلف يا (راجي) فنحن لا نملك سواهم، ولولا الأهمية القصوى لتلك المهمة وثقتي الكبيرة بك لما خاطرت بفعل ذلك.

تمتم (راجي) بحسم مؤكدًا:

- أعدك بأن أحافظ عليهم حفاظي على حياتي ذاتها لتنجح المهمة ولأستطيع العودة لعالمي واستئناف حياتي الطبيعية هنا ثانيةً.

تمتم (جسَّار) في حسمٍ قائلًا:

- اذهب للنوم الآن أريدك غدًا صباحًا يقظًا حاضر الذهن كنت أود أن أرسل معك من يعاونك، لكن طمعي في أن أجلب معك أكبر عدد من المقاتلين جعلني أقرر الاكتفاء بك.

****

نفث (صفوان) الدخان من فمه بضيق وهو يروي لـ(غيَّاث) تدهور الأوضاع وعدم وصوله لأي جديد وخشيته الشديدة من غضب (برهان)، رفع (غيَّاث) رأسه لـ(صفوان) في سأم حاول إخفاءه وهو يراه لا يسأم إعادة نفس الكلام بلا ملل ، تمتم (صفوان) في ضيق:

- تغير (برهان) كثيرًا فزاد ظلمه وأصبحت يده أكثر بطشًا بعد أن صار رأس مطرقة!

أجابه (غيَّاث) وهو ينظر لبعض الأوراق أمامه قائلًا:

- ما تراه أنت ظلمًا أراه أنا الغضب الرحيم فبغير هذا لن تدار الأمور.

- أخشى يا (غيَّاث) أن تدور الدائرة علينا أيضًا لنجد أنفسنا علي موعد مع تذوق غضبه الرحيم هذا.

- من يخطئ يستحق العقاب.. تلك هي القاعدة ، حاول أن تؤدي عملك بلا أخطاء وستكون بأمان دومًا وستجده أول من يسعى لأن تكون إلى جواره بفضل عملك وكفاءتك.

- وصفني في المرّة الأخيرة بأني بدأت أتصرف كالأغبياء وأنا أخبره بمستجدات متابعة (جسَّار)...

قاطعه (غيَّاث) في حسمٍ قائلًا:

- لا تنس أننا أسهم قرمزية ولسنا رجال عاديين وحديثك عن طريقة الحوار أو نبرة الصوت هي أشياء لا تليق بنا كأسهم قرمزية.

- تقول هذا لأنك من المقربين الصفوة لديه ولم يغضب عليك حتى الآن، لكن لو...

- ماذا حدث لك يا (صفوان)؟! من المستحيل أن يغضب علينا لأننا أقرب رجاله فكيف تفكر بأنه قد يغضب عليك أو تتغير مكانتك لديه؟! أفق وانفض عن عقلك تلك الهواجس السخيفة فالأمر لن يتجاوز انفعال وقتي عابر وسط المصائب المحيطة به كرأس مطرقة.

تعالى رنين الهاتف قاطعًا حوارهما، فتح (غيَّاث) المكالمة وهو يبتسم قائلًا:

- قل لي بأنك تحمل أخبارًا جيدة هذه المرّة.

نظر (صفوان) للابتسامة التي بدأت تذبل وتختفي عن وجه (غيَّاث)، والجدية التي بدأت تحل محلها على وجهه وهو يجيب قائلًا:

- ومتى حدث هذا؟

- .....

- جيد أن أخبرتني.

أغلق (غيَّاث) المكالمة وأعاد الهاتف لموضعه على المنضدة أمامه قبل أن يرفع رأسه لـ(صفوان) قائلًا:

- تم إمساك قاتل من كانوا عيوننا لدى (جسَّار)، قاتل مستأجر اعترف بأن الرجل الكبير كلفه بذلك ودفع كامل الأتعاب مقدمًا، وأنت تعلم بالطبع كيف يمكن لكلمة كالرجل الكبير هذه أن تفهم برأس أصغر سهم قرمزي.. فما بالك برأس المطرقة؟!

- ألم أخبرك يا (غيَّاث) بأن الأمور بيني وبين (برهان) تدخل نفقًا مظلمًا وتنزلق من سيء إلى أسوأ.

- كان ينبغي على الأقل أن تكون أنت من يمسك بالقاتل يا (صفوان) وليس أحد آخر.

- وماذا عليَّ أن أفعل الآن؟

- حاول معالجة الأمور بهدوء وحكمة فما أراه الآن لا يعجبني وينذر بأن الذئب قد عاد للمعركة أكثر شراسة.

* * * *

(٢١)

قاربت الساعة الثالثة والنصف بعد منتصف الليل ، و(فاتن) لاتزال مُنكبَّة على حاسب الأستاذ (فهيم) المحمول تكتب وتتابع الكتابة دون توقف بعد أن أعطاها الأستاذ (فهيم) ملفًا يحوي أوراقًا بخط اليد طالباً منها الانتهاء من كتابتها على الحاسب الليلة ليتم طباعتها صباح الغد، لم يكن سهلًا بالطبع أن يعطيها الأستاذ (فهيم) حاسبه المحمول بهذه البساطة، استبقاها أولًا للكتابة على حاسب المكتب وحين تأخر الوقت ولم يعد بالإمكان بقاؤها أكثر وقامت تستأذنه بالانصراف والعودة لمنزلها لعدم استطاعتها التأخر أكثر من ذلك وتعده بالقدوم باكرًا لتُنهي باقي الأوراق، جاء رده شديد البساطة بأن دلف لمكتبه لثواني خرج بعدها حاملًا حاسبه المحمول وقدَّمه لها مع ابتسامة لزجة تملأ وجهه طالبًا منها أن تُكمل وتتابع الكتابة بالمنزل وأنه سيكون بانتظارها في المكتب غدًا باكرًا لأخذ الأوراق منها وطباعتها للذهاب بها للمحكمة، مع ضرورة الحرص كل الحرص على سلامة الجهاز.

تثاءبت بكسل وهي تتحسس بيدها موضع الألم بظهرها، كانت تعتبر الإحساس بالتعب رفاهية لا تليق بمن في مثل ظروفها، أدوية أمها المريضة تستلزم توافر مبلغ ثابت من المال كل شهر بعيدًا عن سائر نفقات المنزل الأخرى من طعام وشراب وفواتير، وأخوها الشاب ذابت قدماه في البحث عن عمل دون جدوى، ووالدها يعمل يومًا ويتوقف عشرة، ولا أحد يعرف كيف يسير هذا المنزل، ديون تتراكم وأوضاع تتفاقم ليزداد الموقف سوءًا يومًا بعد يوم، وما زاد الطين بله

هو أختها التي عادت إليهم ذات ظهيرة باكية بأطفالها لتخبرهم بعيونها الدامعة بأن زوجها قد تركها وغادر الدنيا بأسرها وأنها قد أضحت أرملة، كل سخافات الأستاذ (فهيم) كانت تعتبرها مع الظروف التي تعيشها أمور لا بد من الرضا بها دون تبرم أو اعتراض بل يجب أن تشكر الله عليها وتعتبرها فرصة فازت هي بها يتمناها الكثير ولا يكفون عن الدعاء لنيل مثلها.

دقات المنبّه الرتيبة وتلاوة قرآنية خافتة منبعثة من دكان عم (حسّان) البقّال بالأسفل تؤنسها فلا أحد يَسهرُ حتى هذا الوقت في دكانه سواه ، صوت شخير أطفال أختها النائمين على الأريكة لم يعد يمثل لها أي مشكلة بعد أن اعتادته هو الآخر أمّا ما لم يكن في الحسبان فهو مباراة كرة القدم الحامية الوطيس الدائرة بالأسفل وصوت ارتطام الكرة بالأبواب الصاجية للمحلات المغلقة وسط هدأة الليل وسكونه والذي بدا أشبه بدويّ المدافع وسط صراخ الشباب المنفعل مع المباراة احتفالًا بهدف أو اعتراضًا على خطأ مع فواصل من تبادل السباب البذيء والضحكات الرنّانة.

كم كانت تكره (فهيم) هذا وتعتبر العمل بمكتبه بمثابة عقاب لها أو تكفير عن ذنب شديد قد ارتكبته يومًا ، كانت تسأل نفسها دومًا عن تلك المعصية الفادحة التي استحقت لأجلها ذلك العقاب وهي من ظنت يوم بدأت العمل لديه بأن مكتبه سيكون قِبلةٌ لذوي المظالم ومكانًا لنُصرة العدل بأمل ظلّ يراودها بأنها إن لم تجد من بين رواد المكتب فتى أحلامها فستجد صاحب شركة كبيرة أو رجل أعمال ميسور يضمها لطاقم العمل لديه فإذا بها تفيق على كابوس أن أغلب روّاد مكتب الأستاذ (فهيم) هم حفنة من أصحاب السوابق والأحكام

والمسجلين خطر و المصيبة الأكبر أن الأستاذ (فهيم) يسعد ويعتز بمعرفتهم وعلى اتصال لا ينقطع بهم ويحتفظ بأرقام هواتفهم وعناوينهم عن قناعة تامة بأن لدى هؤلاء تحديدًا ستجد الحلول السحرية التي لن تجدها في مكان آخر.

ألقت (فاتن) نظرة سريعة على الأوراق المتبقية ارتسمت بعدها شبه ابتسامة على وجهها.. حسنًا لم يتبق الكثير، كوب من الشاي الساخن قد يكون معينًا لي على الانتهاء من العمل، نهضت وذهبت للمطبخ فأعدَّت الشاي بطريقة تضاهي المقاهي ربّما للتغيير ولتمنح ظهرها هدنة أطول قبل العودة للجلوس المُمِلّ أمام الحاسب ومتابعة الكتابة من جديد، وضعت كوبًا من الماء مجاوراً للشاي والسكر على صينية ليبدو الشكل بديعًا وكأنها ستقدمها لضيف ثم حملت الصينية لمكتبها لتتابع الكتابة.

عادت للجلوس بمقعدها أمام الحاسب، بدأت برشفة شاي صغيرة فوجدت الشاي ما زال ساخنًا ، وضعت الكوب أمامها ليبرد قليلًا لتتابع الكتابة وهي تحادث نفسها: "لم يتبق أمامي الكثير، سأنتهي من الأوراق الباقية وأصلي الفجر وأنام لا بد لي من النوم ، ساعة واحدة قد تكون كافية لتجديد نشاطي فقد خارت قواي ولن يمكنني الذهاب لمكتب الأستاذ (فهيم) صباحاً على هذه الحال بلا نوم"... صوت صياح مرتفع وسط ضوضاء المباراة قطع أفكارها:

- "بعد إذنكم يا رجالة.. يا تكملوا لعب في مكان تاني، يا تلعبوا الصبح ... ده مش نادي ولا ملعب .. والناس عايزة تنام".

قفزت (فاتن) من جلستها إلى النافذة المطلة على الحارة بسرعة فأزاحت الستارة وألقت نظرة بحث عن صاحب الصوت حتى عثرت عيناها على النافذة المفتوحة بالطابق الأول والشاب الواقف بها يحادثهم، يَا لَلْمُصِيبَة.. إنه المهندس (ساجد) جارنا الجديد!

تبادل الشباب نظرات ساخرة متهكّمة وهم يجولون بأعينهم بين النوافذ حتى عثروا على النافذة مصدر الصوت فتمتم أحدهم ساخرًا:

- "ويطلع مين ده؟!".

أجابه (ساجد) في هدوء قائلًا:

- "أنا بقول بعد إذنكم.. ومن فضلكم.. ولو ممكن؟ عشان الناس بس تعرف تنام".

غمز أحدهم بعينه وعلى وجهه ابتسامة ساخرة قائلًا:

- "طالما أنت خايف على نوم الناس كده متنزل نتكلم تحت أحسن عشان صوتنا ميعلاش".

أردف آخر:

- "عايزين نتعرّف عليك ، شكلك جديد هنا طالما متعرفناش".

وأضاف ثالث:

- "ولو بتحب الهدوء أوي كده يبقى أكيد هتنزلنا عشان نحافظ على الهدوء اللي أنت عايزه وصوتنا ميعلاش ونصحّي الناس".

أومأ (ساجد) برأسه موافقًا وهو يجيبهم ببساطة:

- "مفيش مشكلة يا رجالة.. أنا نازل".

قفزت (فاتن) من أمام النافذة بسرعة وهي لا تدري ماذا تفعل، لابد أن تمنعه ، جرت لأخيها بسرعة تحاول إيقاظه لينقذ الموقف لكنه دفعها بيده وهو يطلق سُبّة، لم تعرف كيف ستمنعه ، أرادت أن تصرخ

بملء صوتها محذرةً إياه من النزول، لكن بالطبع مستحيل فسمعتها ستصبح علكة تلوكها الألسنة إن هي فعلت هذا وربما تأخذه هو الحماسة والرجولة ولا يصغي إليها ويتجاهلها باعتبارها حمقاء لا تدرك ما سيفعله، كيف يكون بهذا الغباء؟! صوتهم المزعج كفيل بإيقاظ الموتى لا النائمين!! أيظن بأنه الوحيد الذي أزعجه الصوت من بين كل شباب ورِجال المنطقة؟! كلهم يعرفون هذه المجموعة الفاسدة من الشباب الضائع ويتحاشونهم مؤثرين غَضَّ الطرفِ اتقاءً للمشاكل معهم.

عادت للنافذة والقلق ينهشها، هل ظنَّ نفسه سيدير حوارًا راقيًا معهم بالأسفل فيقنعهم بخطئهم ويتلقى منهم الاعتذار اللائق قبل أن ينصرفوا – أحمق لا يعرف مع من يتعامل! لا بد أنه أنهى ارتداء ثيابه الآن وفي الطريق إليهم، سيهان ويفقد كرامته أولًا، هذا إن لم يخرج بعاهة لو تطور الأمر معهم للعراك، عاهة وذكرى قد لا تفلح سنوات العمر القادمة في محوها.

خرج (ساجد) يسير إليهم بخطوات هادئة واثقة، تبادل الشباب الضحك والقهقهة سخريةً من ثقته بنفسه وهو يتجه نحوهم ، بصق أحدهم في الأرض مغمغمًا:

- "شرفت يا باشا".

وأردف آخر:

- "إيه الشجاعة دي كلها! ده أنت طلعت شجاع وإحنا اللي مش واخدين بالنا".

وأردف ثالث وهو يتحرك ليمسك بكتف (ساجد) قائلًا:

- "كنت بتقول إيه من فوق؟ حابب أسمع تاني أصل سمعي تقيل شوية".

جرت (فاتن) من جديد لأخيها تحاول إيقاظه لكن ردّه جاء هذه المرة في صورة وسادة طائرة ارتطمت بوجهها مع سُبَّةً جديدة، عادت للنافذة بسرعة بعد يأسٍ من أخيها لتتابع الموقف فإذا بلغة الحوار قد تطورت لتتجاوز حدود الأدب من الشباب وقد أحاطوا بـ(ساجد) فيما يشبه الدائرة ، بدأت بعض الأيادي تمسك به وهو يقلب نظراته بين المحيطين به حائرًا ، لا بد أن تفعل شيئًا الآن بسرعة فالوقت ليس في صالحه على الإطلاق.

****

ما هذه الضوضاء بالأسفل؟! لن يفتح النافذة ليعرف السبب ويهدر الوقت ، كون المسابقة الأسبوع القادم زاد من حرصه على كل دقيقة، ولن يخرج الأمر في الغالب عن دعابات بصوتٍ عالٍ لبعض المتسكعين ممن يلعبون الكرة بالأسفل، قرَّر تجاهل الصوت تمامًا ومتابعة المذاكرة ، بدأ الصوت يعلو أكثر فأكثر حتى انتصرت رغبته في المشاهدة ، فقام وفتح النافذة ثوانٍ قليلة كانت كافية ليفهم الموقف بأكمله وهو يرى (ساجد) محاصر بين مجموعة من الشباب الوقح يسخرون ويتلاعبون به في صورة مهينة، قفز مغادرًا غرفته وطارقاً بقوة أبواب الغرف الثلاثة لكلٍ من (كمال) و(همَّاس) و(أوَّاب) وهو يصرخ صائحاً:

- أنا بالأسفل.. هناك مصيبة بالشارع.. الحقوا بي ولا تتأخروا.

اندفع (زياد) يقفز درجات السلم وثبًا حتى وصل الشارع فانطلق يعدو ليحشر نفسه بين أحدهم وبين (ساجد) صائحًا:

- "هو ده كلام.. يعني كلكم على واحد.. دي حتى مش رجولة".

تمتم أحدهم وهو يضحك في سخرية قائلًا:

- "أنت كنت فين يا راجل .. ده إحنا كنا محتاجينك من بدري عشان السهرة تحلى".

دفع (زياد) أحدهم بيديه دفعة قوية أسقطته بعيدًا وكأنه قد أعطى بذلك شارة البدء لـ(ساجد) والذي ركل هو الآخر أحدهم بين ساقيه ليسقطه على الأرض متألمًا وقد علا أنينه، ركض (زياد) بسرعة مبتعدًا في اتجاه وهو يشير لـ(ساجد) بالركض في الاتجاه الآخر.

ركض الشباب في الاتجاهين بعضهم خلف (ساجد) والباقون خلف (زياد) ، ظهر (أوَّاب) في تلك اللحظة صائحًا:

- "لو الذوق منفعش معاكم إحنا نعرف نقِّل أدبنا إحنا كمان ونوريكم قلة الأدب اللي بجد".

ظهور (أوَّاب) في تلك اللحظة أربك الشباب قليلًا بعد أن أصبحوا الآن ثلاثة وهو ما يعني أن المعادلة قد تغيرت قليلًا، تحرك بعضهم نحو (أوَّاب) لينقسموا إلى ثلاث مجموعات.

****

ماذا ستفعلين يا (فاتن).. هل ستظلين صامتة حتى يتطور الأمر إلى ما هو أسوأ؟! قفزت لرأسها صورة سيئة وهي تتخيل (ساجد) يترنح قبل أن يسقط على الأرض غارقًا في دمه بعد أن تلقى طعنة طائشة من أحدهم وهم يتفرقون بعدها بسرعة، أرادت أن تفتح النافذة على مصراعيها وتطلق صرخاتها بأعلى صوتها لتوقظ الحارة بأكملها ، تعرف

جيدًا أنهم قد لا يستيقظون لضوضاء المباراة ، لكن صرخة امرأة وسط صمت منتصف الليل كفيلة بفتح النوافذ وإضاءة الأنوار ، الحارة بأكملها ستصبح بالأسفل خلال دقائق لكنها لو فعلت هذا فستكون مصيبة تحل على رأسها هي ، عشرات الأسئلة ستظل تطاردها وتنهش سمعتها فيما بعد.

قفزت إلى رأسها في الحال فكرة مجنونة لم تتردد لحظة في تنفيذها، جرت إلى المنضدة وبلا تردد حملت كوب الماء من عليها وعادت إلى النافذة فطوحت به بكل قوتها ليسقط مُهشمًا في دكان البقالة لعم (حسّان) الذي انتفض من غفوته على صوت تحطُم زجاج الكوب فما كان منه إلا أن التقط سكين الجبن الطويلة - والتي يعتبرها خير سلاح في المشاجرات - وخرج إليهم صائحًا وملوحًا لهم بالسكين:

- "يلا امشي من هنا أنت وهو أحسن لكم دلوقتي.. ومش هتكلم كتير عشان منزعلش حد.. يلا يا ولاد الـ...".

في تلك اللحظة التي نظر فيها الشباب لعم (حسّان) وهو يصيح فيهم بصوته الواهن في نوبة شجاعة غير محسوبة، انطلق صوت (كمال) هادرًا ليهزّ الحارة بوصلات من السِبَاب السافل البذيء والتي لا تخرج إلا من سافل وضيع بحق، وأدرك الشباب معها بأنه قد انضم للمعركة الآن أحد ممن يعرفون كيف تدار الأمور في مثل تلك المشاجرات جيدًا، (همَّاس الزنفلي) كان هو الآخر بجوار (كمال) صامتًا بعيون تدور هنا وهناك تدرس كل شبر من أرض المعركة وتتعرف على خصومه ومن عليه قتالهم، (كمال) فَهِم جيدًا ما يفعله أَسَدُ الجِبَالِ

وصمته قبل الانقضاض، جرى (كمال) لعم (حسّان) فانتزع من يده سكين الجبن الطويلة وعاد بها إليهم صائحًا بصوت يدوي كالرعد:

- "يا شوية.... أنا عايز أرجل ما فيكم هنا قدامي ودلوقتي".

ظهور (كمال) و(همَّاس) في الصورة غيَّر الخطة كلها، ركض كلٌ من (ساجد) و(زياد) و(أوَّاب) ليكونوا بجوار (كمال) و(همَّاس)، لتستأنف المشاجرة لكن بطريقة أخرى هذه المرة، طريقة اختلط فيها الحابل بالنابل ولم يعد واضحًا وسط تشابك الأجساد من المنتصر ومن الخاسر، الشيء الوحيد الذي بدا واضحًا هو دخول عم (حسّان) لدكانه ليشد الباب الصاجي للأسفل مغلقًا المحل عليه من الداخل.

لكم (ساجد) بقبضته الشاب الواقف أمام (زياد) لكمة قوية أسقطت أحد أسنانه وهو يقول لـ(زياد):

- تحسنت الأمور كثيرًا بانضمام رفاقك لمساعدتنا.

أجابه (زياد) وهو يتفادى لكمة مصوبةً له ثم ينحني ليركل صاحبها بقدمه ركلة قوية أسقطته قائلًا:

- دخول أَسَد الجِبَال غيَّر موازين القوة بالمعركة تمامًا.

وثب (كمال) أمامهم في تلك اللحظة ضاربًا أحدهم بظهر السكين التي معه ضربة قوية جعلته يطلق صرخات الألم عالية مدوية وهو يلتفت إليهم قائلًا:

- يمكنكم اعتبار المعركة انتهت بالفعل يا سادة فأنتم لا تعرفون كيف هي غضبة (الزنفلي).

توقف (زياد) و(ساجد) ذاهلين وهما ينظران لـ(همَّاس) وهو يقذف بشاب كان يرفعه بعيدًا ككرسي خفيف قبل أن يثب عاليًا ليركل بقدمه فك شاب آخر، و(كمال) يضحك قائلًا:

- كان خطأ كبير منهم أن يغضبوا أَسَد الجِبَال.

أغلقت (فاتن) النافذة مرة أخرى بعد نهاية المعركة التي شاهدتها حتى نهايتها وتأكدت بأن (ساجد) قد صار بأمان بعد تغير موازين القوة في المعركة بنزول رفاقه في السكن، سعادة هائلة تملكتها وشعرت بأن ما فعلته رغم بساطته كان رائعًا. أعادت الستارة إلى موضعها بعد إغلاق النافذة وقررت العودة لتتابع الكتابة وقد سيطر عليها الحماس وزال عنها كل التعب والرغبة في النوم، لكنها ما أن خطت أولى خطواتها حتى توقفت ذاهلة أمام المفاجأة التي كانت بانتظارها.. لقد انسكب الشاي على لوحة المفاتيح لجهاز الكمبيوتر والأوراق الخاصة بالأستاذ (فهيم)!!

* * * *

(٢٢)

حاولت إخفاء آثار معركة الأمس بالحارة قدر المستطاع قبل أن أذهب للمعهد بعقلٍ تائه يفكر في غرابة ما حدث ويحدث لي.. وأين كان يختبأ لي كل هذا؟! حواري مع زملاء الدراسة بالمعهد صباحًا ألقى بكل اللوم عليَّ للخطأ الفادح الذي اقترفته بنزولي لتلك المعركة غير المحسوبة.. وهم يسألونني في دهشة حملتها عيونهم قبل أن تنطقها ألسنتهم: أين كان عقلك يا (ساجد) لتفعل هذا؟! أكنت بكامل وعيك وأنت تقرِّر النزول إليهم أم تعاطيت شيئًا ليلتها غَيَّبَ عقلك؟!

ما قالوه كان هو الحقيقة بعينها ولا شيء سواها، إن كانوا يظنون بأني قد تعاطيت شيئًا فقد تعاطيت همومًا ثقيلة غيَّبَت عن عقلي الحساب الدقيق والتفكير السليم في الأمر.. مرض والدتي وعجزي عن فعل ما يدفع بأمور علاجها أي خطوة للأمام وطمع المعلِّم (صبحي) وإدارته اللعبة معي بحرفية مُرَاءِي ليقرضني أولًا دون سؤال أو نقاش - وأنا من حسبته يتعاطف معي ومع ظروفي - وطرحه عليَّ بعدها فكرة الشراكة بيننا عن يقين تام بأن حاجتي للمال ستُنهي الأمر ولن تترك أمامي سوى القبول واقتراب موعد نهاية المنحة وخوفي من غياب التفوق رفيق عمري الذي لم أفترق عنه من قبل... كلها ضغوط شَوَّشَت عقلي وفكري وحالت بيني وبين الحساب الدقيق للموقف لأجد نفسي أهبط درجات سلم البناية متوجهًا لهم ظنًا مني بأني سأرجو منهم الانصراف بأدب.. فينصرفوا !

ذكرني ما حدث بليلتي مع الأوغاد الثلاثة بالفندق الوضيع أثناء البحث عن شقة وما دار بينهم من أحاديث ليلتها رسمت بعقلي كابوسًا أتلف أعصابي ليلتها وأصابني بالرعب من السكن مع أحد لا أعرفه خوفًا من أن يكون مثلهم أو على شاكلتهم ولعلّ هذا كان السبب الرئيسي في رفضي للسكن مع (زياد) ومشاجرتي معه ومع السمسار يومها، تذكرتهم بوضوح وأنا أطلب من الشباب بأدب مراعاة عدم مناسبة الوقت ليبدأ لقائي الثاني بتلك النوعية من الكائنات التي لا أعرف وصفًا دقيقًا لهم مع شعوري بأنهم يخرجون علينا من بالوعات الحياة متنكرين في صورة بشر لتعكير حياتنا وصفو أيامنا التي نحاول أن نحياها بسلام، خطوة النزول إليهم جرت بلا حساب مني وكانت ستقذف بي لنهايةٍ مبهمةٍ لا يعلمها إلاَّ الله لولا أن دعوات أمي - التي تمطرني بها ليل نهار- هي من أنقذتني فتصدَّت لهم وحالت بينهم وبيني لأَجِدَ (زياد) - الشاب الذي كانت علاقتي به هي الأسوأ من بين كل سكان الحارة - هو من يهب لنجدتي جالبًا معه رفاقه في السكن ولتتحول دفة المعركة كلها في لحظات فأجد من كانوا يهزؤون بي ويسخرون مني في البداية يفرون أمامي كالجرذان المذعورة بإصابات وثياب ممزقة.

دعاني (زياد) ورفاقه لشقتهم بالطابق الأخير بعد نهاية المعركة، أحضر الشيخ (أوَّاب) لنا القطن والشاش واللواصق الطبية وبدأنا مداواة الجروح والكدمات، كانوا لطفاء معي للغاية وكان الجلوس بينهم رائعًا.. لم تغب ضحكاتهم وتعليقاتهم المرحة عنا ونحن نتداوى، هتف (همَّاس الزنفلي) أو من يطلقون عليه أَسَد الجِبَال وهو ينظر إليهم في غضبٍ مصطنعٍ قائلًا:

- يا لكم من حفنة من الأنذال معدومي الضمير.. ألا أستحق منكم وجبة إفطار دسمة بعد هذه المعركة التي لو خضتها وسط أصدقاء ورفاق يُقدِّرون ما فعلت لكنت الآن جالسًا أمام واحدة من الولائم التي تعج بالأصناف الدسمة ويتصاعد منها البخار والروائح الشهية ، وليمة من تلك التي تقتل التردد وتسحق الندم وتداوي الأوجاع.

نظراتهم المصوبة تجاهي أخبرتني بانتظارهم سماع ردّي فأجبتهم بشيءٍ من الحياء والخجل قائلًا:

- معك كل الحق يا (همَّاس).. اعتبروا الوليمة دين في رقبتي لكم أقسم على الوفاء به.

تمتم (كمال) في سخرية قائلًا:

- أأنت منهم؟! وأنا الذي ظننتك ستقدر ما فعلناه لأجلك ولن تترك هذا الأسد المسكين جائعًا!

أجبته بجدِّية قائلًا:

- لقد أقسمت بأني سأفعل والقسم ليس شيئًا صغيرًا أو هينًا .. فثق بقسمي فهو أكبر من أي شيء وهو من سيلزمني بالوفاء ثم كيف تظنني سأهرب منكم يا رجل بعد أن هببتم من نومكم بعد منتصف الليل لتخوضوا معركة إنقاذي والتي كان من الممكن أن تصابوا أنتم فيها بالضرر وتتعرضوا للأذى قبلي!!

قاطعني (أوَّاب) بمحبةٍ قائلًا:

- لا تقل هذا بالله عليك يا (ساجد) فنحن إخوة وطالما أننا قد علمنا بالأمر بعد أن أيقظنا (زياد) فلم نكن لنقبل أبدًا بأن يصيبك أي مكروه ويقتصر دورنا على مجرد المشاهدة من النوافذ فقط.

كلماته جعلتني أنهض لأحتضن (زياد) وأقبِّل رأسه معانقًا إياه في حب وعرفان بالجميل قائلًا:

- صحيح "ما محبة إلاَّ بعد عداوة"، لن أنسى لك أبدًا ما صنعته اليوم من أجلي يا (زياد) ... جميلك بعنقي ما حييت.

المشهد كان مليئًا بالحب زاخرًا بالمشاعر الصادقة خاصةً وقد بدأت أطراف الدموع تظهر وتتلألأ في عيني أثناء عناقي لـ(زياد) ، قاطعنا (كمال) من جديد قائلًا:

- حدِّد موعدًا للوليمة إن كنت صادقًا وتنوي الوفاء بقسمك كما تزعم، وإن لم تسمح ظروفك المادية اليوم أو غدًا فليكن من مرتب الشهر القادم لكن ليس بعد ذلك لأننا نعلم جيدًا بأنك مهندس وتكسب جيدًا فدع ادعاء الفقر هذا لأمثالنا ممن هم "على باب الله".

صدمتني كلماته ونظرته لي وظنه بأني أحاول التملص والهرب فانفعلت قائلًا:

- المهندس المرموق الذي تحدثت عنه الآن وتظنه يكسب جيدًا ستجري والدته خلال الأيام القادمة جراحة كبيرة ستتطلب أموالًا كثيرة ليست معه فلا تضع وتهدر المعروف بالمساومات ولا تكن كالمعلّم (صبحي) الذي استغل مرض والدتي فأقرضني ليبدأ في مساومتي تحت ضغط علمه بحاجتي الملّحة لكل قرش.

تألقت عيون (أوَّاب) بالاهتمام وهو يصغي لكلماتي طالبًا مني أن أروي له بالتفصيل كل شيء عن مرض والدتي وما فعله المعلّم (صبحي) معي ، بدأت أروي له بعد أن جلس كلٌ من (زياد) و(همَّاس) و(كمال) ينصتون معه لما أقول إلى أن ختمت حديثي قائلًا:

- وهو بانتظار أن يعرف رأيي النهائي اليوم بشأن الشراكة فيما بيننا وموافقتي على شراكة نجله المُوَقَّر الأستاذ (خميس) ليكون المدير بالنيابة.

صمت ونظرات متبادلة بينهم قطعها (زياد) قائلًا:

- سأعد إفطارًا لنا جميعًا لتفطر معنا هنا يا (ساجد) "ويبقى أكلنا عيش وملح مع بعض".

دار (أوَّاب) بعينيه بيننا ليتأكد من وجودنا جميعاً ثم أردف قائلًا:

- وليمة النصر لم تضع عليكم بل هي عندي فأنا من سيدعوكم جميعًا لها تاركًا اختيار المكان وأصناف الوليمة لأَسَد الجِبَال الذي أدهشني وأنا أرى طريقته في القتال - ما شاء الله ولا قوة إلاَّ بالله - سرعة الفهود وقوة الأسود ، ما هذه البراعة والمهارة في القتال يا رجل.

مضى اليوم تقليديًا كسائر أيامي في الحارة، لعلّ الشيء الوحيد الجديد المختلف كان إشادة كل سكان الحارة بي لأقابل كل بضع خطوات أخطوها من يستوقفني ليصافحني بقوةٍ ويشد على يدي مشيدًا بشجاعتي وشجاعة سكان شقة الطابق الأخير وتلقيننا لتلك المجموعة من الشباب الفاسد درسًا لن ينسوه أبدًا وسيقطع أقدامهم عن حارتنا تمامًا ويبدو أن الجميع كان يرى ويسمع ويستاء مثلي تمامًا لكنهم كانوا يؤثرون السلامة ويفضلون الصمت خوفًا من شرهم الذي كنت سأكون أنا ضحيته لولا فضل الله عليَّ ، (مسعد) مساعدي الشاب كاد يرقص هو الآخر فرحًا عند لقائنا وهو يروي لي بفخرٍ ما يقوله سكان الحارة عني وعمَّا فعلت وكيف أنني قد حركت صمتًا

وسكونًا دام الكثير لم يفكر أحد من سكان الحارة يومًا في تغييره حتى فعلت أنا ذلك.

صعدت الدرج لشقة المعلّم (صبحي) في الموعد المحدَّد بعد أن أخبرني (مسعد) بأن (خميس) ابن المعلّم (صبحي) قد جاء إلى هنا صباحًا وطلب منه أن يخبرني بأن المعلّم (صبحي) بانتظاري في الموعد المتفق عليه، استقبلني الرجل بحفاوةٍ مشيدًا بشجاعتي وعدم ترددي في النزول إليهم، سألني بعدها عن صحة والدتي ونتيجة الفحوصات والتحاليل التي أجرتها فأخبرته بأن موعدنا مع الطبيب غدًا فبدأ في الدعاء لوالدتي مع وصلات من الأمنيات الطيبة لها بتمام الشفاء وهو يتابع رشفات القهوة الساخنة حتى أنهاها ووضع فنجان القهوة أمامه سائلًا إياي بابتسامة واثقة:

- هل أنهيت التفكير في عرض شراكتنا؟

أجبته بنبرةِ صوتٍ هادئة أقرب للاعتذار قائلًا:

- معذرةً يا معلّم (صبحي).. أعلم بأنني قد تأخرت عليك في الرد، لكني ما زلت بحاجة لبعض الوقت لتنظيم أموري؟ أحتاج لتدبير مكان بديل لسكني قبل التفكير في تحويل الشقة لمكتب خاصةً وأن الأيام القادمة ستتطلب غالبًا إقامة أهلي لدي أثناء الجراحة والتنقل بين الأطباء وليس العودة للقرية كل يوم للمبيت والقدوم صباحًا.

صمتٌ لدقيقة ارتسمت فيها علامات التفكير على وجه المعلّم (صبحي) قبل أن يردف قائلًا:

- معك حتى آخر الأسبوع يا "باشمهندس" لتحسم أمورك وتخبرني بردّك النهائي.

- أيمكن أن نؤجلها لما بعد الجراحة حتى تكون أموري النفسية قد استقرت وتوتري قد زال وخرجت من كل الضغوط؟

ضحِكاتٌ بغيضةٌ أطلقها المعلّم (صبحي) وهو ينظر لي قائلًا:

- وبعد أن تحصل بالطبع على تكلفة الجراحة كاملة كقرض مني.. أليس كذلك؟!

أجبته في دهشة سائلًا:

- وماذا في ذلك يا معلّم؟! ألست سأكتب لك - طبقًا لاتفاقنا وحتى تضمن حقك كاملًا - كمبيالات وإيصالات أمانة بكل قرش سأتقاضاه منك؟! تستطيع إيداعي السجن بها متى شئت إن لم أسدد لك أو تأخرت في السداد.

أجابني المعلّم وقد تغيرت ملامح وجهه لتظهر عليها الجديَّة قائلًا:

- يبدو أنك لم تفهم الأمر بالصورة الصحيحة فأنا لست أبدًا ذلك المعتوه الذي يبدد أمواله في الإقراض من أجل أشياء بلا قيمة لم تعد تُجدي هذه الأيام كالنخوة والشهامة والإنسانية، وكما تتقاضى البنوك مع ما تملكه من أموال فوائد عند الإقراض فسأتقاضى أنا الآخر فائدة لكنها ليست أموالًا كالبنوك بل ستكون فائدتي هي تعليمك لابني ما قد ينفعه ويرسم له مستقبلًا في قادم الأيام.

تملكتني الحِدَّة وأنا أرى المعلّم (صبحي) قد ازدادت جرأته وغادره الحياء والخجل ليقول لي ما قاله مباشرةً بلا أي محاولة للتورية عن ثقة تامة بحاجتي له ولنقوده ، حاولت السيطرة على أعصابي واصطناع الهدوء قدر استطاعتي وأنا أسأله:

- أيعني هذا أنك لن تقرضني تكاليف الجراحة لو لم أقبل بالشراكة يا معلّم؟

أومأ برأسه موافقًا وهو يردف في ثقة قائلًا:

- بالضبط ، بل وسيكون عليك الإسراع بِرَدِّ وإعادة ما اقترضته مني لإجراء فحوصات وتحاليل والدتك.

سألته بقلقٍ لم أنجح في إخفائه قائلًا:

- لكن سكني بالشقة سيظل كما هو يا معلم.. أليس كذلك؟

ابتسامة ماكرة ظهرت على وجهه وهو يجيبني قائلًا:

- في الواقع لا .. كنت في كل الأحوال سأطلب منك في الأيام القادمة أن تجد وتدبر لنفسك سكنًا بديلًا بعد أن أصبحت للشقة حسابات أخرى بعد النجاح الذي حققته بها وجعلك منها مكانًا يعرفه الجميع ، إن قبلت بشراكتنا معًا فهو خير وستكون الشقة هي مقر شراكتنا أمّا لو أنك أخبرتني الآن مثلًا برفضك للعرض.

تعلَّقت عيناي به بانتظار ما سيقول فأردف قائلًا:

- سيكون خيرًا أيضًا، وسأشتري لابني (خميس) مجموعة من أجهزة الحاسب المستعملة وبمبلغ سيقل كثيرًا عن المبلغ الذي كنت أنوي إقراضك إياه لعلاج والدتك، هذه الحاسبات ستكون هي النواة لبدء مشروع جديد ستتحول فيه شقتك لصالة لألعاب الحاسب بين الشباب والأطفال، وهو كما تعلم نشاط مربح للغاية ولا يتوقف تعلُق الصغار والشباب به أبدًا.

توقف المعلِّم (صبحي) عن الحديث ناظرًا لي وعلى وجهه ابتسامة ماكرة وهو يردف سائلًا:

- والآن يا "باشمهندس" هل ستخبرني بردّك الآن، أم ما زال يلزمك بعض الوقت؟!

* * * *

(٢٣)

أين كان يختبأ لكِ كل هذا يا (رحيق)؟ إنه السؤال الذي كان يدور بعقل (رحيق) منذ عودتها من المستشفى وهي ترى أمورها تنزلق من سيءٍ إلى أسوأ ، الأمر لم يعد قاصرًا على الأسر خلف الجدران والأسوار أو البعد عن الأهل والأحباب كما كانت تظن بل تطورت الأمور في الأيام التالية لخروجها من المستشفى لتؤكد لها بأن القادم أسوأ.

عودتها للمحبس جاءت لزنزانة جديدة غير التي غادرت منها لتجد نفسها برفقة سجينات أخريات غير من كانت معهم قبل ذهابها للمستشفى دون أن تعرف السبب وهل هذا خير أم شر؟ بحثت عن (ماوية) لعلها تجد الإجابة لديها، وجدتها لكن سعادة العثور عليها لم تدم طويلاً فقد ابتعدت عنها في حذرٍ طالبة منها الابتعاد بسرعة هي الأخري بعد أن همست لها بأنه تم الرجوع للكاميرات وتكدير كل من ركض إلى جوارها أو حادثها يوم نقلها للمستشفى وأنها في غنى تام عن تكرار التكدير ثانيةً.

أنهت فترة الهواء والرياضة بالسجن الوردي متجة لزنزانتها الجديدة مع إرتفاع رنين أجراس العودة للزنازين وبدء إغلاق الأبواب ، مرّ الوقت عليها بطيئًا مع صمت وتفكير في حالها وما صارت إليه أمورها، نادتها إحدى السجينات في تَّعَجْرُف مشيرة بإصبعها لها للقدوم، سمعت النداء ونظرت فلم تعجبها طريقة النداء المتعجرفة بالإصبع، تجاهلت الرد عليها تمامًا وكأنها لم تسمع، الثواني القليلة التالية لتجاهلها النداء كانت كافية لتدرك حماقة وفداحة ما اقترفته

بحق نفسها ، تحركت نحوها ثلاث سجينات قويات فانتزعنها من مكانها انتزاعًا، سحبتها الأولى من شعرها بقوة وثنت الثانية ذراعها خلف ظهرها وبدأت الثالثة تكيل لها الصفعات مع صرخات ألمها العالية وسط ضحكات ساخرة أو مشاهدة صامتة من باقي السجينات .

ألقتها من كانت تسحبها من شعرها أمام (كوثر) الجالسة في شموخ على طرف سريرها، أشارت (كوثر) لها بإصبعها للاقتراب أكثر، دفعة قوية من إحداهن أنهت ترددها لتجد نفسها أمام (كوثر) والتي أشارت لها بإصبعها لتجلس أسفل قدميها فجلست في صمت.

- ما اسمك يا فتاة؟
- (رحيق تقي الدين).
- وما تهمتك؟
- تهمتي الحقيقية لاأعلمها .. لكن أمي أخبرتني قبل وفاتها بأننا ندفع ثمن إغضاب أبي للكبار.
- وأين أبيكِ هذا الآن؟
- لا أعلم.. اختفى منذ أعوام ولا أعرف عنه شيئًا.

قهقهت (كوثر) وهي تمصمص شفتيها قائلة:

- لا أحب الكذب وإن أردتِ الكذب فعليكِ اختيار كذبة مقنعة يمكن تصديقها ، هل من أغضبهم أباكِ من الكبار كانوا نائمين واستيقظوا الآن بعد أعوام ليتذكروا القصاص منه بحبسك؟!! لكن دعينا من هذا الآن واخبريني أيتها البغي الصغيرة.. لماذا لم تجيبي النداء عليكِ من البداية بما أنكِ لست صمَّاء أو خرساء؟

فكرت (رحيق) في إجابة مناسبة لا تجلب لنفسها بها المزيد من الضرر فخرج صوتها المتلعثم قائلًا:

- حين ناديتني بـ"أيتها الجديدة" خطر ببالي أن الانتظار لدقيقة واحدة قد يكشف لي إن كان هناك جديدات أخريات معي أم أنني الجديدة الوحيدة التي تقصدينها.

- ألم تسمعي بي من قبل أو يُحدثك أحد عني قبل مجيئك إلى هنا؟

هزّت (رحيق) رأسها بالنفي في صمت فأشارت (كوثر) لإحدى السجينات قائلة:

- اخبريها من أنا.

قفزت السجينة المشار إليها لتُمسك بـ(رحيق) في عنف من رأسها وهي تشير نحو (كوثر) قائلة:

- السيدة التي تجلس أمامك الآن هي سيدتك وسيدتنا جميعًا.. الزعيمة (كوثر)، كبيرة الزنزانة والعنبر ... ومن الآن فصاعدًا حاولي أن تكوني مثالًا للفتاة المطيعة المهذبة التي لا تثير غضب سيدتها لأن غضبها سيء للغاية وسيكون من حظك الجيد ودعاء أهلك لكِ إن كُتِب لكِ أن تغادري السجن الوردي دون أن تشاهدي غضبها.

أومأت (رحيق) بالموافقة برأسها في استسلام بعد أن فهمت ما لـ(كوثر) من هيبة ومهابة وأتباع يؤدون لها ما تريد بلا نقاش .. وأن الطاعة بلا تفكير أو نقاش هي الشيء الوحيد المتاح لها فعله الآن.

****

دخل (شلهوب) مكتب (جسَّار) لينحني أمامه في احترام ، أشار (جسَّار) له بالجلوس قائلًا:

- هيا ... هات ما عندك وأخبرني كل شئ بالتفصيل وإلى أين وصلت الأمور؟

جلس(شلهوب) ليبدأ حديثه قائلًا:

- الأمور على ما يرام وتسير وفقًا للمخطط لها سيدي.

- رائع.. أريد تفاصيل أكثر.

- تناول (راجي) دواء اليقظة والخرس بمجرد وصوله حتى لا يتحدث بلغتنا ويفضح نفسه بإثارة الشكوك حوله ، ضبط بعدها المسافر الأيوني على وضع الإنصات وبدأ السير في الأسواق وأماكن الازدحام والتكدس ليلتقط مترجم المسافر الأيوني أكبر قدر من لغتهم وقد حدث هذا أيضًا بنجاح.

- هذا جيد .

- في ليل اليوم الثاني ومع انتهاء تأثير دواء الخرس، نقل (راجي) المسافر الأيوني لوضع نقل اللغة فتم نقل كل ما اختزنه الجهاز من لغتهم طوال اليومين الماضيين إليه وأصبح بإمكانه الحديث بلغتهم بصورة بدت مقبولة بينهم إلى حدٍ كبير وستزداد قوتها يومًا بعد يوم بحرصه على إبقاء المسافر الأيوني في وضع الإنصات طوال سيره وتجواله بين الناس ليزداد مخزون الكلمات والعبارات والمصطلحات داخل قاموس المسافر الأيوني.

- إلى الآن كل شيء يسير جيدًا ولم تحدث مشاكل.

- المشكلة الأولى حدثت منذ ثلاثة أيام .

اعتدل (جسَّار) في جلسته واتسعت عيناه بعد أن أثارت الكلمات الأخيرة انتباهه فأشار لـ(شلهوب) ليتابع حديثه فأردف :

- عند ذهاب (راجي) لبيع إحدى السبائك الذهبية ليحصل على الأموال والنقود الكافية لاستئجار شقة وبدء العمل منها حدثت المفاجأة الغير متوقعة في محل الصائغ ، لم نكن على دراية بأن سبائك الذهب لديهم عليها أختام تخصهم ، خرج له الصائغ بعيونٍ تفيض شكاً واتهاماً ليسأله: "من أين أتيت بهذه السبيكة؟ وأين فاتورة شرائها؟"

ترَّقبٌ وفضول حملته عيون (جسَّار) وهو يصغي باهتمام فائق لـ(شلهوب) الذي أردف:

- تعامل (راجي) مع الموقف بذكاء فما أن لمح نظرات الشك تطل من عيون الصائغ وهو يسأله من أين حصل علي هذه السبيكة ؟ وأين فاتورة شرائها؟ حتى بدا كمن تلقي صدمة لينتابه ذهول تحول بعد ثوانٍ لغضب من اكتشف تعرضه للغش والخداع ، شعر بعدها المسكين بدوار من الصدمة والإنفعال فألقي بجسده علي أول مقعد وبدأ بأخراج أدويته التي كان من بينها بالطبع قنينة غاز الخمول التي فتحها وطلب من أحدهم بعض الماء ليأخد الدواء ، الدقائق التي أهدرها في أداء هذا المشهد كانت كافية ليلاحظ بدأ تأثير غاز الخمول عليهم ، سحب السبيكة من يد الصائغ وغادر مختفياً بأقصي سرعة .

- وكيف لم يتأثر (راجي) بغاز الخمول؟

- كان هذا أحد المسارات التي تم الإتفاق وتدريبه عليها بأن يكون غاز الخمول معه دائماً وأن يتناول الترياق الخاص به قبل بدأ جولاته الخارجية فهذا سيمنحه الوقت لإيجاد الحلول.

تمتم (جسَّار) في ضيق قائلًا:

- كيف قلت بأن الأمور علي مايرام مع تلك المصيبة التي لم تكن بالحسبان وكيف سيحصل هكذا على المال اللازم للإنفاق منه وتأجير شقة هناك ؟

- ظلّ (راجي) يتجول بحي الصاغة لأيام دون كلل أو ملل، يسأل هذا وذاك ويعيد السؤال بطرق متنوعة إلي أن التقطه أحد تجار الأبواب الخلفية ممن يتعاملون في الذهب المسروق وهذا مافتح لمهمتنا الباب لترى النور من جديد بعد أن أغلقت كل منافذ الضوء أمامها.

- وهل باع الذهب كله؟

- عشرون سبيكة باعها وما زال يحتفظ بالباقي بعد أن أصبح معه ثروة كبيرة من بيعها لن يحتاج معها لأموال أخرى أو للبيع من جديد حتى انتهاء مهمته والعودة ، استأجر بعدها شقة كبيرة ونشر إعلانًا يطلب أفرادًا للأمن والحراسة مع التأكيد على أن الأفضلية ستكون للرياضيين وأصحاب الخبرات السابقة.

- هذا رائع.. وكم جمع من رجال الكتيبة إلي الآن؟

- فاحص القدرات فضح إنخفاض قياس الذكاء لدى معظم المتقدمين لحد قارب الغباء ، وهو ما أوقع (راجي) في حيرة مع تلك القياسات المتدنية لأننا طلبنا منه الأقوياء الأذكياء وليس الأقوياء فقط.

- وماذا فعل؟

- ما زال مستمرًا في قياس القوة والذكاء للمتقدِّمين، لكنه أخبرني بأنه بتشغيل فاحص القدرات أثناء تجواله بسوق الصاغة وجد الأسواق ذاتها تعج بأذكياء ممن لا يلتفت إليهم أحد رغم امتلاكهم لمعدلات ذكاء

أكثر من رائعة لذا طرح علينا فكرة أخرى بأن يكون نصف الكتيبة أذكياء والنصف الآخر أقوياء.

- وهل بدأ التنفيذ ؟
- لا بل هو اقتراح تقدم به ويطلب منا الموافقة.
- بالطبع لا .. ليكن هذا الحل الأخير ، اخبره بأن يتريث حتى منتصف الأسبوع القادم وليستمر في إجراء المقابلات مع المتقدمين كما يفعل فقد يظهر من بينهم الأذكياء لتنتهي المشكلة ، الأسواق موجودة دوماً ولن تهرب ، فليؤجل فكرته لما بعد منتصف الأسبوع القادم كحل أخير .

****

رنَّ جرس الباب ليقطع تركيز (غيَّاث) وهو يذرع الغرفة جيئةً وذهابًا يفكر كعادته كلما احتاج أمر معه لتفكير عميق ، دخلت الخادمة لتخبره بأن السيد (صفوان) بالخارج ، تمتم في ضيق "ليس وقتك الآن يا (صفوان)" ، ثم التفت إليها قائلًا:

- دعيه يدخل.

دخل (صفوان) وهو يزفر في غضب قائلاً :

- تغلق هاتفك ولا تجيب !
- خطةٌ أعددتها لأجعلك تطرق بابي كما فعلت الآن .

هدأت ملامح (صفوان) مع كلمات (غيَّاث) فأردف:

- جِد لي حلًا من فضلك.
- (برهان)؟؟

أومأ (صفوان) برأسه موافقًا قائلًا:

- ومن غيره؟!

- وما الأمر هذه المرَّة؟
- (جسَّار).. والبحث عن (جسَّار).
- ألم تجد طريقة للعثور عليه إلي الآن؟
- وكأنه قد ذاب.
- اهدأ يا (صديقي)، وأعدك بأن أحاول تهدئة الأمور عند لقائي به.

بدأ التوتر الذي دخل به (صفوان) يزول عن ملامحه وهو يلتفت لـ(غيَّاث) سائلًا:

- إغلاقك الهاتف وسط وحدتك وصمتك هكذا يشيان بأن مصيبة ما قد حدثت أو خطَّة جديدة تختمر بعقلك .. فما الأمر؟

ارتسمت الابتسامة على وجه (غيَّاث) وهو يجيب قائلًا:

- جديد ظهر .. قد يقلب معركتي مع السيد (تقي الدين) تمامًا.
- لم أفهم السر في منح كل هذا الاهتمام لرجل عجوز يرفض التعاون ولا يرضخ للضغوط! ... أيستحق الرجل منا كل هذا؟!
- الرجل كنزٌ بمعني الكلمة وكما استطاع (جسَّار) أن يحقق من وراءه ما أبقاه رأسًا للمطرقة طوال هذه الأعوام فالسيد (برهان) لديه أيضاً طموحاته الخاصة هو الآخر للاستفادة من الرجل.
- وما هذا الجديد الهام الذي ظهر أمامك ولا نعلمه؟
- (باسل عدنان).
- ومن يكون (باسل عدنان) هذا؟
- التلميذ النجيب لـ(تقي الدين) وظله الذي لم يكن يفارقه والذي اختفى تمامًا يوم وفاة والد السيد (تقي) وكأنه مات معه! .. أين اختفى؟ولماذا اختفى بهذا التوقيت تحديدًا؟ .. أشعر بأن في الأمر سرٌ لابد لي أن أعلمه.

- قد لا يتعدى الأمر خلاف نشب بينهم أدى لانفصال بلا رجعة.

- قلتها بنفسك "انفصال" وليس "اختفاء".. اختفاءه كذوبان الثلج في الماء دون أن يعلم عنه أحد شيئًا لهو أمر مريب وغير منطقي ، أشعر بأن ما سأجده وراء اختفاء (باسل عدنان) هذا سيحسم المباراة بيني وبين السيد (تقي الدين) بالضربة القاضية.

****

(٢٤)

وكأن الأيام تُعيد نفسها وأنا أرى (ساجد) يعيش ذات العذاب الذي عشته بجوار والدتي منذ سنوات لا أملك شيئًا يمكن فعله سوى البكاء، ذات المشهد يحدث لـ(ساجد) مع الفارق الكبير بين شاب في سنواته الجامعية الأولى بلا دخل أو وظيفة وبين مهندس أوقفه ضيق الحال عن فعل ما يدفع بعلاج والدته للأمام.

أصغيت لكلمات (ساجد) وهو يروي قصة مرض والدته أثناء تداوينا من الجراح بعد معركة الحارة وكأني أعيشها ، اتخذت قراري في الحال بعدها بأن تكون وليمة النصر عندي أنا لا هو حتى لا أُحمِّله أي قرش هو بحاجة إليه في علاج والدته لكنني اليوم وجدته تائهًا أمامي تمامًا وقد أرخي رأسه على أحد أعمدة المسجد عقب الصلاة فلم يسمع ندائي أو يرى تحيتي ، غادرت المسجد أفكر في أفضل طريقة يمكنني بها مساعدته.

دين المعلّم (صبحي) أول ما قفز لبالي ، سحبت من أقرب ماكينة تداول أموال ما يزيد عن مبلغ دينه للمعلّم (صبحي) ، إزالة هم الدين العالق برقبته وتفريج كربته أفضل بلاشك من ترك الأموال بالمصرف، سأسدد عنه الدين ولن أطالبه بالسداد ليكون كل ما فعلته هو تغيير شخص الدائن ليكون أنا بدلاً من المعلّم (صبحي). نظرت لساعتي لأجد دقائق قليلة تفصلنا عن موعد الأذان ، سأعطيه الأموال عقب الصلاة ليسدد دينه ويفيق من همِّه.

****

تحرك مُقدِّم البرنامج بخطوات رشيقة ليتوسط المسرح قائلًا:

- مشاهدينا الأعزاء في كل مكان.. يتجدد لقاؤنا وبعد طول انتظار مع الموسم الجديد من برنامج المسابقات الشهير "عقول ذهبية"، نُذكِّر من لا يعلم بأن مسابقتنا تجري بنظام المجموعات في الدور الأول ليصعد من كل مجموعة الفريقان أصحاب أعلى النقاط، وبدءًا من الدور الثاني سيتغير نظام المسابقة ليتم إقصاء المغلوب وتأهل الفائز للدور التالي ، والآن وبعد أن تعرفتم على جميع الفرق المشاركة حان موعدنا مع المباراة الافتتاحية بين فريقيّ "السحاب الأبيض" و"زئير الأسود" ونعيد التذكير بأن تواصلكم معنا عبر الهاتف على الأرقام الظاهرة أمامكم في فقرة "صَوِّت لمن تراه الأفضل" من شأنه أن يقدم دعمًا حقيقيًا بالنقاط لمن ترغبون بدعمه من الفرق.

****

جرى الفتى في عجلة لصاحب المقهى صائحًا:

- أليس هذا هو (زياد) ابن الأستاذ (إبراهيم) يا معلّم؟!

حملق صاحب المقهى في الشاشة لثواني قبل أن يجيب:

- إنه يشبهه حقًا!

تعالى صوت أحد الجالسين من الخلف صائحًا:

- بالطبع إنه (زياد) .. أعرفه جيدًا.

صاح صاحب المقهى آمرًا الفتى أن يرفع صوت التلفاز وهو يصيح قائلًا:

- اشتهرت منطقتنا وصار رجالها ممن يظهرون على شاشات التلفاز؟!

هتف صاحب المقهى بالفتى بعد تجمهر الجالسون بالمقهى حوله أمام التلفاز لمشاهدة (زياد) قائلًا:

- قدِّم شايًا للجميع على حسابي ، واطلب لي الأستاذ (إبراهيم) على الهاتف حالًا.

تعالى رنين الهاتف فتحركت والدة (زياد) لتجيب فجاءها صوت المتصل ليطلب محادثة زوجها الأستاذ (إبراهيم) ، حضر والد (زياد) بعد نداء زوجته وإخبارها له بأن صاحب المقهى بأول الشارع يريده، التقط سماعة الهاتف مجيبًا:

- أنا الأستاذ (إبراهيم).. خير؟
- .....
- ماذا؟ ... ابني (زياد)!... كثَّر خيرك يا معلِّم، سأفتح التلفاز حالًا.

وضع الأب سماعة الهاتف صائحاً بزوجته وهو يفتح التلفاز:

- تعالِ أنتِ والأولاد بسرعة.. (زياد) على التلفاز والجميع يشاهدونه الآن ، المقهى كله يتحدث عن (زياد) ابن الأستاذ (إبراهيم).

****

في مقهى المعلِّم (صبحي) ارتفعت صرخات الحضور، قرَّب المعلِّم (صبحي)كرسيه من التلفاز مع تجمهر رجال وشباب الحارة حوله يتابعون المسابقة والتألق الغير عادي لـ(زياد) الذي أذهل الجميع بإجابة الأسئلة بسرعة وسلاسة، وازداد الانبهار أكثر مع وصول المسابقة لفقرة أسئلة السرعة والتي يحصد فيها الدرجات من يجيب أولًا والتي حصدها (زياد) بسرعة مذهلة أدهشت الجميع دون ترك

فرصة للمنافس لانتزاع سؤال واحد منه ، تقدم مُقدِّم البرنامج بعدها قائلًا:

- والآن أعزائي المشاهدين والمشاهدات.. حان موعدنا الآن مع فقرة "صَوِّت لمن تراه الأفضل" ، هذه الفقرة بطلها الحقيقي هو الجمهور، سيخرج من كل فريق فردًا يستخدم كل ما لديه من لباقة ومهارة في الحديث ليقنع بطريقته وبكلماته جمهور المشاهدين عبر العالم بالتصويت لفريقه فيما لا يتجاوز الخمس دقائق ، والاتصال سيكون على الأرقام الظاهرة أمامكم للتصويت.

المفاجأة المذهلة لكل من بالمقهى جاءت مع خروج تلك الفاتنة اللبنانية الآنسة (غزل) من فريق (زياد) لتطلب من المشاهدين بصوتها الجميل وفتنتها الساحرة وبكلمات تفيض عذوبة ورقَّة التصويت لفريقها، لتنطلق بعدها الأصابع مداعبة أرقام الهاتف للتأييد مع تناثر التعليقات عن أن التأييد هو أقل ما يجب فعله تجاه هذا الجمال الخلاَّب.

بشقة الطابق الأخير كان كلٌ من (كمال) و(همَّاس) يتابعان البرنامج في سعادةٍ غامرةٍ وقد انطلقت ضحكاتهما صافية من القلب ممزوجة بحماس التشجيع وصدق الدعاء من القلب لـ(زياد). التفت (كمال) لـ(همَّاس) قائلًا:

- ابن المحظوظة!!

قهقه (همَّاس) معاتبًا:

- (زياد) يحتاج منَّا للتشجيع لا الحسد.

- الحسد أقل مايمكن فعله لمن يجلس بجوار تلك الفاتنة الحسناء .

قهقه (همَّاس) مردفًا:

- الحقيقة أن الفتاة اسم على مسمى بالفعل، ولا شك لديّ بأنها ستحصد للفريق أصواتًا لا حصر لها ، وقد يكون فريق "السحاب الأبيض" هو الحصان الأسود للبطولة بوجود كلٍ من (زياد) و(غزل).

- أعجبتني هذه المسابقة للغاية وسأتابع كل مبارياتها وليس مباريات (زياد) فقط ومن يدري كيف هي الأوراق الرابحة بالفرق الأخرى، فقد أجد حسناء وهيفاء ونانسي وفتون .

أجابه (همَّاس) قائلًا:

- الأوراق الرابحة التي تتحدث عنها مثل (غزل) دورها لا يتجاوز بضع درجات فقط ، أمّا ما يقوم به (زياد) لفريقه فهو شيء أشبه بالجواد الجامح الذي يقفز الحواجز ويتخطى الموانع بسهولة ورشاقة بما يمتلكه من ثقافة غزيرة لم أظن يومًا بأن ذاك الفتى الذي يعيش بيننا يمتلكها.

التفت (كمال) لـ(همَّاس) بوجهٍ جادٍ سائلًا:

- أسيربح أموالًا جيدة من تلك المسابقة؟

- الكثير يا صديقي... فالمشاركة وحدها حتي وإن خسر تعني كسب أموال، وهناك مكافآت فوز تصرف لهم عقب الفوز ومكافآت أخرى من الرعاة والممولين للفريق لزيادة الحماس ورفع المعنويات، أمّا لو حالفه الحظ ووصل للمباراة النهائية أو فاز فريقه بالكأس فلا أستطيع أن أروي لك حجم مكاسبه.

- أتقصد أن (زياد) سيصبح ثريًا؟

- مكاسب الشهرة أهم بكثير من الأموال.

- أتظنه سيشارك هكذا في مسابقات العام التالي أيضًا؟

- لن يصبح بحاجة للمشاركة في الأعوام التالية ، وقد يكون أول ما يفعله هو أن يُعد حقيبته ويغادر عالمنا الكئيب هذا ، مخطئ إن ظننت مكسبه فقط في الأموال التي سيحصدها فقط بل ستُفتح له أبواب وفرص كثيرة قد يكون من بينها المشاركة في الإعلانات بالتلفاز أو الفوز بدور في أحد المسلسلات، وسيصبح بلاشك ضيفًا في برامج "التوك شو" ، وقد تدعوه المسابقات الثقافية الأخرى للاستفادة منه كدعاية جيدة لها.

- إلى هذه الدرجة يا (همَّاس)!

- وأكثر يا صديقي، بل أخشى أن أخبرك بأن أيامنا مع (زياد) أو الأصح أيام (زياد) معنا قد باتت معدودة بعد تألقه الملحوظ، وسيتركنا غالبًا بعد أن تُفتح له أبواب الشهرة.

****

اللقاء جري سريعًا بين (ساجد) و(أوَّاب) بالمسجد ، تملكت الدهشة (أوَّاب) وهو يري صمتٌ غريبٌ بدلاً من ظهور الفرحة في عيون (ساجد) حين ناوله مبلغ الدين لينطلق للمعلّم (صبحي) لسداد دينه ، كلمات (ساجد) الموجزة أوضحت له السبب فالمعلّم (صبحي) قد طالبه بإخلاء الشقة ومغادرة البناية اليوم ، وإنه إن لم يفعل ذلك فسيرسل له من يقوم بهذا نيابةً عنه ، سأله (أوَّاب):

- وماذا ستفعل؟

- لا أدري!.. هل أبدأ بالتجوال والبحث عن شقة؟ أم أحزم حقائبي وأنقل أشيائي لأي مكان قبل أن يُلقيها المعلّم (صبحي) بالشارع؟ أم أفكر في حل لوالدتي والجراحة التي قرَّرها الطبيب و تتطلب ثروة لا

نملكها؟ أم أفكر في امتحاناتي التي صارت على الأبواب بنسب غياب مرتفعة صارت تمثل خطرًا يهددني؟ المعلّم (صبحي) اختار أسوء توقيت ليطلب مني إخلاء الشقة والمغادرة ! كدت أرضخ قابلاً بالشراكة معه لولا والدتي التي أقسمت حين علمت بالأمر بأنها ستغضب عليَّ غضبةً لا تُسامح أو رجعة فيها إن فعلت هذا ، وأنها إن ماتت فستلقى الله وهي غاضبة عليَّ قائلة لي بحسم بأنه لا الجراحة ولا غيرها يمكنها أن تزيد أو تنقص من عمرها دقيقة واحدة وأنها ستعيش فقط ما كتبه الله لها من عمر.

صعد (أوَّاب) للشقة وقد أطبق الضيق على صدره فطلب من (همَّاس) و(كمال) النزول معه للقاء المعلّم (صبحي) بعد أن شرح لهما ما حدث، اللقاء بالمعلّم (صبحي) جرى في مقهاه ، رحَّب بهم وأعدَّ لهم مكانًا جيدًا بعيدًا عن الضوضاء وطلب الشاي والقهوة لـ(أوَّاب) و(همَّاس) والنرجيلة لـ(كمال) ثم تألقت عيناه بالبريق وهو يرشف قهوته سائلاً:

- عساه خيرًا.. أقلقني اجتماعكم معًا هكذا ! ما الأمر؟ ... أتنون الرحيل عن الشقة معًا أم ماذا؟!

أخرج (أوَّاب) مظروفًا مغلقًا ناوله للمعلّم (صبحي) قائلًا:

- أعطاني (ساجد) هذا المظروف وطلب مني تسليمه لك وأن أشكرك بشدة حتى يلقاك ويشكرك بنفسه وأنه لن ينسى أبدًا وقوفك بجواره وإقراضك له وقت حاجته ، وطلب مني كذلك أن أتأكد منك بأن المبلغ كامل وليس به أي نقص.

فتح المعلّم (صبحي) المظروف وأخرج النقود وبدأ في عَدِّها قبل أن يهزّ رأسه في رضا قائلًا:

- تمام المبلغ كامل بلا نقص ، والآن اخبروني ما الذي جمعكم هكذا وجئتم لأجله؟

نظر (كمال) لـ(همَّاس) في تردد مصطنع قائلًا:

- الأفضل إخبار المعلّم بالحقيقة الآن يا (همَّاس) بدلًا من أن يعرفها لاحقًا ويصبح شكلنا أمامه سيئًا.

ارتسمت الدهشة في عيون المعلّم (صبحي) مع الكلمات فأردف (كمال) بسرعة قائلًا:

- الحقيقة يا معلّم أن (ساجد) قد وجد شقة أخرى واسعة بمكان آخر وسيرحل إليها ودعانا جميعاً للرحيل والسكن معه بشقته الجديدة الواسعة لنتشارك معه السكن والإيجار.

تغيرت ملامح وجه المعلّم (صبحي) وهو يهتف في ضيق صائحاً:

- يأخذ سكاني مني ويرحل بهم لشقة جديدة، أهكذا يشكرني؟ أهذا هو ردُّ الجميل لديه؟ "صحيح خير تعمل.. شر تلقى"، الآن أصبح سكنه مع الآخرين مقبول ومتاح! أليس هو من أقام الدنيا ولم يقعدها وكاد يتشاجر مع (زياد) رافضًا أن يشاركه أحد السكن أو أن يسكن معكم في شقتكم؟!

قاطعه (همَّاس) قائلًا:

- كيف هذا يا معلّم.. (ساجد) كان يرغب بالفعل في السكن معنا لولا طلبك منه إخلاء الشقة بسرعة ومغادرة العمارة كلها !

صاح المعلّم (صبحي) وهو ينهض في انفعال هاتفًا:

- نعم أخبرته وطلبت منه هذا لأنه هو من أخبرني منذ البداية يوم لقائنا الأول بأنه لا يريد السكن مع أحد ولو كان (زياد) بيننا الآن لأخبركم بذلك بنفسه.

تمتم (أوَّاب) برزانة قائلًا:

- أيعني هذا بأنك لا ترفض سكنه معنا يا معلّم ؟

- أي عقل هذا .. ماذا أصاب عقولكم؟! كيف أرفض أن يزيد الإيجار لخمسة إيجارات من ذات الشقة بدلًا من أربعة؟!

غمغم (كمال) في ضيق قائلًا:

- تأخر الوقت وخرج الأمر من أيدينا .. لو علمنا بهذا فقط باكرًا ربما لاستطعنا فعل شيء!.

قاطعه (همَّاس) في حسمٍ قائلًا:

- لا .. لم يفت الأوان بعد ومن نعرفه أفضل ممن لا نعرفه وسأخبر (ساجد) بأننا نُفضل البقاء هنا بالحارة أكثر وأن الأولى به أن يسكن هو معنا.

أردف (أوَّاب) مقاطعًا:

- سأخبره أنا بأن المعلّم (صبحي) لا مانع لديه من سكنه معنا، وأنه فقط لم يكن يعلم بقبوله بالسكن مع آخرين وأنه حين علم بذلك رحب بسكنه معنا .

بدأ الغضب يرحل عن وجه المعلّم (صبحي) مع سماعه لكلمات (أوَّاب)، ثم أردف قائلًا:

- أجل، لا مشكلة لديّ في أن تخبروه بذلك...

قاطعه (همَّاس) قائلًا:

- قد لا يصدقنا، وقد يظنها حيلة منا لعدم رغبتنا في السكن معه.

تمتم (كمال) وهو يمسك بيد المعلِّم مستحثًا إياه على القدوم معهم قائلًا:

- الأفضل أن تخبره ذلك بنفسك.. هيا يا معلِّم سنحتاجك معنا لدقائق ليجدنا جميعاً أمامه ولتخبره بنفسك بأن لا مانع لديك من سكنه معنا ، هيا اسرع لندركه قبل أن يغادر فلا شك بأنه قد حزم متاعه.

* * * *

(٢٥)

أوشك (ساجد) على الانتهاء من حزم أغراضه، كلمات (أوَّاب) التي قالها في لقائهما بالمسجد عقب الصلاة نفضت الإحباط عنه قليلًا وضخّت الحماسة بأوصاله لكنه لم يفهم لماذا سحب (أوَّاب) الأموال التي مدَّ يده له بها لسداد دين المعلّم (صبحي) وأعادها لجيبه من جديد؟! أكان ينوي إقراضه وتراجع؟

صعد (ساجد) لشقته وبدأ بحزم أشيائه للرحيل، سيستأذن رفاق شقة الطابق الأخير في وضع متاعه لديهم حتى يجد مكانًا يسكنه، وسيبدأ بسؤال رفاق دراسته الأغراب في المعهد غدًا صباحًا عن مكان آخر يمكن الانتقال إليه فعسى أن يجد بينهم من يقبل باستضافته الفترة القصيرة المتبقية من عمر المنحة.

شعر بالإجهاد والتعب وبدأ الدوار يتلاعب برأسه مع رغبة في التقيؤ بالرغم من أنه لم يتناول شيئًا منذ الصباح، أفزعته الطرقات القوية المتتالية على الباب مع ضغط الجرس بلا توقف، لا شك أنهم رجال المعلّم (صبحي) جاءوا ليُلقوا به وبأشيائه خارج الشقة، الطرقات لم تتوقف بل ازدادت قوة وإصرارًا ، تحرك في حذر أخيرًا ليفتح الباب مع خوف تملكه من إقدام هؤلاء الأغبياء على كسر الباب واقتحام الشقة لتنتهي إقامته في الحارة بفضيحة، فتح الباب فإذا بالمعلّم (صبحي) أمامه و رفاق شقة الطابق الأخير عدا (زياد) ، دخلوا الشقة متعاقبين والمعلّم (صبحي) يهتف في ضيقٍ معاتبًا:

- أهذا ردُّ الجميل لديك .. تأخذ سكاني لترحل بهم لشقة أخرى!

ارتسم الذهول على وجه (ساجد) واتسعت عيناه في حيرة من لا يفهم شيئًا ، غَمزةٌ سريعة من عين (كمال) جعلته يصمت ، صاح (همَّاس) بحسمٍ قائلًا:

- لقد تحدثنا مع المعلّم (صبحي) يا (ساجد)، ولن نرحل من هنا لنسكن معك بل أنت من ستصعد لتسكن معنا.

صاح المعلّم في (ساجد) هاتفًا:

- ولماذا لم تخبرني بأنك تريد السكن معهم من البداية ؟!

تمتم (كمال) بسرعة قاطعًا الفرصة على (ساجد) في الرد:

- "حصل خير يا معلّم"، اعتذار مهذب سيُنهي الأمر مع أصحاب الشقة الجديدة طالما أننا لم نوقع أي أوراق أو عقود.

أردف المعلّم قائلًا:

- أتحبون أن أرسل الأستاذ (فهيم) المحامي معكم للمساعدة ؟

تمتم (هَّماس) وهو يحمل إحدى الحقائب ليصعد بها قائلًا:

- اعتبر الأمر مُنتهيًا يا معلّم وسنحمله بحقائبه ونصعد به معنا.

أردف (كمال) وهو يحمل حقيبة ليصعد بها قائلًا:

- لا أعرف كيف يمكن لمن اعتاد هذه الحارة وسكانها أن يتركها ويرحل عنها ؟!

مدَّ (أوَّاب) يده ليصافح المعلّم (صبحي) قائلًا:

- "خلاص يا معلّم إحنا و(ساجد) مكملين معاك في العمارة ، ومتشكرين على تفهمك وسعة صدرك، وربنا يديم المعروف".

خرج المعلّم مغادرًا الشقة بعد مصافحة (ساجد) وانتهاء المشكلة ببقائهم جميعًا بشقة الطابق الأخير ، التفت (ساجد) بعدها لـ(أوَّاب) سائلًا:

- ولماذا كان الطرق على الباب بتلك الطريقة المخيفة؟!

- إحدى دعابات (كمال) السخيفة التي يجب أن تعتادها بما أنك قد قبلت بالسكن معنا.

عاد كلٌ من (كمال) و(همَّاس) بعد أن صعدوا بحقائب ومتاع (ساجد) لشقتهم، قفز (ساجد) ليعانقهم في فرحة غامرة وهو لا يجد من الكلمات ما يستطيع أن يوفيهم به حقهم من الشكر بعد أن أعادوا لحياته الهدوء والاستقرار من جديد، التفت إليهم بغتة سائلًا:

- من منكم صاحب فكرة الانتقال للشقة الجديدة هذه؟

أجابه (كمال) وهو يشير لنفسه في زهوٍ قائلًا:

- "تفتكر مين صاحب الأفكار العبقرية دي غير عمَّك (كمال)".

احتضن (ساجد) (كمال) وقبّل رأسه في امتنان وهو يطفأ الأنوار ويغلق الباب صاعدًا معهم لمقر سكنه الجديد بشقة الطابق الأخير.

****

تحركت والدة (إنجي) لتسأل والدها قائلة:

- الخادمة تسأل .. أتضع العشاء الآن؟

نظر لساعته قبل أن يجيبها:

- ليس الآن .. سأشاهد المباراة أولًا ثم نتناول العشاء بعدها.

ارتسمت الدهشة على وجه الأم وهي تجلس بجوار زوجها سائلة:

- منذ متى وأنت تهتم بالمباريات وتتابعها؟!

- مازلت لا أهتم لكن مع الضجة الكبيرة المثارة حول الثنائي (زياد) و(غزل) والتي أصبحت حديث الجميع قررت أن أشاهد بنفسي ، أتدرين لقد رجاني سائقي اليوم بحياء إن كان بالإمكان العودة باكرًا حتى يتمكن من مشاهدة مباراة نهاية الدور الأول لفريق (زياد) و(غزل) ، وحين سألت مديرة مكتبي بالهاتف عن سبب الضجيج خارج مكتبي أخبرتني بأنها مشادة بين أحد أعضاء النقابة المتحمسين لفريق "السحاب الأبيض" مع زائر آخر كان يجلس بانتظار الدخول لي.

- إلى هذه الدرجة؟!

- وأكثر.. أتدرين ما المفاجأة؟

هزت الأم رأسها في استفهام فأجابها قائلًا:

- أهم أعضاء الفريق شاب اسمه (زياد) يقولون أنه يعمل بالشركة التي تعمل بها (إنجي) ، ومن الممكن أن تجدي ابنتك تعرفه. بالمناسبة أين هي؟

- بغرفتها.. أظنها نائمة.

- أيقظيها وناديها لنشاهد البرنامج سويًا وتخبرنا أحقًا يعمل هذا الشاب معها بالشركة أم أنها مجرد إشاعة ، ثم لنتناول العشاء سويًا بعد البرنامج.

حضرت (إنجي) بعد أن نادتها والدتها، حاولت الاعتذار في البداية لرغبتها في النوم لكن والدتها حسمت الأمر قائلة:

- هيا الآن .. فوالدك يريد الحديث معكِ وسنتناول العشاء سويًا.

نزلت (إنجي) فاختارت الأريكة البعيدة عن والدها لتجلس عليها مع موسيقى بدء البرنامج ، ليخرج بعدها مُقدِّم البرنامج الوسيم متوسطًا المسرح وهو يقول:

- عدنا إليكم أعزائي المشاهدين مع الفريقين أصحاب أعلى النقاط بالمجموعة الأولى، كلا الفريقين سيتأهل للدور التالي لكنها مباراة تحديد الترتيب من المتصدر ومن التالي. مباراتنا اليوم بين فريقيّ "طوق الياسمين" و"السحاب الأبيض" ولا تنسوا الأرقام الظاهرة أمامكم وفقرة "صَوِّت لمن تراه الأفضل".. علي بركة الله نبدأ.

التفت والد (إنجي) لابنته سائلًا:

- هل حقًا يعمل (زياد) هذا عندكم في الشركة؟

ارتباك شديد سيطر على (إنجي) مع ارتفاع وتسارع ضربات قلبها كطبول الحرب وهي تُجيب قائلة:

- الأستاذ (زياد) هو المشرف المباشر على تدريبي.

ضرب الأب كفًا بكف وهو يلتفت للأم قائلًا:

- هل رأيتِ.. الشاب الذي ينتظره ويشجعه الجميع هو المشرف على تدريب ابنتك.

أجابته (إنجي) قائلةً:

- يأخذ إجازات متنوعة يتم تجديدها له بعد توقفه عن الحضور الفترة الماضية لانشغاله بالمسابقة.
- أشيري لي عليه لأعرف من هو بين أفراد فريق "السحاب الأبيض".

كاد قلب (إنجي) يثب خارج صدرها من فرط الرعب مع طلب والدها الأخير ، سيراه أمامه الآن وسيعرف بأنه الفتى صاحب الوردة الحمراء ، حقًا "الكدب ملوش رجلين" ، سيفتضح أمرها الآن وتظهر الحقيقة أمامهم ، لم تشر لوالدها عليه بل صمتت تدعو في سرها بأن يكون لطف الله حليفها وتمر الأمور على خير، اقتربت الكاميرا مع أحد الأسئلة لتتوقف على وجه (زياد) الذي بدا واثقًا للغاية وهو يُجيب بسرعة وثقة على السؤال المطروح، فالتفت الأب إلى (إنجي) قائلًا:

- أتعرفين بأن الفتى يملك وجهًا مريحًا من الوجوه التي تُشعرك وكأنه صديق قديم أو أحدٌ تعرفه منذ القدم، ومن يدري فقد يكون وجهه المألوف المريـح هذا أحد أسباب الشعبية الكبيرة إلى جانب مهارته وغزارة معلوماته بالطبع.

حمدت (إنجي) الله مع تنهيدة خافتة ، لم تكن تحلم بأفضل من هذا ، يبدو أن مظهر (زياد) بهذه البزَّة الأنيقة وتصفيفة الشعر التي صنعها له فريق إعداد البرنامج قد جعلت منه فتى آخر غير الصورة العالقة بذاكرة والدها وهو ينفض ثيابه بعد النجاة من مطاردة الكلب (ماكس).

- الفتى رائع بحق.. هل رأيتِم كيف أجاب بسرعة وكأنه لم يفكر.

فكرة مجنونة قفزت لرأس (إنجي) وعقدت العزم علي تنفيذها اليوم ليلًا ، ستمسح تسجيلات الكاميرات لفترة يقع يوم الوردة الحمراء داخلها وكأنها تفرغ للكاميرات مزيدًا من المساحة لتمنع والدها من للرجوع لذلك اليوم من جديد ، وإذا ما حاول فلن يجد ما يمكنه الرجوع إليه مبطلة بذلك مفعول لغم قد ينفجر بأية لحظة ولتطمس تلك الذكرى نهائيًا.

****

انحنى (أوَّاب) واضعًا الشاي والقهوة أمام (كمال) و(همَّاس) الغارقان بتركيز تام في متابعة (زياد) و(غزل) في المباراة الجارية ، حمل الصينية وعليها باقي الأكواب متجهًا نحو غرفة (ساجد) ، ناداه (همَّاس):

- لِمَ لاتأتِ وتجلس معنا لنشاهد تلك المباراة الرائعة لـ(زياد)سوياً.

قاطعه (كمال) مردفًا:

- تعال ولا تضيع الفرصة.. فـ(غزل) اليوم ترتدي ثوبًا رهيبًا.. "وآآآآآآآآآآو".

- لا شكرًا.. فلا أريد رؤية (غزل) ولا ثوب (غزل).

حمل (أوَّاب) الصينية وعليها الشاي والقهوة له و(لساجد) ، طرق الباب ثم دخل بعد سماع الإذن بالدخول ليجلس قائلًا:

- لم آتِ لأعطلك وإنما أردت كسر حدّة المذاكرة في دقائق قليلة نشرب فيها الشاي سويًا.

- تفضل يا (أوَّاب).. فأنا مدين لك بالشكر.

- تشكرني على ماذا فالشاي ليس سوي أصغر مهاراتي ، لم تتذوق طعامي وتعرف مهارتي في الطهي بعد .

- ليس عن الشاي أشكرك ، فقد قابلت المعلّم (صبحي) عند عودتي من المعهد اليوم، وأخبرني بأنه على استعداد لإقراضي من جديد إن احتجت مالًا طالما أنني لست ممن يتأخرون في سداد الدين ، وأخبرني بأنك قد سلمته النقود التي أرسلتها أنا إليه كاملة بلا نقص.

- لا تقل هذا فنحن أخوة ، وتلك الأيام نداولها بين الناس ومن يدري فقد تتبدل الأوضاع والأماكن غدًا فتكون أنت مكاني وأنا مكانك ، لكن دعنا من هذا الآن واخبرني كيف هو حال والدتك الآن؟

- لم يتغير شيء ، اطلع الطبيب على الفحوصات والتحاليل وقرَّر ضرورة إجراء الجراحة مؤكدًا بأن كل يوم يمر عليها دون إجراء الجراحة يحمل المزيد من التدهور للحالة ، والأستاذ الكبير لا يعمل إلا في مستشفى بعينه مع طاقمه الخاص ، ولا نملك بالطبع مبلغ الجراحة الفلكي ، وقد استسلمت أمي وأبي للأمر قائلين لي بأن كل شيء سيأتي في موعده المكتوب بلا تقديم أو تأخير سواء أكان الشفاء أو المرض أو حتى الموت !

- ولماذا لم تفكر في تكرار التجربة لدى طبيب آخر أكثر إنسانية ورحمة؟

- نحن نتحدث عن أستاذ كبير وليس مجرد طبيب ! وأظنك تدرك الفرق بين الأمرين جيدًا بدءًا من أن تجد لنفسك مكانًا في جدول الحجز لديه - والذي قد يأتي بعد شهور - مرورًا بالتكلفة وصولًا لِقَصر وحصر التعامل على مستشفيات ومراكز ومعامل بعينها يختارها هو وما يعنيه ذلك من تكاليف مرعبة.

أخرج (أوَّاب) هاتفه وفتح صفحة فارغة للملاحظات ، ثم إلتفت إلي (ساجد) قائلًا:

- ستخبرني بكل التفاصيل الطبية للحالة وستعطيني صورًا من الأشعة والتحاليل والأدوية وأي ورقة طبية كُتِبت لها، ومن يدري فقد يوفقني الله وأجد من يستطيع المعاونة.

نظر (ساجد) لـ(أوَّاب) قبل أن يُجيبه قائلًا:

- تذكّر جيدًا بأن لا نزول في مستوى العرض ، ولا بد من أستاذ كبير حتى لا تُرهق نفسك في مجهود بلا طائل فالأستاذ الدكتور الذي كنا لديه كاد يسبنا أو يبصق علينا لمجرد أن أخبرناه بما قاله طبيب الوحدة المحلية بالقرية .

- لا تقلق يا (ساجد)، وثق بأني لن أحدثك في الأمر إلاَّ إذا كان لدي ما يرضيك.

- هناك أمر لا يعجبني لاحظته وأردت أن أسألك فيه.

- تفضَّل.

- لماذا يغلق (كمال) الغرفة عليه من الداخل بالمفتاح دائماً ؟ وما تلك الروائح الغريبة المنبعثة من غرفته أحيانًا؟

- اسمعني جيدًا يا (ساجد).. لا أحد منا يتدخل بشئون الآخر هنا، تلك هي القاعدة التي يجب أن تستوعبها جيدًا وتطبقها إن أردت أن تمضي أيامك معنا حتى انتهاء منحتك بسلام، الأشياء المشتركة بيننا فقط هي المطبخ والصالة والحمام والشُرفة، يمكنك السؤال عن أيٍ منها إن أردت، أمّا إذا فكرت في تجاوز ذلك فاعلم بأنك قد تفتح على نفسك وعلينا جميعًا أبوابًا للمشاكل قد لا يمكننا إغلاقها بسهولة.

****

التفت مُقدِّم البرنامج إلى فريق "السحاب الأبيض" قائلًا:

- مبروك لفريق "السحاب الأبيض".. وتهانينا بتصدركم المجموعة الأولى. الآن حان الموعد وكما هي عادتنا في نهاية كل مباراة بأن يقوم أحد أعضاء الفريق الفائز بإهداء النصر لعزيز أو صديق ، لكننا سنكسر التقليد المتبع في الأعوام السابقة بعدم الإهداء للأهل والأقارب،

وستُجرى القرعة الآن لنرى من سيكون صاحب الإهداء لهذه الليلة من فريق "السحاب الأبيض".

دار مُقدِّم البرنامج بعينيه بينهم واحد تلو الآخر ليزيد من الشوق والفضول في عيون الجميع وهو يراقبون السهم المتراقص لمعرفة من سيكون صاحب الإهداء حتي توقف السهم مشيراً لـ(غزل).

- تم اختيارك يا (غزل).. لمن ستهدين انتصارك اليوم؟

التفتت (غزل) نحو (زياد) قائلة:

- لـ(زياد) بالطبع ومن غيره.

ضجَّ المسرح بالتصفيق والصفير، التفت بعدها مُقدِّم البرنامج نحو (زياد) سائلًا:

- لو اختارتك أنت القرعة يا (زياد) أكنت ستهدي النصر لـ(غزل)؟

ابتسامة واسعة ملأت وجه (زياد) وهو يُجيب:

- (غزل) فتاة رائعة بحق، كنت أتمنى لو عرفتها ليس من سنوات بل منذ ولادتها ، أمّا الآن وبما أنك والجمهور تنتظرون مني الصدق فسأُهدي هذا النصر وكل نصر بحياتي لحبيبتي التي تركت قلبي معها، هي تسمعني الآن وتعرف نفسها جيدًا فلا يكن سؤالك التالي عن اسمها أو من تكون.

ارتفع تصفيق وصفير جمهور الحضور من جديد وكأن إجابة (زياد) قد أشعلت حماستهم، حتى والد (إنجي) التفت نحو زوجته قائلًا:

- الفتى بارع بحق فحبيبته التي لم يذكر اسمها هذه قد يخبر والدته في البيت بأنه كان يقصدها هي وليس سواها لولا منع الإهداء للأهل والأقارب ، وسيختلط الأمر على كثير من المحيطات به ممن لهن أعين عليه لتظن كل واحدة منهن بأنه قصدها هي دون غيرها ، وفي النهاية قد تكون هناك واحدة بعينها هي من امتلكت شغاف قلبه وهي من يرسل لها تلك الرسالة وتلك الكلمات .. يا له من فتى ذكي.

الكلمات التي قالها (زياد) لمُقدِّم البرنامج وتعليق والدها على الكلمات أذهلت (إنجي) وشعرت معها وكأن (زياد) قد اقترب منها ليهمس بأذنها وبعيون تفيض عشقًا بحبه لها وأنها من اختارها قلبه.

* * * *

(٢٦)

مرَّ يومان من الأيام الممنوحة كراحة لفريق "السحاب الأبيض" قبل موعد بدء مباريات الدور الثاني ، قضيت اليوم الأول مع أسرتي في البيت وسط احتفالات غير عادية وترحاب غير مسبوق في كل خطوة أخطوها ، أدهشني كثيرًا تغير طريقة تعامل والدي معي للفخر والزهو الشديد بي وإصراره على اصطحابي معه في كل خطوة يخطوها دون أن يملَّ من إخبار كل من يقابله بأنه الأستاذ (إبراهيم) والد (زياد).

استأذنت والدي في المغادرة لمقر الإقامة للمسابقة معللًا ذلك بحاجتي للتركيز أكثر والاستعداد لمباريات الدور القادم لأعود لشقة الطابق الأخير والحارة بحثًا عن الهدوء، الصورة لم تختلف كثيرًا في الحارة عن بيت أبي، نهض المقهى بأسره حال وصولي للحارة للترحاب بي، وقدَّم المعلِّم (صبحي) مشروبًا على حسابه للجميع ابتهاجًا بعودة البطل الذي رفع اسم الحارة عاليًا، بدأت أتلقى طوفانًا من الأسئلة التي لا تنتهي عن (غزل) وكيف هي (غزل)؟ وهل هي حقًا بهذا الجمال المبهر الذي تبدو عليه؟ وهل هي مرتبطة؟ وهل....؟؟؟؟ حتى أن فتى المقهى استوقفني وأقسم عليَّ بأغلظ الأيمان بأن أوصل لها سلامًا خاصًا منه.

المشهد داخل الشقة لم يقل هو الآخر فرحًا وابتهاجًا بي عما لقيته بالحارة والمقهى.. عناق وأحضان وقبلات، بل ورقصات بعد أن انتزع (همَّاس) عصا المكنسة وبدأ يرقص بها إحدى رقصات الصعيد الرائعة وسط جوٍ مليء بالفرح والسعادة بعودتي إليهم، الشيء الجديد بالنسبة لي كان وجود (ساجد) بينهم بالشقة، فرحت بوجوده بيننا

وانضمامه للسكن معنا بعد أن أخبروني بالقصة كاملة ، زارني صديقي العزيز (هاني) زيارة قصيرة هنَّأني فيها بأدائي المبهر الذي رفع رأسه ونال استحسان الجميع، حاولت إقناعه بالبقاء قليلًا لرغبتي في الحديث معه بأمور كثيرة لكنه أصرَّ على الانصراف قائلًا:

- رَّكز فقط في المذاكرة الآن ولا شيء غيرها فأدائك المميز قد ضاعف وقفز بالطموح لدى الجميع للفوز بالمباراة النهائية وليس مجرد الوصول إليها، وما أكثر الأيام القادمة بيننا يا صديقي.

رحت في نومٍ عميق لا أدري معه كم من الوقت مرَّ عليَّ وأنا نائم، طرقات (أوَّاب) على الباب أيقظتني وهو يذكرني بالنهوض للصلاة، ثم وجدت (همَّاس) يدخل إليَّ بعد أن أنهيت الصلاة حاملًا قدح من القهوة تفوح رائحته لتملأ الغرفة ويبدو أنه قد أعدَّه بإتقانٍ شديد، وضع القهوة أمامي وهو يتمتم قائلًا:

- "أحلى فنجان قهوة لبطلنا".

شكرته وطلبت منه أن يخفض صوت التلفاز بالخارج قليلًا لأني سأبدأ المذاكرة وأحتاج لمزيد من التركيز، أجابني بابتسامة قائلًا:

- ما رأيك أن تذهب للمذاكرة مع (ساجد) في غرفته؟ فهي أبعد الغرف عن التلفاز ، وهو مجتهد يعشق المذاكرة مثلك وأظن الفكرة ستعجبه بوجود من يؤنسه.

راقتني الفكرة فأومأت برأسي لـ(همَّاس) بالموافقة وحملت الحاسب المحمول وقدح القهوة وذهبت لغرفة (ساجد)، فتح (ساجد) الباب مُبديًا فرحه بقدومي، ثم قام فأعد لي الفراش ووضع الوسائد بطريقة تكفل لي المزيد من الراحة أثناء الجلوس. أنهيت القهوة وأنا منهمك في المذاكرة دون أن أرفع عيني عن الحاسب، نظرة سريعة

لـ(ساجد) سرقتها فوجدته غارقًا في المذاكرة بتركيز شديد هو الآخر حتى أنه لم يشعر بي ولا بنظراتي له ، أغلقت الحاسب ووضعته على الفراش ووقفت لأمنح ظهري بعض الراحة سائلًا إياه:

- كيف تجري أمورك معنا هنا يا (ساجد).. أأنت مرتاح معنا أم هناك مشاكل؟

- الأمور تسير بصورة جيدة والحمد لله، كان لي ملاحظات على بعض الأمور لكن (أوَّاب) طلب مني نسيانها تمامًا وعدم التفكير فيها أو الحديث عنها حتى أُنهي الأيام المتبقية لي من المنحة وأرحل في سلام دون مشاكل.

- لم أفهم! ماذا قصدت بقولك بأنه كانت لك ملاحظات على بعض الأمور؟

- لم أرتح أبداً لإغلاق (كمال) الباب على نفسه بالمفتاح من الداخل ولا تلك الروائح الغريبة المنبعثة من غرفته وأراها أمورًا تثير القلق ، وقد أخبرت (أوَّاب) بهذا.

- وبماذا أجابك؟

- رجاني بأن لا أبدأ بإثارة المشاكل .. وأن أدع الأيام تمر بسلام !

- وهل ضايقتك إجابته ؟ أراها منطقية للغاية فلكلٍ منا حياته وشئونه الخاصة.

تمتم (ساجد) بضيقٍ قائلًا:

- إغلاق الباب عليه من الداخل قد يحمل بين طياته مصيبة أو كارثة دون أن ندري ، فنحن لا نعرف ماذا يفعل بالداخل ولا يريدنا أن نعلمه!

- لماذا ترى في الأمر مشكلة؟ فكلٌ منا يحتاج لأن يخلو بنفسه أحيانًا.

- لا تخلط الأمور يا (زياد).. فأنا لا أتحدث عن دقائق يبدل فيها ثيابه، ولا عن لحظة حزن تخونه فيها عيناه بالبكاء ولا يريد لأحد أن يراه .. أنا أتحدث عن حاله الدائم، والفارق كبير.

- أراك تبالغ يا (ساجد).

- بل أنا من يرى نظرتك شديدة السطحية رغم ثقافتك الكبيرة يا (زياد)! هل سمعت من قبل عن شيء يسمى المداهمات الأمنية.. تخيل لو أن أحدها حدث على شقتنا واتضح أن السر وراء (كمال) مخدرات مثلًا أو أي نوع آخر من الممنوعات وجدوها بغرفته.. أتدري ماذا سيفعلون بنا حينها؟ أتظنهم سيصدقونك وينتهي الأمر حين تقسم لهم بأنك مجرد ساكن في الغرفة المجاورة له فقط؟!

ذهول اعتراني وأنا أُصغي لما يقول قبل أن يردف:

- أتدري.. حتى لو حدث وصدقوك بالفعل فستقضي أيامًا ككابوس بغيض لن يُنسى في الحبس الاحتياطي وسط المجرمين والمسجلين خطر وأرباب السوابق الإجرامية قبل أن يتم الإفراج عنك بكفالة ، أيام ستكون كالنقش على الحجر في ذاكرتك لن تنجح سنوات عمرك القادمة في طمسها أو محوها من ذاكرتك.

- وهل تظن بـ(كمال) أن يفعل مصيبة كهذه؟

- أنا لا أظن بأحد شيئًا ولا أتهم أحداً سواء (كمال) أو (همَّاس) أو أنت ، أريد الشفافية بيننا فقط بما أننا نعيش معًا، فهذه غرفتي أمامكم لا تحوي سوى ملابسي وحاسبي وأوراقي ونقودي في جيبي، ولو دخلت أنا الآن لغرفتك أظنني سأجد نفس الأشياء تقريبًا ولن أجد اختلافًا كبيرًا،

ولا حاجة لك لأن تغلقها بالمفتاح أو تمنع أحدًا من دخولها أبدًا كما يفعل (كمال) إلاَّ لو كان هناك ما تخشاه ثم اخبرني بالله عليك ألم تشم أبدًا تلك الروائح الغريبة المنبعثة من غرفته؟!

طرقات على الباب قطعت حديثنا ، دخل (أوَّاب) ليتوسط الغرفة وهو ينظر لـ(ساجد) قائلًا:

- أستأذنك في بضع دقائق من وقتك إن لم أكن سأعطلك فلدَّي ما يهمك.

أجابه (ساجد) ببساطة قائلًا:

- تفضل فلن تعطلني أو تهدر وقت .. كلي آذان صاغية.

- قلَّبت ذاكرتي في الأيام الماضية بحثًا عمن أستطيع الاستعانة به في حل مشكلة والدتك حتى تذكرت أحد الأساتذة الكبار كنت قد أنهيت بعض أعمال الديكور له منذ فترة طويلة ، الحقيقة أن الرجل كان طبيبًا إنسانًا بحق، ولا تخف فهو أستاذ كبير ممن لا تخلو المؤتمرات داخل البلاد وخارجها من اسمه ، وستجد صور شهاداته معلقة على جدران عياداته والمجلات والصحف التي تحوي اللقاءات والمقابلات التي أُجريت معه موضوعة أمام المرضى في كل عيادة من عياداته ، ولن تستطيع أن تحجز كشفًا بعياداته قبل أشهر قادمة شأنه شأن سائر الأساتذة الكبار حتى لا تظنني أتحدث عن طبيب عام أو طبيب مستوصف ، الفارق لديه فقط أنه أحد من لم يستطع العلم أو الثراء أن يطمسا إنسانيته ويحولانه لرجل أعمال جشع يحركه المكسب والربح.

- اكمل يا (أوَّاب) فلقد أثرت فضولي.. هل اتصلت به؟

- بل حملت نفسي وذهبت لعيادته التي كان مقررًا أن يتواجد بها بتلك الليلة، تذكرني الرجل رغم خشيتي بألاَّ يتذكرني ، رويت له كل ما

سمعته منك عن الحالة وأطلعته على الأوراق الطبية لحالتها التي أخذتها منك.

هتف (ساجد) وقد بلغ الفضول أقصى درجاته في عينيه قائلًا:

- وبماذا أجابك؟

- لم يقل أكثر من "دع الأوراق لي وسأتصل بك لاحقًا".

تمتم (زياد) وهو يهز رأسه مردفًا:

- جيد أنه تذكرك أساسًا.

- حادثني منذ دقائق كما وعدني وأخبرني بأن الحالة ليست تخصصه لكنه عرض الحالة على أحد أصدقاءه في هذا التخصص وأخبره بأن أمر هذا المريض يهمه، فأجابه بأن الجراحة لا بد أن تُجرى بسرعة قدر المستطاع وأن التأخير ليس في صالح المريض.

زفر (ساجد) في ضيقٍ شديد قائلًا:

- أجئت لتزيد أوجاعي يا (أوَّاب)؟! أعرف هذا جيدًا، وما قاله لك ليس جديدًا فلا حاجة بك لأن تعيده عليَّ لتذكرني بما أريد نسيانه.

أخرج (أوَّاب) من جيبه ورقة صغيرة ناولها لـ(ساجد) بابتسامة وهو يقول:

- لم أتِ أبدًا لزيادة أوجاعك ، بل أتيت لأخبرك بأن العملية ستُجرى على نفقة الدولة.. اتصل فقط بالأستاذ (بسيوني) على الرقم الموجود بهذه الورقة، أو اجعل والدك يذهب إليه مباشرةً على هذا العنوان الرجل علي علم بالحالة وسيكون بإنتظاره لإنهاء كل الإجراءات اللازمة وإتمام الأمر.

قفز (ساجد) في الهواء صارخًا في فرح يعانقني وهو لا يصدق ما سمع ثم عانق (أوَّاب) وحمله ودار به عدَّة دورات قبل أن يتركه ليلتقط هاتفه ويحادث والده ، حضر كلٌ من (كمال) و(همَّاس) على صوت صرخات الفرح العالية التي أطلقها (ساجد) والذي كان قد بدأ يروي في سعادة لوالده عبر الهاتف ما قاله له (أوَّاب) قبل قليل. رنين جرس الباب أخرج (همَّاس) من الغرفة ليرى من بالباب وهو يتمتم لـ(أوَّاب) قبل أن يخرج قائلًا:

- ما أروعك يا (أوَّاب) بإدخال كل هذه الفرحة لقلبه و لأسرته.

دقيقة غابها (همَّاس) وكلٌ منا يعرض على (ساجد) استعداده لتقديم أي مساعدة يطلبها أو يحتاجها ، عاد لنا (همَّاس) لينظر لـ(ساجد) قائلًا:

- فتاة بالخارج تحمل حاسبها المحمول وترغب منك أن تصلحه لها.. أأصرفها وأقول لها بأنك مشغول الآن؟ أم أخبرها بأنك قد أغلقت المكتب وتوقفت عن ممارسة المهنة؟ أم ستخرج للقائها أنت بنفسك لتقول لها ما تريد؟

أجابه (ساجد) في حسمٍ قائلًا:

- بل سأخرج لها بنفسي وسأصلح لها حاسبها مجانًا دون مقابل.

غادرنا جميعًا غرفة (ساجد) فذهب هو للفتاة على الباب وذهب (أوَّاب) لغرفته و(كمال) للحمَّام وبدأ (همَّاس) بالتمارين الرياضية كعادته في الصالة وهو يشاهد التلفاز، دخلت لغرفتي وكلمات (ساجد) ما زالت تطّن بأذني.. ما قاله (ساجد) واقعي للغاية وليس به مبالغة فباب الثقة والاطمئنان هما أوسع الأبواب بالفعل لدخول المصائب،

خرجت لأحادث (همَّاس) في الأمر، لم أصدق نفسي حين ضغطت مقبض باب غرفة (كمال) وأنا في طريقي لـ(همَّاس) فانفتح الباب، إنها إحدى المرّات النادرة التي يترك فيها (كمال) غرفته مفتوحة دون أن يغلقها بالمفتاح ويأخذ المفتاح معه، لا شك أن صيحات وصرخات فرح (ساجد) هي من أنسته إغلاق الباب، دخلت الغرفة وأغلقت الباب خلفي بسرعة قبل أن يلمحني أحد.

بدأت بسرعة في تفتيش المحتويات وتفحص الأدراج والأرفف بأقصى سرعة ممكنة، لم أجد أي شيء غير طبيعي باستثناء المبخرة وأعواد وحبوب البخور الغريبة المجاورة لها والتي لابد أنها المسئولة عن تلك الرائحة التي أثارت ضيق (ساجد) ، تابعت البحث فلم أجد أي ممنوعات أو ما يثير الريبة كما يظن (ساجد) وها أنا قد تأكدت بنفسي، اتجهت لأغادر الغرفة لكن منظر تلك الحقيبة السوداء المغلقة والموضوعة أسفل المقعد استوقفني.

ترددٌ دار بعقلي لثواني.. أأغادر بسرعة قبل أن يعود (كمال) ويراني؟ أم أفحص الحقيبة ولا أضيع تلك الفرصة النادرة التي قد لا تتكرر ثانيةً بنسيانه لغرفته مفتوحة؟ انتصر الفضول داخلي، دقيقة أخرى إضافية ستقتل الشك تمامًا وتمنحني و(ساجد) الاطمئنان التام، قفزت نحو الحقيبة ففتحتها لأجد بها مجموعة من الكتب القديمة المهترئة بعضها بلا غلاف والبعض الآخر متآكل الأطراف ، ما أن بدأت في قراءة عنوان أول كتاب حتى أصابني الذهول ، انتقلت للتالي فالذي يليه لأدرك حجم المصيبة الكبيرة التي تحويها هذه الحقيبة، حتى أنني نسيت وسط ذهولي أنني بغرفة (كمال) في غيابه، ذاكرة الإحساس بالخطر التي فقدتها عادت لي مع صيحة مرعبة هادرة أطلقها (كمال)

وهو واقف بباب غرفته يرمقني بغضبٍ شديد وعيون تمتلئ بالشر، ذهول تملكني فلم أدري ماذا أفعل أو أقول.

دخل علينا كلٌ من (همَّاس) و(أوَّاب) مندفعين مع صيحات (كمال) الغاضبة فوقفا يتبادلان النظرات في حيرة بيني وبين (كمال)، ثم تساءل (همَّاس) قائلًا:

- ما الأمر؟ ولماذا الصياح؟

أجابه (كمال) بانفعال وبنفس الصوت الهادر صائحًا:

- ماذا كان يفعل في غرفتي أثناء غيابي؟ أكان يسرقني أم يتلصص عليَّ أم يفتش أشيائي؟.. هو أمامك اسأله فعسى أن يُجيبك أنت؟

حاولت التماسك والسيطرة على أعصابي قدر استطاعتي وعيونهم ترمقني بنظرات حائرة ، رفعت أحد الكتب من الحقيبة بيدي لأعلى سائلًا:

- بل أنت من ستجيب.. ما هذا؟

- لا تجب على السؤال بسؤال يا (زياد).. ماذا كنت تفعل بغرفتي؟ ولماذا كنت تفتش أشيائي؟

- هل ستخبرهم ما تلك الكتب التي بالحقيبة يا (كمال) أم تحب أن أخبرهم أنا؟

- ليس شأنك.. فهي كتب قديمة اشتريتها على أمل أن يأتي يوم وأقرأها.

- إن خدعتهم بتلك الكذبة البلهاء فلن تخدعني أنا ، لأنني أعرف جيدًا هذه الكتب وكم الشر الذي تحويه.

حضر (ساجد) وبيده حاسب الفتاة بعد أن طلب منها انتظاره لدقيقة حتى يعود إليها، نظر وهو يغمغم قائلًا:

- ما الأمر؟ صوتكم عالٍ كالشجار، اخفضوا أصواتكم قليلًا حتى لا يصعد إلينا الجيران وهم يظنوننا نتشاجر.

صاح (همَّاس) في حدّة قائلًا:

- أفهموني من فضلكم ما الأمر؟ فلن أقبل بالوقوف وسطكم بلا فهم للموضوع هكذا ! تحدث يا (زياد).

أجبتهم وأنا أُخرج أحد الكتب من الحقيبة صائحًا:

- الحقيبة التي أمامكم يا سادة، والتي يكذب (كمال) علينا مدَّعيًا بأنها كتب قديمة اشتراها وكان ينوي قراءتها لاحقًا تحوي مجموعة من أسوأ وأشد وأخطر كتب السحر على مر العصور، ولم يجد أمامه سواي أنا من ضيعت عمري في القراءة ليحاول خداعي بتلك الكذبة البلهاء!

رسمت كلماتي الذهول والدهشة الممزوجة بالغضب على وجوه الجميع، فلم أرَ في حياتي (أوَّاب) ذو الوجه المتسامح الباسم دائمًا ووجهه وعيناه تحملان ذلك الغضب المتأجج الذي أراه الآن، ولا (ساجد) الذي انفجر في غضبٍ شديدٍ صائحًا:

- كيف سأرفع يدي إلى الله طالبًا منه الشفاء لوالدتي في شقة لا تدخلها الملائكة ويُمارس فيها السحر.

لو أنها أيامنا الأولى مع (كمال) لانقضضنا عليه ولفتكنا به، لكن ماذا نفعل وبيننا الآن جدار سميك راسخ من تعايش وعشرة وذكريات لا تُنسى، إذا كان هذا هو شعوري أنا فكيف بشعور (أوَّاب) و(همَّاس) وهم من سكنوا معه قبلي، بل كيف هو شعور (ساجد) آخر الوافدين إلينا، وكيف سينسى معركة الحارة وأن (كمال) قد عرض نفسه للخطر

ونزل ليقاتل لأجله ببسالة من أجل إنقاذه !! صمتٌ امتزج بدخان الغضب الذي يغلي داخلنا والذي تصاعد ليملأ جو الغرفة ليبقى كل شيء على حالة دون أن يفعل أحدنا أي شيء.

صاح (همَّاس) بحدّة محاولًا أن يمنع تعقد الموقف قائلاً :

- إياكم أن يفكر أحد في التعرض لـ(كمال) أو المساس به.. "على جثتي".

التفت بعدها بذات الغضب لـ(كمال) قائلًا:

- وأنت يا (كمال).. هذا فراق بيني وبينك ، تفرقت طرقنا ... أنت من طريق وأنا من طريق آخر.

دخلت الفتاة التي كانت علي الباب بالخارج لترجو (ساجد) قائلة:

- أعطني الحاسب من فضلك.. غيَّرتُ رأيي ولا أريد إصلاحه.. أعطني إياه من فضلك.. أريد الرحيل الآن.

قفز (أوَّاب) بسرعة نحو حقيبة كتب السحر يريد البدء بتمزيقها فوثبت أمامه بسرعة لأمنعه بعد أن أدركت نيته وما ينوي فعله وأنا أصرخ به قائلًا:

- إياك أن تفعل فكتب السحر الملعونة هذه لها حراسها وحماتها من الجن ، وستكون مصيبة كبرى إن فعلت ذلك.

لمحت هاتف (كمال) المحمول على أحد الأرفف فقفزت لرأسي فكرة مجنونة بأن أحرق قلبه على هاتفه ، التقطت الهاتف بسرعة وقذفته بكل قوتي في الحائط ليسقط على الأرض كأجزاء وقد انتهت حياته كهاتف ، لكني لم أعلم أبدًا بأن ما فعلته كان شرارة البدء التي أطلقتها ليبدأ كلٌ من (ساجد) و(أوَّاب) بقذف كل ما يجدونه أمامهم

على الأرفف من أشياء في الحائط أو الأرض بغلٍ كما فعلت أنا بالهاتف.. وهنا دوى صوت الانفجار هادرًا !

****

سأل الصحفي المعلّم (صبحي) قائلًا:

- تقرير خبراء المفرقعات أفاد بأن لا أثر لوجود بارود أو مواد متفجرة بموقع الحادث، وأن الأمر أشبه باللغز! فهل لك أن تخبرنا بما حدث بما أنك مالك العقار الذي وقع به الانفجار؟

أجابه المعلّم (صبحي) قائلًا:

- كنت بالمقهى حين سمعت صوت دويّ انفجار وكأن الحرب قد قامت، هرعت ومن معي بالمقهى بسرعة لمصدر الصوت، لأجد شقة الطابق الأخير قد أصبحت عارية بلا جدران!

- وأين من كانوا بالشقة؟

- لا أحد يعلم عنهم شيئًا .. اختفوا تمامًا!

- وهل المختفون هم سكان الشقة فقط؟

- كانت معهم (فاتن) إحدى فتيات حارتنا، أخبرتنا أختها بأن حظها العاثر دفعها لحمل حاسب الأستاذ (فهيم) المحامي والذهاب لإصلاحه لدى مهندس الحاسبات المقيم بالشقة لتختفي معهم هي الأخرى.

- ألم تلاحظ أي شيء غريب على الشقة أو المنطقة بعد حادث اختفاء الجدران؟

أجاب المعلّم (صبحي) وهو يشير لجمع من المحيطين به قائلًا:

- بيتي والمنطقة أصبحا مزار سياحي يقصده العشرات كل يوم ليروا الشقة سائلين أين السكان والجدران؟!

على بعد خطوات قليلة من اللقاء الصحفي الذي كان يُجريه المعلّم (صبحي) كان (راجي) يقف في ذهولٍ يتساءل هو الآخر:

- ما الذي حدث لهذه الشقة ليختفي السكان والجدران؟!

* * * *